Mngool.com

الفلسفة وقضايا العصر

مقالات وأبحاث

جمعها: جون ر. بورر
ميلتون جولدينجر

ترجمة: د. أحمد حمدى محمود

الجزء الثانى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٠

● ثالثاً:

الديمقراطية والمجتمع

مقدمة الفصل

تأمل هذين الموقفين : الزمان ـ مساء يوم ١٤ ابريل الماضى • وقد انتهيت من ملء نموذج ضريبة الدخل ، وكان ما أفزعك هو اكتشـافك أنك مدين بضريبـة اضـافية لحـكومة الولايات المتحدة بمبلغ مائتى دولار ، وبعد أن راجعت دخلك جملة مرات ، تنهدت ، وكتبت شيكا بالمبلغ المطلوب . لأن الموقف كان يحتم اما الدفع ، أو الغرامة ، أو ربمـا الزج بك فى السـجن • وبعـد أن همهمت وأرغيت وأزبدت ، توجهت سعيا على الأقـدام الى صـندوق البريد المثبت فى البناء المجاور • وعند عودتك الى منزلك ، صوب انسان لم تره من قبل مسدسه اليك ، وطالبك بتسليمه كل ما معك من نقود • وليس أمامك هنا أيضا أى خيـــار • وكتمت غضبك ، وسلمت اللص خمسـين دولارا ، هى كل ما احتـوته محفظتك • وانتهت الحكاية نهـاية سعيدة نوعا ، بعـد أن عدت الى منزلك سالما ، وان كنت أن أصبحت على فيض الكريم •



فهل هناك أى اختلاف ذى بال بين هذين الموقفين ، أم أنهما متماثلان ، مع استثناء بعض اختلاف التفاصـيل ؟ فالموقفان قد

اشتمالا على فقدان للمال وتهديد ، أى على شيئين كنت تفضل تجنبهما . وهل تزيد الحكومة عن كونها لصا ، وان كانت بالقياس أشد جشعا ؟ ، وهل يعد اللص حقا واحدا من أصحاب الفراهة والتدبير ، كما يبين من تحديه البطولى لاحتكار الشركات ؟ بطبيعة الحال ، قد يعتقد كثيرون أن الموقفين ليسا متماثلين على الاطلاق ، لأن الضريبة عمل قانونى مشروع ، وله ما يبرره ، بينما تعد السرقة عملا اجراميا غير مشروع ليس له ما يبرره ، وتمثل ضريبة الدخل جزية عليك أن تؤديها . ولقد رضيت عن ذلك ، أو بمعنى أصح ، لقد رضى عنها ممثلو الشعب الذين قمت بانتخابهم . ولكنك لم ترض عن تعرضك للسرقة . وبناء على ما جاء فى التعديل السادس عشر ، فان ضريبة الدخل تعد عملا دستوريا . أما السرقة تحت التهديد بالسلاح ، فليست عملا دستوريا . ولا جدال أن السرقة تحت تهديد السلاح ليست عملا ديموقراطيا . أما ضريبة الايراد فوراءها فلسفة سياسية تدعمها عقلانيا ، بخلاف السرقة المسلحة التى ستظل بغير سند من اية فلسفة سياسية تبررها .

***

ويعرض ميدان الفلسفة السياسية مشهدا ثريا ومتنوعا من المشكلات وطرائق التحليل والحلول . ويركز هذا الباب على واحدة من المشكلات : هل يستطاع تبرير قيام الدولة الديموقراطية تبريرا عقلانيا ؟ وهل يمكن اثبات تفوقها على غيرها من اشكال الحكومة ، وفقا لأسس عقلانية ؟ . ان جميع الحكومات ، سواء كانت تدعى اعتناق الديموقراطية ، أو لا تدعى ذلك ، تزعم انها شرعية . يعنى أنها تتمتع بولاء أولئك الخاضعين لسلطانها ، الذين يستحقون أيضا هذا الولاء . وليست الحكومات الديموقراطية استثناء من هذا التعميم . ولا تكتفى الولايات المتحدة بمطالبة مواطنيها بتقديم العون لها بدفع الضرائب . فعندما تدعو الضرورة فان هؤلاء المواطنين يطالبون بالدفاع عنها بالقتال والموت . على انها تعتقد أكثر من ذلك بان من واجب المواطنين الأمريكان الترحيب بالقيام بهذه التضحيات . فاذا رفض المواطن الأمريكانى أو اية جماعة من المواطنين الأمريكان اطاعة الحكومة سيكون فى مقدور أولياء الأمر استعمال سلطة الشرطة لارغامهم على الطاعة ، بل وسيكونون محقين اذا قاموا بذلك ، وتؤكد اية

حكومة شرعية أن سلطانها المادى مستمد فى نهـــاية الأمر من سلطانها المعنوى ، وتبرر الحكومات وجودها وسياستها بالرجوع الى الفلسفة السياسية ، وتزعم الحكومات الديموقراطية أنها تتبع الفلسفة السياسية للديموقراطية ، وعندما دافع ابراهام لنكولن عن قضية الوحـدة فى مدينـــة جيتسبورج فانه لم يبن دفاعه على القدرة على التهديد بالقوة ، ولكنـــه أعلن « أن معنى الأمة مبنى على الحرية ، وأنه يتبع شـعار أن الناس قد ولدوا متســـاوين » ، وتتألف أية فلسفة سياسية ، أيـا كان فحواها من قضــــايا تزعم صحتها وتوافق جميع مكوناتها وعناصرها ، وتصور الحكومة نفسها ـ وبخاصة عندما يتعرض سلطانها للشك الجاد والحاد ـ على أنها تتبع نوعا من الفلســـفة الســـياسية • ومن ثم ينبغى عـدم الظن بوجود هوية بين الفلسفة السياسية للديموقراطيـــة والممارســـات الديموقراطية المألوفة مثل حق التصويت العام ، ونظـــام تعدد الأحزاب ، والتقاليـــد السياسية التى تتمثل فى وجـــود رئيس للدولة وكونجرس ، وتشريعات نوعية •• الخ • ويفترض أن هذه الصيغ والممارســـات الحكومية الفعلية هى أنجع الوســـائل التى اخترعت حتى الآن لترجمة القضايا المجـردة للفلسفة السياسية الى حقائق مشخصـــة • ويفترض أن الحكومة الديموقراطيـــة هى التجسيم العملى للفلسفة السياسية الديموقراطية •

☆☆☆

بطبيعة الحـــال ، تشتمل الفلسفة السياسية للديموقراطيـــة على قضـــايا عديدة ، وليس مجـرد قضية أو قضيتين رئيسيتين مثل قضية أن جميـع الناس قد ولـدوا متساوين • واذا تمعنا فى أيـة فلسفة سياسية جادة ، سنرى انها اشد تعقيدا ، وانها لاتقتصر على عدد محدد من القضايا ، مهما كانت كثرتهـــا ، وتفسر هذه الحقيقة ـ عرضـــا ـ انعـدام التوافق بين بعض الأقـوال التى كثيرا ما تتردد بين الحشـود دون أن تلحظ • ومع هذا فلنركز هنيهة على القول بأن جميع الناس قد خلقوا متساوين حتى نيسر مهمة التصوير ـ فى ايجاز ـ لما يفعله الفيلسـوف بحكم مهمتـه عنـدما يفحص أية فلســفة سياسية • ويسعى الساسة الديموقراطيـــون لاستخدام الفلسفة السياسية للديموقراطية ومناصرة مبادئهـــا ، وتجديد ثقة الناس بهـا • ويعمل الفيلســوف وفقا لمناحى أخـرى • فهو يسعى للافصاح عن كل صغيرة وكبيرة تتألف منهـا الفلسفة

السياسية للديموقراطية ، ثم يحاول بقدر الامكان طرحهـا فى صورة خالية من أى غموض وأبهام وشـوائب عاطفية • فما الذى يعنيه القول : « ان جميع البشر قد خلقوا متساوين » وهل هذا هو أفضل تعبير عن هذه القضية » ؟ ان كل كلمة متضمنة فى هذا القول من الميسـور العثور عليهـا فى القاموس ، وقد ترابطت الكلمات بعضها ببعض طبقا للقواعد الصـحيحة للنحو ، فهل تعنى كلمة « خلقوا » أى تصور لعملية خلق الهى للانسان ، بحيث يتعين تضمين هذه الفلسفة السياسية الديموقراطية بيانات لاهوتيـة معينة عن الله وأصل الانسان ؟ وليس من شك أن بعض أنصـار الديموقراطية قد ذكروا أن الديموقراطيـة تسـتند الى الأديان السماوية ، والى قوى خارقة فوق الطبيعة ، وأنها فى الواقع تجسيم لارادة الله • واتفق بعض نقاد الديموقراطيـة هم والمدافعون عن الديموقراطية ، على أن لها أصلا الهيا ، ووصفوها بأنهـا بمثابة الأخلاقيات المسيحية بعد ترجمتها الى لغة الأرض ، ومع هذا فقد استمر هؤلاء النقاد يجادلون ويقولون ان ارتبـاط الأخلاقيـات المسيحية ، من حيث صحتها ومعنـاها ، بقبول العقيدة المسيحية بحذافيرها مسألة مبهمة ، ولكن وفقـا للنظرة العلمية السـائدة حديثا ، فان العقيدة المسيحية لم تعد تبدو كحقيقة ، ولكنهـا أصبحت تظهر بمظهر الحلم • وتبعا لذلك ، لم تعد الديموقراطية تبدو أكثر من حلم ، بغض النظر عن درجة استهوائه لنا ، وردا على ذلك ، ينازع أنصار الديموقراطيـة من المتدينين هذا الرأى ويقولون أن النتيجـة الجـائزة التى تستخلص من ذلك هى أنه لو أريد للديموقراطية البقاء والانتعاش فيتعين على كل انسـان « أن يكون متدينا » ، وشـجع مجتمعنا المتعدد الأديان القائمين بالدفاع عن هذه القاعدة الدينية للديموقراطية ، وحثهم على توسيع هذه القاعدة بحيث لاتقتصر على المسيحية ، وطالب بأن تضـم أديانا أخرى ، بل وأن يكون المقصود من كلمة الدين هو معنـاه المجـرد • والى جانب ذلك ، فكيف يصـح التوفيق بين القصـة التى ترى لكل فرد قيمة فى ذاته ، ومبدأ خلق جميع البشر متساوين ؟•

فما المقصـود بالمسـاواة ؟ هل هو المسـاواة فى المواهب ؟ أم المساواة فى الدخل ؟ أم المساواة أمام القانون ؟ أم المسـاواة فى الفرصة ؟ ان كل مواطن بالغ لايتصف بالخبل أو التخلف على نحو لاتخطئه العين بوسعه أن ينهض باقتدار بأية وظيفة بالانتخاب • فهل تعنى كلمة « مسـاواة » جميع هذه المعانى أم بعضـها ،

أم لا تعنى أى معنى منها ؟ • وأخيرا فاذا سلمنا بوضـوح معنى عبارة « جميع الناس خلقوا متساوين » ، واتفقنا على ذلك ، فهـل هذه القضية صحيحة أم باطلة ؟ وعلى أقل تقدير ، ما هو الدليل ـ ان أمكن العثـور عليـه الذى يمكن قبوله ـ الذى ينقض هذه القضية ؟ فهل تعد قضية « جميع الناس خلقوا متساوين » تعميما تجريبيا مثل قولنا ان الماء يتجمـد فى درجة الصفر المئوى ؟ • ولو صح ذلك ، فان ظهور انسان واحد لايتسـاوى فى خلقه والآخرين ، قد يثبت بطلان هذا التعميم ، أم هل تعـد القضية « جميع الناس خلقوا متساوين » قضية ايعازية أكثر منها قضية وضعية • فهل هى بدلا من أن تؤكد حالة من الحالات ، قد عبرت عن رغبة ، أو رغبتنا فى خلق الجميع متساوين ؟ على أنه اذا كانت قضية جميع الناس خلقوا متسـاوين » قضية ايعازية ، فانهـا لن تكون صحيحة أو باطلة ، لأن الرغبة لاتوصف بالصحة أو البطلان•

★★★

ولا تهدف هذه المقدمة الى الاجـابة عن هذه التسـاؤلات ، وانما ترمى الى التنويه بالطابع المتميز للتنـاول الفلسفى للفكر السياسى ، الذى يضم جملة أشياء كالجمع بين وضوح التصورات وتحديد مدى التوافق المنطقى وصـوغ معايير الحق والباطـل وتقييمها ، والتبصر ـ فى نهاية الأمر ـ فى حقيقة المزاعم الخاصة بالمبادىء التى يرجع اليها لتبرير الفعل السياسى • وثمة اختلاف بين الفلسفة السياسية والمجالات السياسية التى تدور فى الحياة اليومية ، والبيانات الوصفية للسـلوك السياسى الفعلى ، بالرغـم من أن هذه البيانات قد تؤثر فى الفلسفة السياسية ، كما انهـا تتأثر بها • وتتميز بعض الفلسفات السياسية بشمولها ، فهى تضـم موضوعات متفرقة ، كأن تشتمل على نصـائح عملية بصـيرة لكيف تصبح طاغية ناجحا ، أو كيف تكسب الثورة • وقد تقدم رؤى للصورة الشاملة ، أو أسلوب الحياة ، الذى قد تندرج تحته جميع أنشـطة الحيـاة الانسـانية الفردية والجماعية معـا ، ابتـداء من كيف تكسب الانتخابات وتقبض على زمام السلطة فى الدولة الى المذاهب التى تتحدث عن الطبيعة البشرية وطريقـة توجيـه التاريخ وطبيعة الواقع ، أى أنها تضـم كلاما يتراوح بين المناورات السياسية ، والسياسة من الناحيـة الميتافزيقية • ومن الحـق ، واعتمادا على ما تتصف به الفلسـفة السـياسية من جراة فى

تأملاتها ، وطريقة تصورها لما سيؤول اليه الأوضاع السياسية ، فانها تمتد الى حدود تتجاوز ما قد يعتبره علماء الاجتماع نطاق الأبحاث النظرية العلمية بمعنى الكلمة ، ان هذا الانفتاح ، الذى امتد الى خارج الحدود العلميـة الدقيقة كثيرا ما زاد من قوة الفلسفات السياسية ، وساعدها على الحصول على ولاء الملايين ممن كانوا يوما من الأيام من الخاضعين للدين • اذ كان التأثير فى الحياة العملية للبشر من عهد افلاطون حتى عهد كارل بوبر هدفا من الأهداف الرئيسية لفلاسفة السياسة •



ولنعد هنيهة الى مثل دفع فلان للضرائب ، ومثل تعرضه للسرقة • ان ضريبة الدخل العام ضريبة دستورية ، جاء ذكرها فى قوانين البلاد ، ومن ثم فيفترض أنها تمثل ارادة الأغلبية الذين يدفعون ضريبة الدخل رغم انوفهم مثلما لايرضون أو يقرون التعرض للسرقة ، فما هى الأسس العقلانية المقنعة التى يمكن الاهتداء اليها فى الفلسفة السياسية الديموقراطية والتى تفسر لماذا تخضع الأقلية المعارضة لمشيئة الأغلبية ، ولا تسعى بكل قدراتها لتجنب دفع الضريبة ؟ ، وهل يعكس صوت الأغلبية حقا ارادة اغلبية المواطنين ؟ ليس العثور على اجابات مقنعة عن هذه الأسئلة مسالة سهلة ، كما قد يلوح فى بداية الأمر • ان القوانين تقترح ويصدق عليها من قبل ممثلين منتخبين ، وليس عن طريق الصوت المباشر للشعب • وتقوم جماعة « اللوبى » من اصحاب (الفهلوة) الذين لايمثلون الشعب ، وانما يمثلون شراذم الأثرياء من اصحاب المصالح بترويض ممثلى الحكومة بلا توقف • وقبل أن يصوت المجلس التشريعى على القوانين فى جملتها يتعين مرورها على احدى لجان المجلس التى تتألف من عدد صغير فحسب من المشرعين • وترتب على نظام الأقدمية فى كونجرس الولايات المتحدة ، ان آلت الرياسة القوية لهذه اللجان الى ممثلين يعاد انتخابهم المرة تلو الأخرى من قبل فئة صغيرة من الشعب الأمريكى تمثل الولايات والأقاليم ، حيث لايواجه المرشح أية معارضه سياسية ذات بال ، وأدت التكاليف الباهظة المتزايدة للحصول على الوظائف القومية العليا الى عدم اقبال أحد على التقدم اليها فيما عدا اصحاب الميسرة الذين قد يضطرون احيانا الى استدانة مبالغ طائلة من الأفراد والمؤسسات والاتحادات وغيرهما

من الجماعات القادرة على تكبد مثل هذه النفقات • ولاينتخب رئيس جمهورية الولايات المتحدة ، الذى يمثل جميع الأمريكيين ظاهريا انتخابا مباشرا من الشعب • واذ سلمنا بأنه حصل على العدد الضرورى من الأصوات الانتخابية ، فان بوسع المرشح أن يصبح رئيسا للولايات المتحدة حتى وان لم يحصل على أغلبية أصوات الشعب • وفضلا عن ذلك ، فان أغلبية من يتمتعون بحق التصويت كثيرا ما يعزفون عن ممارسة حقهم المشروع • وأخيرا فان قلة من المرشحين للوظائف العامة يختارون بالاجماع • اذ يقوم المصدقون اما بالتصويت لخصومهم ، أو يكتفون بالامتناع عن التصويت امتناعا تاما ، معنى هذا انه فى جميع الأوقات هناك عدد لا بأس به من الأمريكان يعارضون من يحكمونهم ، ولايعتبرون حكامهم ممثلين لارادتهم على الاطلاق •

★★★

ومع هذا ، فلنفترض ان جهاز الحكومة الديموقراطية قد ادى وظيفته بالتمام والكمال ، وأنه سجل ارادة الشعب على نحو معصوم من الخطأ ، فهل ما تعتقده الأغلبية ، صوابا أو خيرا يكون دائما كذلك ؟ • فى وقت من الأوقات ، اعتقد أغلب الأوربيين أن الأرض مسطحة ، ومنذ أجيال قليلة ، اعتقدت أكثرية من الامريكان أن الرق امر صائب وعادل • لاجدال ان الأغلبية بأعدادها الهائلة قادرة على ارغام الأقلية المخالفة على مسايرتها فى رغباتها ، مهما كان مقدار الاعتراض الصامت للأقلية • غير أن كل ما تثبته هذه الحالة هو تفوق الأغلبية فى العدد والقوة ، وليس تفوقهـا فى العلم والفضل • فاذا استطاعت الأقلية المخالفة الخضوع للأغلبية لمجرد كون « التصميم » أفضل من السير المتردد على غير هدى ، بغض النظر عن طريقة الاهتداء الى هذا التصميم ، فان الديكتاتور عندما يطمئن الى سلطانه سيتمكن من تحقيق قدرته على اتخاذ القرار بطريقة بعيدة عن التناقض والتذبذب ، التى كثيرا ما تحدث فى حالة الأغلبية الغامضة المتقلبة التى زادت الدعايات المتضاربة من حيرتها ، ويعكس قرار الأغلبية حال الأفـراد الذين يؤلفون هذه الأغلبية • فمثلا الأغلبية المؤلفة من أغبياء من المقدر لها ان تهتدى الى قرارات حمقاء اكثر من أغلبية اصحاب الرشد • ولربما استطاعت مثل هذه الأغلبية المؤلفة من اشخاص على (قد الحال) ، ان تخرج بمحض الصدفة ببعض القرارات الحكيمة • ومع هذا فان

الحكمة العشوائية يصعب الاعتراف بهـا كسبب مقنع للقبول الدائم لارادة الأغلبية • ألا يصح اعتبـار صوت الشخص الذى يجمع بين الرشد والعلم والشعور بالمسئولية والتحضر مساويا لضعف أو ثلاثة أضعاف صوت أحد الأوباش الذين يساقون من الحانات فى يوم الانتخـاب ، ويغرون بكوب من الشراب فى مقابل الادلاء بصوتهم ؟ لعل الأنسب هو أن لايحصل الأفراد على امتياز التصويت الا بعد قيامهم باسهام ذى قيمة للمجتمع ، أو على شريطة أن يكونوا قادرين على اعالة أنفسهم ، أو لديهم نسبة ذكاء تزيد عن الثمانين فى المائة • لقد قيل أن أرباب الملكيات الأكبر ورأس المال الأوفر أقدر على تحمل عبء تقرير مصير البلاد ، لأنهم يخشون التعرض للخسارة أكثر من « الغلابة » ، ومن ثم فمن حقهم أن يقرروا سياسة الحكومة ، لأن أولئك الذين لا يملـكون الا النزر اليسير ، أو المعدمين من المحتمل أن يسلكوا مسلكا انانيا أو أرعن ، وغير مسئول • ولاننسى أن أربـاب الوظائف من الأثرياء محصنون ضد الرشوة ، لأنهم ليسوا بحاجة الى المزيد من المال ، لأن لديهم بالفعل ما هو أكثر من الكفاية •

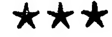
★ ★ ★

ويتعذر تقديم تبرير عقلانى للديموقراطية بغير الموازنة بين فضائل الصور البديلة من الحكومة ، ولقد اعتاد الجميع مصطلح الديموقراطية ، مما أدى الى تصورهم لها كأسوأ صـورة من صـور الحكم ، باستثناء جميع الصور الأخـرى التى جربت ، غـير أن القيمة المزعومة للديموقراطية من الصعب أن لا تقـابل ببعض الاعتراضات ، اذ ترى الفلسفة السياسية للشيوعية التى يحيـا ملايين الناس حاليا فى ظلها ، أن الديموقراطية الأمريكية زيف ، ومن المقدر لها أن تختفى مستقبلا • وتتعارض الفلسفة السياسية للأناركية (الفوضوية) هى والديموقراطية الأمريكية ، لأنها تعتبر جميع الحكومات تحمل شرورا فى ثناياها •

★★★

لم يقصد بالملاحظات المذكورة آنفا حسم النزاع حول مزايا الديموقراطية ، وانما قصـد بهـا الاشارة الى حقيقة كون هذه المشكلة مسألة حيوية وغير مصطنعة •

ولقد اعترف بجون ديوى طويلا كواحد من رواد الفلاسفة الذين دافعوا عن الديموقراطية • وسعى جون ديوى خلال حياته الخلاقة التى امتدت طويلا على نحو غير مألوف لاعادة تفسير ديموقراطية القرن التاسع عشر الأمريكية بطريقة قد تبدو متجاوبة والمجتمع الصناعى التكنولوجى فى القرن العشرين• وتراءت له الديموقراطية كأسلوب شامل للحياة ، وليس مجرد صورة من صور الحكومة ، اذ بدت الديموقراطية لجون ديوى كتجسيم كامل لما تعنيه كلمة مجتمع • وتعد الممارسات السياسية ، التى اقترنت باسم الديموقراطية « أفضل وسائل » اخترعت حتى الآن لتحقيق مشاركة كل انسان ناضج فى تشكيل القيم التى تنظم عيش الناس سويا ، ويرى ديوى هذا « التشكيل » الخاص بالقيم عملية مستمرة لاتنتهى فى مسيرتها أكثر منها عملية اكتشاف شىء شبيه بالنسق الأبدى المطلق للقيم ، وروح الديموقراطية روح ليبرالية ، انها روح لاتتوقف عن نقد مبادئها الأولى • ولا يضعف مثل هذا النقد المجتمع ، كما يدعى الدوجماطيقيون الرجعيون والراديكاليون على السواء • انه يعزز الديموقراطية ، ومن ثم فيتعين أن تكون الحرية الأساسية فى الديموقراطية هى حرية العقل ، الذى يعد شرطا اساسيا لازدهار الروح الليبرالية •



ويرجع ديوى الى طبيعة البشر لتبرير الديموقراطية • فلا أحد بمقدوره اكتساب قدر كاف من الحكمة أو الفضيلة يمكنه أن يحكم الآخرين دون موافقتهم ، ولقد أخطأ افلاطون فى جمهوريته • فلا أحد باستطاعته اكتساب مقدار كاف من الحكمة والفضيلة • ولا وجود لخبراء فى الحكم ، ولا وجود بالتبعية لخبراء بهذه المهمة نرتضى الخضوع لهم كلية ، ويرجع السبب الرئيسى لهذا النقص فى خبراء الحكم ، الذى لا علاج له ، الى عدم امكان المام اى حاكم او مجموعة من الحكام بما يكفى لتبرير سلطانهم المطلق • وكما ذكر ديوى ، ان من يرتدى الحذاء وحده هو القادر على معرفة أين يضيق فيوجع القدم ، ويتعين أن يكون قادرا على دفع الحكام الى الانتباه لما يوجعه ، ومع هذا فمهما كان نصيب الصورة الديموقراطية للحكم من النقص ، الا انها اثبتت فاعليتها فى تنبيه الحكام الى حال المحكومين ، واستحثاثهم على العمل لازالة الألم أكثر من أى نظام ملكى أو ديكتاتورى ، سواء

أكانت ديكتاتورية بروليتارية ، أو ديكتاتورية تخضع لمجموعة ما أو فرد ما ، فما لم يوقف المحكومون الحكام عند حدهم ، ويردونهم على أعقابهم ، فان الحكام مهما كانت نواياهم طيبة ، لن يكفوا عن اضطهاد المحكومين ، وجميع أشكال الاستبداد شر • ان كبح جماح القلة بوساطة الكثرة هو اللحن المميز الرائد (اللايتموتيف بلغة الموسيقى فاجنر) لأى مجتمع ديموقراطى • اذ يتعين أن يكون الأقل موهبة وعامة الناس قادرين دائما على توجيه الأعظم موهبة أى الخبراء ، ولولا ذلك لانتهى الأمر ، ان عاجلا أو آجلا ، بهيمنة هؤلاء الموهوبين وأمثالهم على الطرف الآخر ، ان هذا حكم يبدو فظا فى نظر الأكاديميين وغيرهم من أهل الرأى • فهم جميعا قد خدموا عن طيب خاطر « الطغاة الخيرين » ، بينما كانوا يحلمون فى منامهم ، بالقيام بمثل دور هؤلاء الطغاة •

★★★

ويرى ديوى هذا الخضوع الديموقراطى من جانب الحكام للمحكومين ، سواء فى الحكومة أو أية منظمة اجتماعية أخرى ، قد تحقق على نحو غير كامل البتة فى أى مجتمع قائم • ففى ظنه أن الديموقراطية عقيدة ومثل أعلى • وليس بالاستطاعة تقييم العقيدة والمثل الأعلى الا باكتشاف عواقب العمل بموجبها ، وليس بوسعنا اكتشاف هذه العواقب الا بالعمل ، واذا استشهدنا بمثل لم يذكره ديوى قلنا أن مزايا المثل الأعلى لودرو ولسون عن عصبة الأمم لم يك من المستطاع تبريره اعتمادا على التأمل المجرد وحده ، وانما بمحاولة تطبيقه عمليا فقط ، فهل يثبت الاخفاق الفعلى لعصبة الأمم ان المثل الأعلى لولسون كان حماقة ؟ • كلا ! ان ما كان يؤمن به ولسون قد أعيد خلقه فى الأمم المتحدة ، التى لم يتقرر مصيرها النهائى بعد • وتعتمد طبيعة القرار على ما تفعله الآن ، وما ستفعله فى المستقبل • وبالمثل فليس بالمقدور تقييم ميزة أى فرد بالرجوع الى أى مبدأ كالأسرة والجنس والدين ، وأى معيار لم يسبق فعله ونتائجه • فيتعين عدم الخلط بين المساواة الديموقراطية والتساوى فى القدرات • ان معنى المساواة فى الديموقراطية هو مساواة الفرصة : فرصة كل فرد للكشف عما بوسعه أن يفعله • اذ يتعين اختيار المثل العليا والأفراد والمنظمات والفلسفات بالرجوع الى نتائجها ، لا عن طريق البحث عن أصولها أو اية طبيعة ثابتة تنسب اليها ، وعلى هذا يكون

أوفى اختبار للديموقراطية هو المزيد من الديموقراطيـــة ، ولقد ظهرت كثرة من أنظمتنا الاجتماعية ، قبل أن تعرف الديموقراطية ، ومن ثم فانها تعكس العـادات اللاديموقراطيـة لمـاض سلطوى . والتعليم هو مفتاح نجاح الديموقراطية ، ولابد من تخطيط التعليم الحديث بحيث يغذى العادات الديموقراطية عند النشء . اذ يعد الفوضويون على خطأ عنــدما يدعـون أن جميع الحكومات شر ، لأن الحياة الجماعية » وبخاصة فى مجتمعنا المعقد تتطلب التخطيط والتنظيم ، أى وجود حكومة ذات شكل ما ، ولا تدور القضية حول هل تكون هناك حكومة أم لا تكون ، ولكنها بالأحرى تتركز حول أى نوع من الحكومات يكون قادرا على استخلاص ماله قيمة بوسع كل عضو فى المجتمع أن يسهم به من خلاله مشاركته الاختيارية .

***

منكن L. Mencken ناقد أمريـكى للأفكار .

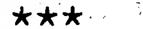
ولقد وجه نقده بخاصة الى فكرة الديموقراطية . واشتغل منكن أيضا بالصحافة ، وعلق على جميع الاتفاقات السـياسية القوميه تقريبـا فى النصف الأول من القـرن العشرين . وكان يعرف السياسة الأمريكيـة والسـاسة الأمريكان معرفة وثيقـة . وفى اعتقاده أن أغلب المدافعين عن الديموقراطية قد نظروا الى أفعال الحكومة الديموقراطية من خلال ضباب المثالية » ومن ثم فانهم لم يتمكنوا من رؤيتها كما هى بالفعل ، وانمـا كما يشتهون أن تكون . ورأى منكن السياسة الديموقراطية « مجـرد معركة بين أوغاد متنافسين » للوصول الى مقاعد الحكم ، والاستقرار فيها ، فبلا استثناء ، ان جميع السـاسة مخادعون » وأسـوأهم هم المصلحون ، الذى يحاولون ـ من باب التمويه ـ تغطية أساليبهم فى الغش باصطناع الفضيلة . فلا أحد من الساسة قادر على ذكر بيان كامل عما يؤمن به باخلاص ، ومع هذا فانه يأمل فى انتخاب الجماهير له . وتطلب الديموقراطية من قادتها التخلى عن الأمانة ولا تساعد الديموقراطية على نهوض الاخلاص عند البشر ، فلعلها تحطمه على نحو لا يختلف » وما يحدث فى أى نظـام تسلطى ، والحق أن بوسعها يقينا أن تحقق ذلك ، مادامت تثابر على تفتيت الأخلاق ، عوضا عن القمع والعنف .



ويعتقد منكن أن الفلسفة السياسية للديموقراطية ترتكز على مقدمات زائفة • فليس الانسان الدارج وعاء لأى نوع من أنواع الحكمة ، وعلى عكس ذلك ، أنه يتصف بالغباء والعجز ، اللذين لا علاج لهما ، لأنهما خاضعان لسيطرة الخوف ، والخوف من الأفكار فوق كل شيء » ، ولايتطلع الانسان الدارج للحرية ، ولكنه يخشاها • وما يشتهيه هو الأمان والقناعة ، على نحو شبيه بالابقار ، وثمة أقلية صغيرة تتألف من أفذاذ مثل جون ديوى ، يرغبون الحصول على الحرية الفكرية • ويرى منكن أن ديوى قد وقع فى الخطأ الشائع ، الذى دفعه الى افتراض أن أغلب الناس يرغبون ما يرغب • فلا عجب اذا شعر الليبراليون المرة تلو الأخرى بالدهشة والغضب ، عندما يقعون ضحايا لشيء أشبه بالشعوذة الموسمية ، ولو اتصف الليبراليون بالواقعية ، لكان بمقدورهم توقع ذلك فى ظل الديموقراطية • وسيرون آنئذ أن المزيد من الديموقراطية لن يشفى أوصاب الديموقراطية ، ولكنه سيقضى قضاء مبرما على الحرية التى يصبون اليها • اذ لا يرغب الانسان الدارج ، التساوى فى الفرصة ، الذى يتيح للأفضل انماء تفوقه ، وبذلك يتحقق له الانتصار ، بالتبعية ، على من يصغرونه • ان الانسان الدارج لايرغب أن يكون فى مستوى أقل من مستوى الأخيار ، ولكنه يتطلع للتميز على من هم أفضل منه ، وليس التساوى معهم • والعلامة ، التى لاتخطئها الفراسة لضآلة الانسان الدارج ، والتى تشغل باله هى الأخلاقيات ، ومن هنا نراه يحول كل قضية من قضايا الديموقراطية الى قضية أخلاقية ، اذ تعد الأخلاق السلاح الرئيسى فى ترسانة الضعفاء وأصحاب الضآلة ، فى صراعهم ومن هم أفضل منهم بحكم الطبيعة • ويسعى هذا النوع الى اضعاف نقيضه بتسميمه بالشعور بتأنيب الضمير ، ان أولئك الذين يشعرون بتهديد البيئة التى يحيون فيها من أثر عجزهم على التسيد عليها ، يهرفون كثيرا ، بالتحدث عن « العدالة » ، وعن « حقوقهم المقدسة » • ويرمز جون روكفيلر الذى جمع ثروة طائلة ، بعد أن حطم منافسيه بكل عنف بينما كان يدرس فى مدارس أيام الأحد (دروسا دينية) ، يرمز الى كيف يتحقق حلم الانسان الدارج • نعم لقد خلقت أمريكا طبقة أريستقراطية ، بيد أنه قد اتضح ـ من أسف ـ أنها مجرد أريستقراطية دارجة ، أى بلوطقراطية ، تتصف بالنفاق والأنانية والجبن •

★★★

وتبعا لانتقادات منكن ، فان الفلسفة السياسية للديموقراطية ، لاتعتمد على قضايا زائفة فحسب ، ولكنها تنمى أيضا قيما باطلة • فهى ترفع من شأن الحمقى والجبناء والأنذال ، وتضطهد الأذكياء والأمناء والشجعان الذين لايعرفون الكذب ، ولا يشترون بالمال • لقد أصاب الشيوعيون عندما رأوا تاريخ البشر كفاحا تعترضه جملة عراقيل • غير أنهم فسروه تفسيرا ضيق الأفق على أنه حرب بين الطبقات الاقتصادية • وفى الحق ان هذه الحرب الأهلية الطويلة التى استعرت بين البشر أرحب ، وترجع الى أصول أعمق ، ولا تقتصر على النواحى الاقتصادية ، انها صراع بين أقلية متفوقة تكافح من أجل الارتقاء والتقدم ضد المحاولات المتكررة لأغلبية حسود متدنية ، تعمل على « فرملتها » ولاتزيد الفلسفة السياسية للديموقراطية عن حرب دعائية تشنها هذه الأغلبية الرجعية • فماذا عن الحرب ؟ انها غارات يشنها أولئك الذين رفض السماح لهم بدخول نادى النخبة ، وعندما نجحوا فى آخر الأمر ، فانهم أخفقوا ، لأنه عندما يباح الانتماء للجميع ، سيفقد النادى حين ذاك امتيازه ، وتفقد العضوية قيمتها ، وفى الوقت نفسه ، فلقد ألف الأعضاء الأصليون ناديا منفردا آخر ، أصبح الآن عرضة للهجوم • وهكذا تستمر الحرب ، التى تقهر نفسها ، وتبدو أحيانا مثيرة ، وتبدو فى أحيان أخرى بهيجة ، ولكنها تتصف دوما بقسوتها •



ويناصر لينين جانبا من الأغلبية الهينة الشأن والرجعية التى أدانها منكن : البروليتاريا ، فلقد اعتقد أن الرأسماليين يمثلون أقلية مزعجة وأنانية ورجعية تضطهد أغلبية سامية وتقدمية • بينما لا يستبعد وجود أفراد بين الأقلية السامية والأغلبية المتدنية ـ عند منكن ـ فى جميع الطبقات الاجتماعية والاقتصادية • ويحاجى لينين ويقول أن الديموقراطية الحقة لن تتحقق الا فى المجتمع اللاطبقى ، الذى سيترتب على استيلاء العمال على الدولة ، وازاحة الرأسماليين ، ان الديموقراطية المزعومة للنظام الرأسمالى ، « ديموقراطية الأغنياء » ، كما يسميها لينين ، هى عار ، لأن قيودها الضيقة « قد استبعدت الفقراء من حلبة السياسة ، وسحقتهم ، وحرمتهم من المشاركة بدور فعال فى الديموقراطية » • ويقرر لينين القول بأن دواء أوصاب الديموقراطية هو المزيد من

الديموقراطية : أى ديموقراطيـة البروليتاريا ، ولن تجىء هـذه الديموقراطية الأعظم عن طريق الاصلاح الليبرالى ، كمـا يزعم ديوى وغيره من الديموقراطيين البورجوازيين ، ولكنها ستتحقق بفضـل الثـورة ، وما يصحبها من عنف ، ويتكشف قصـور الديموقراطية الرأسمالية من رفض الطبقة الرأسمالية الموافقة على تصفية عبيدها الأجراء ، أما الديموقراطية بمعناها الصحيح للمجتمع اللاطبقى بمشاركتهـا الكاملة ، التى تتمثل فى اعطاء كل تبعـا لحاجته ، والأخذ من كل حسب قدراته ، فانها ستعنى تحقيق حرية أعظم للبروليتاريا ، لأن ديكتاتورية البروليتاريا ستحرم الرأسمالى من حريته لاستغلال العمال ، وتدفعه الى الانزواء فى عالم النسيان • وبعـد أن يختفى المستغل الرأسـمالى « ستتلاشى » الدولة ، لانه لن تبقى أية حاجة لوجود أداة للقمع المنظم ، الذى يعد ذريعة قيام الدولة • ولن تكون هناك أية جدوى من الجدل حول هل للثـورة ضرورة ، أو حول دور ديكتاتورية البروليتاريا ، أو اختفاء الدولة ، وهل يلزم حدوث المجتمع اللاطبقى • ومن المحتوم حدوث هـذه الأشياء • ولا مفر من حدوثها تمشيا والقوانين الديالكتيكية المطلقة للتطور التاريخى لكارل ماركس ، والسؤال الوحيد أمامنا هو هل نعتـرف بحقيقـة الماركسـية ، ونقبلهـا ، أم لا ، انهم أولئك الذين لن يواجهـوا أية هزيمة محققة ولن ينتهى بهـم الأمر الى زوايا النسـيان •



ويرى كروبوتكين أن الفوضوية هى المخرج الوحيد من المأزق السياسى والاجتماعى الذى ألفينا أنفسنا فيه ، من أثر التطـورات الاجتماعية والسياسية فى القرن التاسع عشر ، ويرجع هذا المأزق الى انفصال الحرية السياسية عن الحرية الاقتصادية ، وانقطاع الصلة المتبادلة بينهما ، بينما يتطلع النـاس فى شوق للحريتين معا • فاذا لم يتوافر للحكومة قدر عظيم من القوة يجعلها تتصف بالاستبداد ، فانها ستترك للرأسـمالى حرية اضطهاد العامل • واذا توافر للحكومة القوة الكافية لمنع الرأسـمالى من اسـتعباد العمال • فى هذه الحالة ستقوم الحكومة باستعباد جميع المواطنين. قصارى القول اما أن يكون عندنا عبيد أحرار ، أو يكون لدينا عبيد الدولة • فالديموقراطيـة الرأسـمالية والديكتاتورية الشيوعية سيان من حيث شرهما • وعندما واجه البشر المأزق ، فانهم حاولوا

أولا اقناع أنفسهم بأن أحد البديلين أقل شرا من البديل الآخر • غير أن تجربة القرن العشرين ، بما فيها من ديموقراطية رأسمالية ، تتناوب فيها فترات الرخاء والكساد ، والحرب الامبريالية والديكتاتوريات الشيوعية ، التى استطاعت توطيد أقدامها • جميع هذه المظاهر أثبتت أن البديلين غير ملائمين على السواء ، ويزعم كروبوتكين أن المذهب الفوضوى قادر على التزويد بالحرية السياسية والحرية الاقتصادية معا ، بعد الخلاص من الملكية الفردية ، والدولة على السواء ، وتعنى الفوضوية استبعاد التهديد الذى يلجأ اليه الرأسماليون والقوميسار (فى البلشفية) • ولن تستعيض الأناركية (الفوضوية) عنصر التهديد باشاعة الفوضى ، كما يتهمها النقاد ، وانما بالاتفاق الاختيارى والتعاون الاختيارى ، ولن يكون مثل هذا الاتفاق الحر والتعاون الحر أمرا مصطنعا ، ولكنه سيكون « متمشيا مع الاتجاه الأكيد للمجتمع الانسانى » • فلقد بين التاريخ الانسانى أن البشرية سائرة نحو حرية فردية أعظم وأعظم ، ونحو الخلاص من اضطهاد الانسان للانسان • وساعد التطور البيولوجى على تشجيع التعاون الاختيارى ، لأنه يؤدى الى الحفاظ على الأنواع • ويردف كروبوتكين قائلا : الحق أن الاتفاق والتعاون قد أثبتا أهميتهما خلال طريق التطور البيولوجى لتحقيق : « البقاء للأصلح » ، أكثر مما فعل الكفاح والصراع ، وعرف كروبوتكين من قراءاته أن التاريخ والتطور قد أشارا الى أن الفوضوية هى الخطوة التالية لمستقبل البشرية • ولن ندهش اذا رأينا كروبوتكين يشجب العنف المتعمد المتمثل فى القاء القنابل وقتل الموظفين الرسميين • وكان النقاد الذين يسعون الى الانتقاص من الفوضوية ينسبون اليها هذه الأحداث فى كثير من الأحيان • واعترف بعض فلاسفة السياسة أن الفوضوية أمر مرغوب فيه كمثل أعلى ، ولكنهم اما رفضوها لعدم صلاحيتها للتطبيق العملى ، أو تنبأوا بتحققها فى مكان ما فى المستقبل البعيد ، أو قالوا أنها قد وجدت فى الماضى البعيد أيضا ، ويثبت كروبوتكين فى تحليله أن الفوضوية أمر قابل للتحقق الآن ، لأن المازق السياسى الحاضر ، والتاريخ والتطور ، كل هذه العوامل تستحثنا على ذلك •

★★★

على الرغم من أن ما قاله ديوى ومنكن ولينين وكروبوتكين قد تضمن مزاعم غير متوافقة ؛ الا أن هناك مجالات هامة للاتفاق فيما بينهم • ويستأهل الاشارة ما ظهر عندهم من توافق فى نظرتهم الى ما تثيره المشاحنات السياسية فى كثير من الأحيان من انفعالات حادة من قبل المشاركين فيها • وعلى الطالب(*) أن يسعى لصوغ كل قضية من القضايا التى حدث اتفاق بشأنها بين الفلاسفة ، وتلك التى اختلفوا حولها ، فهل تعد هذه القضايا قضايا حقة ،أى معتمدة على الواقع ؟ • وهل هناك أدلة تقبل التصور بمقدورها أن تثبت صحة هذه القضايا أو بطلانها ؟ • وما هى الأحكام التقويمية الصريحة أو الحقيقية التى اتجه هؤلاء الفلاسفة الى الافصاح عنها ، وكيف دافعوا عنها ؟ • وهل هناك توافق عميق فيما جاء فى نظريات هؤلاء الفلاسفة ؟ •

★★★

يثور خلاف متواصل وحاد هذه الأيام حول ما يقال عن صحة البرامج التمييزية ، التى تؤثر طائفة على أخرى فى نظام ديموقراطى يتبنى من الناحية الرسمية مبدأ المساواة • ويرى كارل كوهن ان المسألة موضع الخلاف هى هل يعد التمييز باسم الجنس أو العنصر أمرا مرغوبا • فلم تعد القضية تدور حول أحقية هذا التمييز • اذن يتعين عدم السماح بأى ظلم مترتب على العنصرية • وانما يجب الخلاص على الفور ، وبذل أقصى جهد فى هذا السبيل ، وهل تعد المفاضلة المعتمدة على الفروق العنصرية وسيلة عادلة لتحقيق غاية رفع الظلم العنصرى ؟ • لقد أثارت قضية المفاضلة لأسباب عنصرية عند التحاق بعض الطلاب فى مدارس الحقوق والمدارس الطبية خلافا فى الرأى ، وان كانت هذه القضية لم تقتصر على هذه الحالات وحدها ، ويعتقد كوهن أنه لا متطلبات العدالة ، أو صالح أمريكا وسعيها نحو تحقيق تماسك اجتماعى أفضل ، تؤيد سياسة المعاملة القائمة على التمييز العنصرى ، وما يجب أن نسعى لتحقيقه هو المساواة فى المعاملة ، وليس المعاملة المستندة الى التمييز العنصرى ، اذ تجر المعاملة القائمة على التمييز العنصرى فى أذيالها ضررا يفوق النفع ، أيا كان العنصر الذى يقع عليه الغبن •

★★★

(★) لعل القارىء قد لاحظ أن هذا الكتاب من بين الكتب المقررة على طلبة الجامعات فى الولايات المتحدة •

ولا يزعم ريتشارد واسرستروم أنه قد أثبت صحة البرامج القائمة على التمييز العنصرى ، كما أنه لم يبين أنها أمر مرغوب فيه • ولكن ما أراد توضيحه هو أن مثل هذه البرامج لا تتبع التمييز العنصرى ، أو مبدأ تفضيل الرجال على النساء ، كما أنها ليست ظالمة ، أو بعيدة عن المبادىء • فليس هناك تناقض بين تأييد برامج التمييز ، وبين معارضة العنصرية ، أو الايمان بتفوق الرجال على النساء Sexism • ويتصف الواقع الاجتماعى المعاصر بالولايات المتحدة بخصائص معينة جعلت برامج المفاضلة الخاضعة للتمييز العنصرى وسيلة فعالة لتحقيق التماسك الاجتماعى والمساواة • وبغير التطبيق باقتدار لسياسات مماثلة لسياسة التفرقة العنصرية ، فانه من المستبعد أن توفق الكثير من منظماتنا العنصرية ، التى تفضل جنسا على آخر فى القيام بأى اصلاح •

ـ دفاع عن الديمقراطية بقلم جون ديوى *

[كتب جون ديوى (١٨٥٩ ـ ١٩٥٢) أبحاثا منهجية فى موضوعات تناولت جميع المباحث الرئيسية للفلسفة • واشتهر فى شتى أنحاء العالم كواحد من أعظم فلاسفة أمريكا] •

••• الديموقراطية أعظم اتساعا من كونها مجرد شكل سياسى خاص وطريقة فى الادارة الحكومية ، والتشريع ، وتصريف الشئون الادارية للدولة بالاعتماد على المشاركة الشعبية وبعض المختارين من الموظفين • على أنها بطبيعة الحال كذلك • ولكنها أيضا شىء أكثر من ذلك من حيث العمق والاتساع • اذ تعد الناحية السياسية والحكومية من الديموقراطية وسيلة ـ ولعلها أفضل وسيلة أهتدى اليها حتى الآن ـ لتحقيق الغايات الكامنة فى الساحة الفسيحة للعلاقات البشرية ، والارتقاء بالشخصية الانسانية • وكما نردد دائما ـ وبغير أن ندرك جميع الجوانب المترتبة على هذا القول ـ انها أسلوب اجتماعى وفردى فى الحياة ، وعندما يوصف اللحن الأساسى للديموقراطية بأنه أسلوب فى الحياة ، فان هذا القول يعنى ـ كما أعتقد ـ ضرورة مشاركة كل كائن بشرى فى تشكيل القيم

(*) نقلا عن كتاب Democracy & Educational Administration John Dewey ضمن سلسلة School & Society الجزء ٤٥ غـ ١١٦٢ •

التى تنظم حياة البشر سويا • وهذا أمر ضرورى ، من حيث أثره على الرفاهية العامة للمجتمع ، والنهوض بكل فرد فيه •

ان حق التصويت العام ، والانتخابات المتكررة ، ومسئولية أصحاب السلطة السياسية أمام الناخبين ، وباقى الجوانب من الحكومة الديموقراطية ، ما هى الا وسائل قد ثبت نفعها فى تجسيم الديموقراطية كوسيلة انسانية حقة للعيش • فليست هذه الوسائل غاية نهائية ، كما أنها ليست الكلمة الأخيرة فى عالم القيم • ويتعين الحكم عليها على أساس قدرتها على تحقيق هذه الغاية • واذا أحللنا الوسائل محل الغاية التى تخدمها هذه الوسائل ، ستكون فعلتنا ضربا من عبادة الأوثان • اذ لا تزيد الأشكال السياسية الديموقراطية عن مجرد أفضل الوسائل التى ابتكرتها العزيمة الانسانية ، وناسبت حقبة خاصة من التاريخ • بيد أنها ترتد ، وتستند ، الى فكرة عدم وجود انسان ما أو مجموعة من البشر ، يتوافر له أو لهم ، قدر كاف من الحكمة أو الفضل لحكم الآخرين بغير رضاهم ، والمعنى الموجب لهذا القول هو وجوب مشاركة جميع من يتأثرون بالأنظمة الاجتماعية فى انتاج هذه الأنظمة وادارتها • ان كل فرد يتأثر فيما يفعل وفيما يستمتع به بحالته المترتبة على الأنظمة التى يحيا فى ظلها ، ومن ثم ، فان له دورا فى تحديد النظام الديموقراطى ، ولهذه الحقيقة جانب سالب وجانب فعال •

ولقد نمت الديموقراطية السياسية عن طريق الاستعاضة بالوسائل التى تتبع فيها الأغلبية أقلية مفروضة عليها من عل بنظام تبادل المشورة والاتفاقات الطوعية• وساعد القهر على الحفاظ على الأنظمة الاجتماعية القائمة على التبعية المحددة ، ولا يلزم أن يكون القهر ماديا • فلقد عرف بعض المستبدين الخيرين ، الذين حكموا فترات قصيرة • وقد يتخذ القهر صورة القهر الاقتصادى أو صورة القهر السيكلوجى أو المعنوى • ويعد حرمان البعض من الاشتراك فى النظام السياسى صورة ماكرة من صور القمع ، لأنه لا يتيح للأفراد أية فرصة للتأمل ، وتقرير ما هو خير لهم • ويعهد لآخرين ، يفترض أنهم أحكم ، ويتمتعون بقوة أعظم مهمة الاجابة على التساؤلات السياسية نيابة عنهم ، وتقرير الطرائق والوسائل التى تساعد الرعية على بلوغ الاستمتاع بما هو خير لهم • وتعد هذه الصورة من صور القهر والقمع أعظم دهاء وتأثيرا من الردع والكبح السافرين • فعندما تكون أمرا مألوفا ومتجسما فى الأنظمة الاجتماعية ، فانها ستبدو الحالة السوية والطبيعية لكيف تسير الأمور ، وقد جرت العادة أن لا تشعر الكتل البشرية بأية دراية بما لها من حق فى انماء قدراتها • فخبرتها مقيدة بأصفاد تحول دون تمكنها من ادراك ماهية هذه القيود • فقد

احتوى مفهوم الديموقراطية على الاعتقاد بأن الأفراد بوصفهم أفرادا ليسوا وحدهم الذين يعانون ، ولكن الكيان الاجتماعى برمته قد حرم من المقومات التى كان يتعين أن تكون فى خدمته . وقد لا يكون الأفراد الذين تتألف منهم الكتل البشرية المغمورة على قدر كبير من الحكمة ، وان كانت حكمتهم تتمثل فى شيء واحد هو القدرة على الاحساس بمواضع الأوجاع والمتاعب التى يعانون منها .

وأساس الديموقراطية هو الايمان بقدرات الطبيعة البشرية ، والايمان بذكاء البشر ، وبقوة التجربة المكتسبة من تعاون الأفراد وتضافرهم . انه ليس ايمانا باكتمال هذه القدرات ، ولكنه ايمان بأنها اذا تهيأت لها الفرصة ، فانها ستنمو وتتمكن شيئا فشيئا من توليد المعرفة والحكمة المطلوبتين لهداية الفعل الجماعى . ويستند كل مشروع أوتوقراطى وتسلطى للفعل الاجتماعى على الاعتقاد بأن الذكاء المطلوب يقتصر على أقلية متفوقة ، ستساعدها مواهبها الموروثة الفطرية على التحكم فى سلوك الآخرين ، اعتمادا على ما ستضع من مبادىء وقواعد وتوجيهات لأساليب تنفيذها . ومن الحمق انكار امكان قول الكثير عن مثل هذه النظرة . انها النظرة التى تحكمت فى العلاقات الانسانية بين جماعات المجتمع فى الجانب الأكبر من تاريخ البشر . فلم يبزغ الايمان بالديموقراطية الا حديثا ، وحديثا جدا ، فى تاريخ البشرية . وحتى عندما ظهرت الديموقراطيات الآن ، فاننا نرى أن عقليات الناس ومشاعرها ما زالت مشبعة بالاعتقاد بأن القيادة أمر يفرض من عل . ونما هذا الاعتقاد فى بواكير التاريخ ، منذ أمد سحيق . وبعد أن توطدت الأنظمة السياسية الديموقراطية - اسميا - استمر بقاء معتقدات ونظرات الى الحياة والعمل نشأت عندما كان البشر ، رجالا ونساء ، يقادون من الخارج ، ويخضعون لقوى تعسفية استمر بقاؤها فى الأسرة والكنيسة وادارات العمل والمدرسة . وأثبتت التجربة أنه ما دامت هذه المعتقدات باقية ، فان الديمقراطية لن تكون راسخة القدم قط .

والايمان بالمساواة من مكونات عقيدة الديموقراطية . على أن هذا الايمان لا يعنى الايمان بالمساواة فى المواهب الطبيعية . ان من نادوا بفكرة المساواة لم يفترضوا أنهم قد جاءوا بمذهب سيكلوجى ، ولكنهم جاءوا بمذهب قانونى وسياسى ، مؤداه حق الجميع فى الحصول على المساواة فى المعاملة القانونية ، وما يتبعها من نواح ادارية . ان كل انسان يتأثر تأثرا متساويا - من ناحية الكيف ، ان لم يك من ناحية الكم - بالأنظمة التى يحيا فى ظلها . وله نفس الحق فى التعبير عن آرائه ، وان لم يك وزن أحكامه متساويا فى مقدار النتيجة المشتركة

بينهما ، وأحكام الآخرين • وبعبارة أخرى ، ان كل انسان يتمتع بالمساواة كفرد ، ومن حقه الحصول على فرصة متساوية لانماء قدراته بغض النظر عن قيمة هذه القدرات • وفضلا عن ذلك ، فلكل احتياجاته الخاصة به ، التى تبدو هامة فى نظره ، مثلما تبدو احتياجات الآخرين هامة فى نظرهم ، وتزيد حقيقة وجود تفاوت طبيعى وسيكلوجى بين الناس من تبرير وجوب وضع قانون للمساواة فى الفرصة ، ولولا ذلك لأدى التفاوت الى اضطهاد أصحاب المواهب لمن يقلون عنهم موهبة •

وبينما نرى ما نسميه بالذكاء موزعا فى مقادير غير متساوية ، الا أن الايمان بالديموقراطية يدفعنا الى الاعتقاد بأن الذكاء أمر عمومى بقدر كاف بحيث يكون فى مقدور كل فرد أن يسهم فيه بشىء ما ، تقدر قيمته بمقدار ما يشارك فيه فى رصيد الذكاء الذى ساهم فيه الجميع • وترى الأنظمة التسلطية عكس ذلك ، وتزعم أن قيمة الذكاء يمكن أن تقدر بناء على مبدأ مسبق ، ان لم يك الأسرة أو المولد ، أو العنصر ، أو اللون أو امتلاك ثروة مادية ، فقد يكون ذلك عن طريق المركز والمرتبة التى يشغلها الشخص فى النظام الاجتماعى القائم • ويعنى الايمان الديموقراطى بالمساواة الايمان بأنه ستتوافر لكل فرد الفرصة للمشاركة بكل ما هو قادر على الاسهام به ، وأن ما يقرر قيمة اسهامه هو موضعه فى الحصيلة التى تضم الاسهامات المماثلة ، ودوره فيها ، وليس على أساس أية مكانة مسبقة من أى نوع كان •

لقد ركزت فيما سبق على أهمية انطلاق الذكاء انطلاقا فعالا فيما يتعلق بالتجربة الشخصية ، فى أسلوب العيش الديموقراطى • ولقد عمدت الى ذلك قاصدا ، لأن الديموقراطية كثيرا — وهذا أمر طبيعى — ما ترتبط فى أذهاننا بحرية العمل متناسين أهمية الذكاء المتحرر ، الذى يعتبر ضروريا لتوجيه حرية العمل ، وضمان تحقيق ذلك • فما لم تك حرية العمل الانسانى معتمدة على الذكاء والاعتقاد المؤسس على العلم ، فان مظاهرها يقينا ستتمخض عن الفوضى والاضطراب • ولا تعنى الفكرة الديموقراطية عن الحرية حق كل انسان فى فعل ما يشاء ، حتى اذا خصصنا وقلنا « شريطة أن لا يتعارض ذلك هو ونفس الحرية عند الآخرين » ، وبينما لا يعبر عن الأفكار دائما — وليس فى كثير من الأحيان — بالكلمات ، الا أن الحرية الأساسية ، تعنى حرية العقل ، بالاضافة الى أى قدر كان من حرية العمل والتجربة الذى يستلزمه تحقيق حرية الذكاء ، وتعد جميع حالات الحرية التى تضمنتها وثيقة الحقوق من هذا القبيل : حرية الايمان والضمير ، والتعبير عن الرأى والاجتماع للنقاش وتبادل الرأى ، وحرية الصحافة كأداة من أدوات الاتصال •

لقد ضمنت الوثيقة هذه الحقوق ، لأنه بغيرها لن يكون الأفراد أحرارا للارتقاء ، ويحرم المجتمع مما يساهمون به ٠

٠٠٠ ويظهر نوع ما من الحكومة ومن التوجيه فى أى موضع يشتمل على شئون تهم عددا من الأشخاص الذين يعملون سويا ٠ وتوصف النظرة التى تظن أن الحكومات لا توجد الا فى عواصم البلدان كواشنطن وألبانى بأنها نظرة سطحية ٠ فالأسرة بها حكومة ، ودواوين العمل بها حكومة ، والأمر بالمثل فى الكنيسة ومختلف المؤسسات وجميع جماعات المجتمع ، وهناك تعليمات ترجع الى العادة والعرف ، وان لم ترجع الى ضرورات العمل ، تقرر كيف يعامل الفرد رفاقه فى العمل ٠

ومن المسائل موضع النزاع ، نظريا وعمليا ، الى أى مدى يتعين على أية حكومة سياسية ديموقراطية أن تسيطر على أحوال العمل داخل الجماعات الخاصة ٠ وفى الوقت الحالى ، على سبيل المثال ، هناك من يعتقدون أن الحكومة الفيدرالية وحكومات الولايات تتنازل عن قدر كبير من حرية العمل المستقل للهيئات الصناعية والاقتصادية ٠ وهناك آخرون يعتقدون أن الحكومة قد ذهبت بعيدا فى العهد الحاضر ، ولست فى حاجة الى مناقشة هذا الجانب من جوانب المشكلة ، فليس فى نيتى محاولة حسمها ، غير أنه لابد من الاشارة الى أنه اذا كانت وسائل التنظيم والادارة الشائعة فى الجماعات الاجتماعية الثانوية ، غير ديموقراطية ، بطريق مباشر ، أو غير مباشر ، أو بالطريقين معا ، فانه سيتحتم حدوث رد فعل غير مستحب فى عادات المشاعر والفكر والعمل عند المواطنين ، بأوسع معانى هذه الكلمة ٠ اذ تؤثر الطريقة التى تدار بها مصالح أية تنظيمات اجتماعية بالضرورة تأثيرا هاما على تكوين الميول والأذواق والاتجاهات والمصالح والغايات والرغبات عند أولئك الذين يضطلعون بمهام الجماعة ٠ وأكتفى بذكر مثل عن الآثار السلوكية والعاطفية والفكرية لدى أصحاب العمل والعمال فى النظام الصناعى القائم ٠ أما ماهية هذه التأثيرات بالتخصيص فمسألة لا أعرف عنها الا القليل ٠ غير أنى أظن أن كل من يتأمل الموضوع يعترف أنه فى ظل الطرائق المتبعة فى ادارة الأعمال ، فى الجانب الأعظم من ساعات النهار ، وكيفية اسهام الأفراد فى تسيير الأمور فى مسائل مثل كسب العيش وتحقيق الأمان المادى والاجتماعى ، لابد أن يعترف بمدى الأهمية العظمى لهذا العامل فى تشكيل الاتجاهات الشخصية ، أى فى تكوين السلوك والذكاء ، بعبارة أخرى ٠

وفى آخر المطاف ، واذا تمعنا فى هذا الأمر ، ونظرنا نظرة واسعة للموضوع سيبين لنا أن جميع الأنظمة والمؤسسات لها دور تربوى ،

بمعنى أنها تعمل على تشكيل الاتجاهات والميول والقدرات وأوجه العجز ، أى مقومات الشخصية المشخصة . وينطبق المبدأ بشدة على الأخص فى حالة المدرسة ، لأن المهمة الأساسية للأسرة والمدرسة هى احداث تأثير مباشر على تكوين الاتجاهـات والميول ، عاطفيا وعقليـا ومعنويا ، وعلى انمائها ، ومن ثم ، فسـواء تحقق ذلك بأسـلوب تغلب عليـه الروح الديموقراطية ، أو غير الديموقراطية ، أو على نحو تغلب عليه الديموقراطية أو اللا ديموقراطية ، فان هذه المسألة لن يكون لها أهمية فائقة لأغراض التربية فحسب ، وانما لتأثيرها النهائى على جميع مصالح المجتمع وأفعاله الملتزمة بالأسلوب الديموقراطى للحياة ...

ثمة نتائج معينة توضح معنى القضية ، اذ يؤدى غياب المشاركة الديموقراطية الى احداث افتقار فى الاهتمام والعناية عند أولئك المبعدين عن المشاركة ، ويترتب على ذلك افتقار مناظر الى المسئولية الفعالة ... وسوف ينمو آليا ولا شعوريا ـ ان لم يك شعوريا ـ احساس يعبر عنه بالكلمات الآتية : « وأنا مالى ! ان هذا اختصاص أهل القمة فدع صاحبنا جورج يعمل ما يحتاج اليه » ان البلدان التى تسودها الحكومة الأوتوقراطية هى تلك البلاد التى تتضاءل فيها روح الاحساس بالصالح العام الى أقل قدر ، ويزداد فيها عدم الاكتراث بالمسائل التى تهم الجميع والتى تختلف عن تلك التى لا تهم الا أفراد بالذات ... وعندما تنكمش السلطة ، يقل بالتبعية الاحساس الموجب بالمسئولية ، اذ سيكتفى الفرد بأداء أقـل قدر من العمل ، أى ما يقيه من الاستماع الى ملحوظة غير مستحبة . وتتولد فى المسائل العامة روح سلبية ...

ويصح القول أيضا أن عدم القدرة على الاضطلاع بالمسئولية الذى ينعكس فى المشاركة بالرأى فى تشكيل السياسات ، يشب ويترعرع فى الأحوال التى تنكر فيها هذه المسئوليه . وأكاد أزعم أنه لا وجود لشخص مستبد ، صغر أو كبر ، لم يبرر مسلكه بالادعاء بعدم صلاحية رعاياه للمشاركة فى الحكم ... ولكن ، وكما ذكر آنفا ، ان اعتياد استبعاد الآخرين سيترتب عليه اضعاف الاحساس بالمسئولية ، عن ما تم فعله ، وما يترتب عـلى هـذا الفعـل من عواقب . ان الحجة التى تتذرع بهـا الديموقراطية تتضمن القول بأن أفضل وسيلة لتوليد قوة بناءة ، والقدرة على المبادرة هى الممارسة . فالقدرة ، وكذلك الصالح ، لا يجيئا الا بفضل الاعتياد والممارسة ...

لقد تعرضت الآن للتحدى المعتقدات الأسـاسية للديموقراطيـة وممارساتها على نحو لم يسبق حدوثه من قبل ... وفى بعض البلدان

حدث ما هو أكثر من التحدى . فلقد تحطمت هذه المعتقدات والممارسات بعنف وبطريقة مدروسة . وشاعت فى شتى الأنحاء موجات من النقد والارتياب حول قدرة الديموقراطية على مواجهة المشكلات الملحة للنظام والأمن ، والأسباب التى يعزى اليها القضاء على الديموقراطية السياسية - فى البلدان التى تسمى ديموقراطية بالاسم فقط - معقدة . غير أن هناك شيئا واحدا أعتقد أننا على يقين من أمره . ففى أى مكان تعرضت الديموقراطية للسقوط ، رجع هذا السبب الى مؤثرين خارج نطاق السياسة ، أى لأن الديموقراطية ، لم تجر فى دماء الشعب وكيانه ، ولم يك لها دور فى سلوك حياته اليومى ، واقتصرت مظاهرها على البرلمان أو الانتخابات والمعارك الدائرة بين الأحزاب . وأثبت ذلك بالقطع - أنه ما لم تصبح العادات الديموقراطية فى الفكر والعمل جزءا من كيان الشعب ، فان الديموقراطية السياسية لن تكون فى مأمن . انها لن تكون قادرة على الصمود فى فراغ . اذ يجب أن تستند على وجود الوسائل الديموقراطية فى جميع العلاقات الاجتماعية . ولا تقل العلاقات القائمة فى الأنظمة التعليمية أهمية فى هذا الشأن ، عن العلاقات القائمة فى الصناعة والأعمال الادارية ، ولعلها مكافئة لها .

أعود اذن الى الفكرة القائلة بأن المسألة التى ناقشناها لا تزيد عن كونها جزءا من مشكلة عميقة وممتدة الأطراف . ولست أعتقد فى وجود أى شىء يتساوى فى أهميته فى هذا البلد فى الوقت الحاضر مع اعادة النظر فى مشكلة الديموقراطية برمتها ، ومتضمناتها . ويتعذر تحقيق اعادة النظر ، وما يترتب عليه من أفعال بين عشية وضحاها ، أو حتى فى سنه . اذ يتطلب حتى التفكير فى الديموقراطية ذاتها اشتراكا وتعاونا مماثلين للاهتداء الى فكرة الديموقراطية وطريقة العمل بها ...

- داء الديموقراطية :

بقلم هـ.ل. منكن

[هنرى لويس منكن (١٨٨٠ - ١٩٥٦) صحفى وناقد أدبى ، وكاتب مقالات وعالم لغة ، رأى نفسه فى البداية ناقدا للأفكار ،

(★) نقلا عن كتاب Notes on Democracy تأليف Henry Louis Mencken (١٩٢٦) نشر Alfred A. Knopf ١٩٥٤ .

وبخاصة الأفكار التى يعتبرها أقرانه من الأمريكان صحيحة وشديدة الوضـــوح وليست فى حـاجة الى فحص نقـدى . ويعد كتابه The Philosophy of Friedrich Nietzsche الذى نشر ١٩٠٨ من المؤلفات الذكية المتعاطفة وفكر الفيلسوف الألمانى ، التى ظهرت فى الولايات المتحدة] .

... سواء سميناها ملكية دستورية ، كما هو الحال فى انجلترا ، أو سميناها جمهورية تمثيلية كفرنسا ، أو ديموقراطية فحسب كمـا يحدث فى بعض كانتونات سويسرا ، فان الأمر يستوى . فهناك أولا ـ الجماهير وتعد حقا من الناحية النظرية الفيصل الأخير فى كل الآراء ، ومصدر السلطة . وثانيا ـ هناك طغمة « الكامورا » التى تتألف من أقليات تعمل فى الخفاء لتحقيق مطامعها ، باستخدام كل سلاح ، وتسعى كل أقلية من هذه الأقليات لاشعال النار فى الدولة ، وخداعها أو التضحية بها ، وبذلك تتحول لعبة السياسة الى معركة بين أوغاد متنافسين . غـير أن الجمـاهير تظل تتمتع بحرية الاختيار بين مختلف المعسكرات المتناحرة . ولربما تركت الأمر لمشيئة الله ، وقامت باختيار احـدى هـذه الأقليات ، وحدثت معجزة ما وثبت أن هـذه الأقليـة مخلصة ومتنـورة نسبيا ، واذا حدث عند ممارسة الجماهير لدورها أن أيدت جماعة من اللصوص وتعلقت بها فانما يرجع ذلك الى أنها تتحدث كلمات تفهمها ، وتعتنق معتقدات تفتتن بها هذه الجماهير ، التى لديها القدرة على الاطاحة بها اذا شاءت ، بل واذا دفعتها النزوة لذلك . كما أنها تملك وسائل تحقيق ذلك .

ولقد استنزف قدر كبير من المداد والورق فى النقاش حول الخلاف بين الحكومة التمثيلية والديموقراطية المباشرة . ويستهوى هذا الموضوع نحارير علماء الجامعات ، كما أنه يشغل بال المفتونين بجان جاك روسـو ، الـذين لا ينقطع ظهورهم فى الولايات المتحدة ، ويشقون طريقهم من حين لآخـر الى مقاعد الحكم ومجلس الشـيوخ ، ويسـود الاعتقـاد أن الحكومة التمثيلية ، كما تصادف عمليا فى العـالم حافلة بالنقائص ، التى يرقى بعضها الى درجة المرض العضال . ولا يقتصر الأمر على ما تقوم به من سلب لدور المبادرة فى التشريع من أيدى الجماهير الدارجة ، تاركة لها مهمة الحكام (جمع حكم) ، لأنها لا تكف عن وضع العراقيل أمام ممارستهم الحرة لهذا الدور . ويقال أنه لما كانت الجماهير مشتته ، وتفتقر الى النظام ، اللهم الا اذا التئم شملها ، كما يحدث عند جماعات المتعطلين ، فانها ستعجز عن صوغ رغباتها السامية بسرعة ووضوح ، وتعجز أيضا عن الاهتداء الى قرار فى المسائل المكدرة ، يثبت قدرتها الكامنة ، وحكمتها

الوطيدة ، والأسوأ من ذلك ، أنها تصادف مشقة فى فرض قراراتها ، حتى اذا أمكنها الاهتداء الى أى قرار . ويعرف أى ليبرالى هذه القصة المؤسفة ، وتسيل الدموع فى عينيه عندما يرويها . والحل الذى يعرضه ينتهى دائمـا على وجه التقريب باللجوء الى ما يسميه بالديموقراطية الخالصة ، يعنى باقتراح القيام باستبيانات ومبادرات واستفتاءات ، أو أى شىء آخر من هذا القبيل ، وبذلك يحول ممثلى الشعب الى كتبة عموميين ، أو سعاة . واذا دافع عن رأيه فانه يقول بوجوب ترك القرار الأخير فى جميع المسائل الهامة لأصحاب الأصوات الانتخابية أنفسهم ، فهم وحدهم القادرون على تعبئة القدر الكافى من الحكمة الذى يلزم لهذه المهمة . وهم وحدهم المنزهون من أى دنس . فعلاج شرور الديموقراطية هو المزيد من الديموقراطية .

بطبيعة الحال ، ان هذا الكلام مجرد لغو بلاغى . ففى أية مرة حدثت محاولة من هذا القبيل ، فانها باءت بالفشل الذريع ، كما أنه لا يوجد أى دليل على أنها نجحت فى أى مكان آخر ، اليوم أو بالأمس .

والحـق أن الاختلاف بين الديموقراطية التمثيلية والديموقراطيـة المباشرة أهون كثيرا ، ممـا يزعمه العاطفيون من أهل السياسة ، ففى النوعين كليهما ، يتعين على الجماهير أن تستعين بوكلاء لتنفيذ ارادتها . وفى كلا الحالين يعتنق الوكلاء أراء خاصة مستندة الى مصالحهم الخاصة . وقد تتوافر لهم وسائل تحقيقها ، والحصول على ما يريدون . وفضلا عن ذلك ، فانهم بحكم مواقعهم ، فى استطاعتهم التأثير على الناخبين ، بقدر يفوق القدرة التى يتمتع بها المواطن العادى ، وبذلك يصبحون ساسة من خارج المواقع الوظيفية ex officio . وينتهى الأمر عادة بقيامهم بالاتجار فى مثل هذا التأثير ، بعد أن يكونوا قد حصلوا على غايتهم منه ، وحصلوا على ما يحتاجونه لمآربهم . والأسوأ هو أن نوعى الديموقراطية يواجهان صعوبة قد ترتبت على كون عموم المواطنين ، مهما كان اجتهادهم وتدربهم ، يظلون بفطرتهم عاجزين عن فهم الكثير من المشكلات التى تواجههم ، وعن التمعن المنزه عن الهوى فى جميع المشكلات التى يحاولون فهمها . وهكذا فكثيرا ما يتعذر قيامهم بالتحقق المسبق من أرائهم ، قبل اقدامهم على العمل ، بل وحتى ، وفى حالات عديدة ، فانه يتعذر اهتداؤهم الى استنتاجات مدعمة لهذه الأفكار . ويذكر أن الناخبين الذين كانوا يلتقون فى أحد الاجتماعات المثلة أفضـل تمثيل لنيو انجلند كانوا من الهواة المتحمسين للاهوت . وهذا يعنى أنهم كانوا مقتدرين من الناحية النظرية لتقرير المسائل اللاهوتية التى تشغلهم بصفة أساسية . ومع هذا فقد بين التاريخ أنهم انقادوا بسهولة للمحترفين من رجال اللاهوت .

ومعظمهم من الأدعياء القادرين على « أكل العقول » • وبالمثل فان الجماهير العريضة من الأمريكان اليوم ، وبالرغم من أنها نظريا قادرة على تقرير جميع المسائل الكبرى فى السياسة القومية ، وأن لديها مبادىء ثابتة تكاد تقترب من الدين وسلطانه لهدايتها ، الا أنها قد أسلمت زمامها لساسة محترفين يتأثرون بدورهم بأقلية من أصحاب العزائم الجبارة ، الذين هم على علم ببعض الأشياء ، ولديهم اهتمامات خاصة • وهكذا سيق الدارجون الى الحرب الماضية ، وهكذا سيساقون الى الحرب الآتية • وكانت الأغلبية الكاسحة ضد دخول الحرب • ولو توافر لهم اى قدر من الفهم أو العزيمة ، لما كان من المستبعد بقاؤهم بمنأى عنها ، الا أنهم افتقروا الى هذه المقومات •

وهناك فن لاثارة الرعاع • وهناك فن آخر لما يصح أن نسميه ، بعد اختراع كلمة تجمع بين اليونانية واللاتينية الدمسلاف demaslave والفنان متكاملان ، ويحطان من قدر من يشارك فيهما • « فالديماجوج » هو من يروج لعقائد يعرف أنها غير صحيحة ، ويوجه كلامه الى اناس يعرف أنهم من الحمقى • والدمسلاف هو من يصغى الى ما يقوله هؤلاء الحمقى ، ثم يتظاهر أنه يؤمن بذلك بنفسه • وكل من يسعى للقيام بدور فى عملية الانتخاب فى ظل الديموقراطية يتعين أن يكون واحدا من الطرفين المشار اليهما • ويتبع أغلب الناس الطرفين • ولا يزيد ما يجرى فى هذه الأحوال عن ادعاءات زائفة وخفايا حقيرة • ومن المتعذر انتخاب أى مثقف يؤيد صراحة الأوليات التى يؤمن بها أهل العلم والرأى بشأن الأمور التى يجب أن تعنى بها الحكومة فى أية دولة ديموقراطية ، اللهم الا اذا حدثت معجزة • فقد تؤدى أمانته الى اثارة المخاوف ، وقد ترتد هذه المخاوف بالضرر عليه • فالمفروض أن تتركز مهمته على اثارة المخاوف التى تعـــود بنتائج لصالحه • والأســوأ أن لا يقتصر الأمـر على وجوب مراعاته لضعف الجماهير ، لأن عليه أن يراعى أيضــا أهواء الأقليات التى تقتات من وراء ذلك • واستطاع بعض من ينتمون الى هذه الأقليات ابتكار تقنية بعيدة الكفاية من وسائل الارهاب ، على أن هذا النفر لا يكتفون باثارة مخاوف الجماهير ، ولكنهم يعرفون أيضا كيف يوقظون مشاعر الحسد عندهم ، وكراهية أصحاب الجاه ، وبغض من يفضلونهم • أما الى أى حد مروع باستطاعتهم بلوغه ، فأمر يبين من مثال رابطة الأنتى صالون Anti Saloon فى الولايات المتحدة ، وهى جماعة لا يتجاوز عدد أعضائها حفنة صغيرة من الأفراد ، ولكن لديهم رغم ذلك براعة فى الحصول على التأييد الشعبى ، رغم أنها لا تضم على أى نحو أية أغلبية من الناخبين بين الأعضاء المشتركين فيها ، كما أن زعماءها لا يختارون باتباع أية أساليب ديموقراطية • أما

كيف أفلحت مثل هذه الأقلية فى بث الرعب فى زمرة الساسة الذين يجرون وراء المتاعب ، فأمر أثبتته بوضوح شديد هذه العصبة الفاسدة التى لا ضمير لها · فلقد تمكنت من ملء جميع الهيئات المسئولة عن التشريع فى البلاد برجال وصلوا الى مقاعد السلطة عن طريق خضوعهم لما تمليه عليهم هذه الرابطة · واستطاعوا ملء آلاف من المناصب الادارية والقليل من المناصب القضائية بأنجاس مناكيد من هذا القبيل ·

والحق ان أمثال هؤلاء الناس يتمتعون بمميزات هائلة فى ظل الديموقراطية ، فالجماهير لا تشعر بمخازيهم · فلا غرو اذا هللت لنجاحهم · ومن العسير التغلب عليهم عندما ينافسون أهل الفضل ، وأدى هذا الى تمكنهم شيئا فشيئا من احتكار جميع المناصب العامة · ومن بين قاذورات غائطهم ، بزغ المشرع الأمريكى الذى يتقن الكذب والرياء ، ويتقن الزحف على بطنه ، ويعرف تماما مذاق طلاء الأحذية ، وما تحدثه الركلات على مؤخرته ، انه يتلقى التعليمات من أساتذة فى الدجل والاحتيال ، ثم يقوم بالتغنى بمحاسن مرؤوسيه ومداهنتهم · وحياته العامة عبارة عن سلسلة لا تنتهى من المراوغات والادعاءات الزائفة · وهو على استعداد لاحتضان أية قضية ، مهما كانت درجة حماقتها ، ما دامت ستساعد على كسب المزيد من الأصوات · كما أنه على استعداد للتضحية بأى مبدأ مهما كانت سلامته ، اذا رأى أنه سيكون سببا فى خسارته · ولست أصف بهذا الكلام السياسى الديموقراطى فى أسوأ حالاته المشوشة ، ولكنى أصفه كما نراه بأعيننا فى الشمس الساطعة ، وفى صورته السوية · وقد يكون هذا السياسى — من ناحية — أحد المتسكعين فى نواصى الطرقات العامة ، من الساعين لدخول المجالس التشريعية اعتمادا على بنوك الائتمان العقارى ، والكهنة الانجليكيين ، أو قد يكون — من ناحية ثانية — رئيس الولايات المتحدة ، ومن البديهيات المسلم بها ، أنه ليس باستطاعة أحد أن يشق طريقه فى السياسة فى الجمهورية دون مرور بهذه السفالات · انها ضرورية نفس ضرورة التنفس ، ومن حين لآخر ، وليس هناك شك فى ذلك ، قد ينجح أحد الأمناء الذين يحترمون أنفسهم فى تحقيق البداية ، الا أنه نادرا ما يواصل مسيرته · أما الذين يستمرون فى المسيرة ، فانهم يتعرضون للتلطيخ عاجلا أو آجلا ، من نفس العصا ، انهم أولئك الذين يضطرون الى قبول الحل الوسط ، من حين لآخر ، فى مسائل شرفهم ، اما بابتلاع معتقداتهم ، أو بمؤازرة ما يعتقدون أنه باطل · انهم يشبهون فتاة الكورس ، التى تسمح لمدير المسرح بنيل مآربه منها ، مقابل حصولها على عمل وضيع ، وتتماثل الطيور المحنكة من بينهم هم وفتيات الكورس « المدقدقات »

اللاتى يقبلن ما يطلب منهن باستسلام ، بل وبمنتهى الغبطة • انه الثمن الذى يتوجب على محب التصفيق من الأوباش أن يدفعه فى ظل النظام الديموقراطى ، أى بالتحول الى جبان مداهن • فبعد أن كان يتحلى بالكرامة وعزة النفس ، فى أيام البراءة الغابرة ، فانه يتحول بعد ذلك الى صفر من الأصفار ، لأن ما تبقى له هو التفاهة ، وليس الكبرياء •

قصارى القول ، لقد قام الاعتراض الرئيسى ضد النظام الاقطاعى (النقيض الكامل للديموقراطية) على أنه كان يفرض أفعالا واتجاهات محطة على العبيد • أما الاعتراض الرئيسى ضد الديموقراطية فينصب على كونها ــ باستثناء حالات قليلة ــ قد فرضت أفعالا واتجاهات محطة على أولئك المسئولين عن رفاهية الدولة ، وكرامتها • وفى الحالة الأولى ، كان الأتباع مرغمين على ارضاء ولى نعمتهم ، الذى كان شديد الجنوح نحو الوحشية والسفالة ، أما فى الحالة الأخيرة ، فان الأتباع يرغمون على احترام ممثلهم الدستورى ، الذى يتصف فى الأغلب بالصفتين معا •

الديموقراطية والحرية

الرغبة فى السلام : كلما تعرضت حريات الرعاع Homo Vulgaris للاعتداء والاستهزاء ، وللوصف بالحماقة ، وبعبارات دالة على الاحتقار ، كما حدث ــ على سبيل المثال ــ فى الولايات المتحدة على عهد حكم ويلسون وبالمر وبيرلسون اخوان ، يظهر على الدوام ملاحظون يعربون عن الدهشة لأن الجماهير قد تقبلت الاساءة بأقل قدر من الهمهمة • وقيل ان كل ما فعله هؤلاء الملاحظون هو أنهم كشفوا عن عدم معرفتهم مبادىء العلم الديموقراطى • والحق أن عشق الانسان الدارج للحرية ، مثل عشقه للمنطق والعدالة والحقيقة ، يكاد يكون وهما ، فكما سبق أن ذكرت ، انه لا يشعر بسعادة حقيقية عندما يكون حرا ، ولكنه يشعر بعدم الارتياح ، وبشىء من الانزعاج ، وبأنه وحيد على نحو لا يطاق • انه يتطلع الى القطيع، لأنه يحن الى رائحته ، وما يحققه له من دفء • وعنده استعداد لكى يضيف اليه رائحة راعى القطيع ، ان الليبرالية لم تخلق لأمثاله ، فليس فى مقدوره أن يستمتع بها بعقله ، وعندما يفكر فيما لدى الآخرين من ليبرالية ، فان ما يخطر بباله هو وجوب انتزاع هذا الشعور بالحرية من أفئدتهم • ان الحرية عندما تتحقق تكون وقفا وملكا لحفنة صغيرة من البشر • تماما مثل المعرفة والشجاعة والشرف ••• وتدعو الحاجة الى نوع خاص آخر من البشر ، لكى يفهمها ويتحملها ، ولا مفر من أن يكون هذا النفر من الخارجين على القانون فى المجتمعات الديموقراطية • ولا يرغب أوساط الناس فى الحصول على الحرية • وغاية ما يريدون هو الشعور بالأمان •

وادرك نيتشه هذه النقطة بكل جلاء ، بفضل ما تمتع به من صفاء فى الرؤيا ، واعتاد القول بأن العموم يرون الليبرالية شيئا باردا للغاية ، يصعب تحمله · وبالرغم من ذلك ، فانه قد اعتقد بأن الجميع يحنون اليها حنينا أشبه بالحنين الى المحدرات · ومن هنا حور شعار شوبنهاور عن ارادة الحياة الى شعار آخر هو ارادة القوة ، يعنى ارادة حرية العمل · ولقد كان مغاليا فى اتجاهه الى الناحيـــة الخاطئة ، اذ كان عليـه عندما تحدث عن المستويات الدنيا أن يذكر ارادة السلام ، بدلا من ارادة القوة ، ان ما يتطلع اليه الانســان الدارج فى هــذا العالم ، قبل وفوق جميع تطلعاته الأخرى ، هو أبسط نوع من السلام ، وأكثرها هوانا ، أى سلام الطيعين فى اصلاحية تدار على أفضل حال · انه على استعداد للتضحية بما هو مرتخص وغال فى سبيل هذه الغاية ، التى يضعها فوق شرفه وكرامته ، ويضعها فوق حريته · وتفسر هذه الحقيقة سر تعظيم الشرطة فى جميع مظاهرها ، والاعتقاد بأن القانون له قداسة خفية ، مهما كان حظه من السخف · فهل تعرفون ما هو الشرطى ، انه مشعوذ أفاق يعرض حمايته للانسان فى مقابل طاعته له : أولا ــ حمايته من رؤسائه · ثانيا ــ حمايته من المساوين له · ثالثا ــ حمايته من نفسه · وتعد هذه الخدمة الأخيرة ــ بوجه عام ــ من بين هذه المهام الثلاث ، فى حالة الديموقراطية ، أكثر المهام تمتعا بالتقدير · وفى الولايات المتحدة ، انها الشىء الوحيد الذى يمنع الناس (من أمثال سائقى عربات الأيس كريم ، وسكرتيرات جمعيات الشابات المسيحيات ، ومحصلى اشتراكات التأمين) وغيرهـم من البشر الذين لا يختلفون عن الابل ، من تناول الأفيون ، من القضاء على أنفسهم باستهلاكها فى الأندية الليلية ، ومن ارتياد الشواطىء بصحبة فتيات الهوى ، ان هذه المهمة من اختراعات الديموقراطية ·

هنا ورغم خداع الانسان الدارج لنفسه ، فاننا نلاحظ أنه قد بنى اعتقاده على مقدمة منطقية سليمة مؤداهــا شدة سخونة الحرية ، التى لا تتحملها يداه ، ووفقا لما قال نيتشه فان الحرية شديدة البرودة وتضر النخاع الشوكى للانسان الدارج · وأسوأ من ذلك هو أنه يراها شيئا قد يتحول الى سلاح موجه ضده ، لو وقع فى أيدى أعدائه ، أى فى يد واحد من أصــحاب « الكلاوى » ذات المقــاس الكبير ، لقد كانت النصيحة التى نادى بها امرسون هى : « عليك أن تكون مخلصــا لطبيعتك ، واتبع تعاليمها » · بيد أنه يجب أن لا يخفى أنها قد قدمت تعزيزا مشوشا لكل نوع من أنواع حقوق الأسياد · فما تاريخ الديموقراطية الا تاريخ محاولات ارغام الأقليات المتعاقبة على عدم الاخــلاص لطبيعتهم · وفى الحق ، ان ما يهدد الديموقراطية أعظم تهديد هو الأرواح الحرة التى يفوق تهديدها

أى نوع سمعنا عنه من الأنظمة الاستبدادية • فعلى أقل تقدير ، ان المستبد يشعر دائما بالأمان فى ناحية واحدة ، أعنى ايمانه فى نفسه الذى لا يمكن أن يتزعزع • أما الديموقراطيات ، فانها تتعرض للافساد الخلقى ، والى شطحات ، ومن ثم فانها تخشى الفاتنات ذوات الوجوه القرمزية ، والأنبذة الخفيفة والبيرة وكتب داروين المحظورة ، وليس بمقدور أى عقل أن يتخيل رضاء الديموقراطية ، وخضوعها لمثل هذه الكبائر ، التى لم يسمح بها أحد غير فردريك الأكبر ، بل وشجعها ، لأن الجماهير اذا انفلت عيارها ، سيتعذر كبح جماحها ، ومن ثم فيتوجب اخضاع الأقلية بنزعاتها الهدامة ، الى أن تصاب بالعجز ، أى يجب ايقاف الهراطقة عند حدهم •

ولو صح ـ كما يقولون ـ أن الغاية الرئيسية لجميع الحكومات المتحضرة هو الحفاظ على حرية الأفراد ، وزيادتها لو صح هذا ، سيكون ما تحققه الديموقراطية ـ يقينا ـ فى هذا السبيل أقل كفاية مما يحققه أى شكل آخر من أشكال أنظمة الحكم • واذا تساءلنا هل يستحق أى فرد التفكير فى أحواله على الاطلاق ؟ ستكون الاجابة ان الانسان الأسمى أحق بالتفكير فيه من الكافة • غير أن ما يحدث ، اذا توخينا الدقة ، هو أن الأفراد الأسمى هم الضحايا الأساسيون لما يجرى فى الديموقراطية ، التى لا تكتفى فى التحكم فى أفعالهم ، ولكنها تسعى أيضا لتفنيد أفكارهم • فهى لا تتوقف عن اختراع أشكال جديدة من الجريمة القديمة التى تدور حول تخيل موت الملك ، عندما كانوا يضعون صورة صاحب الجلالة ex de majestate على الكتب أيام الرومان ، فهل تعرفون من كان يضع هذا الختم • لم يك الامبراطور هو الذى يفعل ذلك ، ولا حتى مجلس الشورى على عهده ، فمن كان يفعل ذلك هو ساتورينوس أحد شيوخ القبائل المتحدثين باسم الشعب • وكان يسعى وراء ذلك الى حماية الدولة من الأرستقراط ، يعنى « الأرواح الحرة » ، التى يعتقد أربابها أنهم مسئولون أمام معتقداتهم فحسب • اذ تهدف الديموقراطية الى قص أجنحة جميع أصحاب الأرواح الحرة ، وتلجيمهم بلجام عام • وتحاول تفريغ ما فى جعبتهم من احترام للذات ، وتحويل المتمرد (جون دو فى تاريخ الولايات المتحدة) القابع فى نفوسهم ، الى انسان مستأنس ، ومهاود ومطاوع • وتقاس درجة نجاحها فى هذا السبيل ، بمقدار نجاحها فى « كسر » أنوف هذا الصنف من الناس ، وتحويلهم الى دارجين مستأنسين ، أما مقياس التحضر ، فهو مدى مقاومة هذا النفر لما يراد لهم ، وتوفيقهم • وبذلك يكون نوع الحرية الذى يعد حقيقيا فى ظل الديموقراطية هو حرية المعدمين فى تحطيم حرية الذوات ، أى غير المعدمين •••

بقدر علمى ، قد يصح وصف الديموقراطية بأنها « داء » يحد من انطلاق الذات • وتقوم الحضـــارة بنفس الدور ، فيما يبدو • وهناك مفارقات واضحة فى فلسفة الديموقراطية ، لبعضها طابع انتحارى ، فهى تقدم لجون دو المساعدات لكى ينهض فوق مكانته ، ولكى يحتل مكانا الى جانب ريتشارد رو • وبعد ذلك ، وبعد أن يصبح ندا لرو ، فانهـا تنتزع منه حق الانتفاع الرئيسى من رفعته • اننى لم أحاول بهذا الكلام القيام بأى استعراض منطقى بهلوانى • ان تاريخ الدول الديموقراطية هو تاريخ المحاولات المرائية للخلاص من النصف الثانى من هذا المأزق • فلا يقتصر الأمر على التطلع الطبيعى عند جون دو لاستخدام ما انتسب من تفوق ، والاستمتاع به ، فهناك الميل الطبيعى لرو كانســان أدنى ، للاعتراف بذلك ، نستخلص من ذلك أن الديموقراطية تعمل دائما على اختراع فوارق طبقية أو فئوية ، رغم كراهيتها النظرية لها • حقا لقد اختفى لقب « البارون » غير أن لقبا جديدا هو الغول الأعظم grand goblin أو القــائد الأعلى للقوات المسلحة قــد احتل مكانه ، فكما لاحظت : ان الانسان الديموقراطى يعجز تماما عن تخيل نفسه حرا • فلابد أن ينتمى الى جماعة ، والا فانه سيرتجف هلعا من عزلته • بطبيعة الحال ، لابد أن يكون لأية جماعة قاداتها وزعمائها • ولربما تعذر الاهتداء الى بلد تحدث فيها مثل هذه التفخيمات الزائفة بحرارة وحماسة على نحو مماثل لما يحدث فى الولايات المتحدة • والفوارق التى تصحب مجرد شـغل الوظيفة ، تسبق فى المقام الفوارق التى تصحب الانجازات الفعلية • اذ ينظر الى الرئيس هاردنــج وأمثاله على أنهم أســمى بحق من أمثـــال هالستيد ، وليس من شك أن هذا يرجع الى أن أفعال هاردنج قد فهمت فهما أفضل • بيد أن هناك نوعا معينا من النشــاط الانســانى يفهمه الانسان الديموقراطى ، ربما أفضل من منجزات هاردنج • انه نشاط الجرى وراء المال • وهكذا نزعت البلوطقراطية فى الدولة الديموقراطية الى الحلول مكان الأرستقراطية المفتقدة ، بل وقد يحدث خلط بينهما ، وان كانتا بالطبع مختلفتين • اذ تفتقر البلوطقراطية الى جميع المقومات الأساسية عند الأرستقراطية الحقة ، كالتقاليد النظيفة والثقافة والروح العـــامة والأمانة والشرف والشجاعة • والشجاعة فوق كل شيء • ان البلوطقراطية لا ترتبط بالدولة بأى التزام على الاطلاق • وليس لديها أى واجب عام • انها شيء عرضى يفتقر الى الهدف ، ولقد انحدرت أعظم شخصياتهـــا المبجلة اليوم من عوام الأمس ، ونقلت عن العوام كل أوصابهم المعروفة عنهم • وتواجهنا البلوطقراطية من الناحية العملية بحالة لا تختلف فى بعدها عن حالة الشرف والشرفاء honnête عن بعدها عن حالة القديسين المقدسين • ان طابعها الأساسى هو الخور الذى لا علاج له • فهى دائمة

التعلق بالقشة التى يتعلق بها الديماجوجيون • ويكفى أن يلتقى بضع عشرات من الشباب اليهودى الثرثار الذين يتجمعون فى حجرة خلفية للتحدث عن كيف يخططون لاحداث ثورة ، لكى تشــعر بالفزع ، أما ما يحكى عن شخير شخصيات مينة مثل برسى أو هوهنشتاوفن فأمر لا يروقها ويتجاوز خيالها •

وكما قلت ، فان العــوام قادرون على فهم البلوطقراطيــة ، لأن تطلعاتهم هى أساسا تطلعات البشر فى أدنى مستوياته • فلا عجب اذن اذا رأينا المسيحية دين العوام ترصف السماء بالذهب والأحجار الكريمة ، يعنى بالمال • بطبيعة الحال ، لقد حدث رد فعل ضد هذا المثل الأعلى غير الكريم بين اناس ذوى أذواق متحضرة حتى فى الدول الديموقراطية • وفى بعض الأحيان ، فانهم أثاروا العوام ودفعوهم الى اســاءة الظن فى بعض ادعاءات البلوطقراطية • غير أن سوء الظن هذا نادرا ما ارتفع فوق مجرد الحســد ، ونادرا ما كان الجدل الذى أثاره سليما فى منطقه ، أو معصوما فى دوافعه • ان ما يفتقر اليه هو التنزه الارستقراطى عن النفع ، الذى يتولد عن الأمان الارستقراطى • فلا وجود لرصيد من الأراء تسنده ، أى رأى حر ، بالمعنى الدقيق للكلمــة ، والمناصرون الرئيسيون له ــ وهذه ناحية تثير السخرية ــ هم البداجوجيون ، من نوع أو آخر ، يعنى اناس يتميزون بخوف دفين من فقدان وظائفهم ، فلما كانوا يعيشون فى ظل هذا الرعب ، والبلوطقراطية ترقب خطواتهم بفظاظة ــ من ناحية ــ وعامة الناس ترتاب فيهم بفطرتها ــ من ناحية أخرى ــ فلا عجب أن ينتهى تمردهم عادة فى صــورة ميتافزيقــا ، وأن يجنحوا الى التخلى عنهــا (الميتافزيقا) بعد أن تنمو أسرهم ، وتصــبح تكاليف الهرطقة ضــمن المحظورات • ويكشف « البداجوج » فى نهاية المطاف عن نفس فضائل عضو الكونجرس وكتاب الصحف أو رؤساء الخدم ، ولكنه لا يكشف عن الفضائل الأرستقراطية • واذا تصــادف أن استمر يعمل بعد تجاوزه الثلاثين ، فان هذه الظاهرة قد ينظر اليها عادة على أنها علامة مرضية ، وليس دليــلا على البطولة • والأمر بالمثل فى حالة جماعات مثل جمــاعة Utopia Fife وجماعات الطبول ، سواء تخرجوا من نفس الفصــل الدراسى الذى تخرج منه ، أو جاءوا من الشارع • انهم متعصبون ، وليسوا رجال دولة • وهكذا تكون السياسة قد تحولت فى ظل الديموقراطية الى بدائل مستحيلة • وأيا كان الشعار الذى تتخذه الأحزاب ، أو صيحات الحرب المنطلقة من الديماجوجيين الذين يقودون هــذه الأحزاب ، فان الاختيار من الناحية العمليــة يكون بين البلوطقراطيــة ــ من جانب ــ وقمامة من المستحيلات الصاخبة ــ من جانب آخر ــ فاما أن يتبع المرء

جريدة النيويورك تايمس ، أو يكون مستعدا لابتلاع ما يتفوه به بريان (فى فرنسا) والبلاشفة • وانه لأمر يدعو الى الاشفاق أن ينتهى الأمر هكذا ، لأن ما تحتاجه الديموقراطية أمس حاجة من الجميع هو حزب قادر على الفصل بين ما هو خير فيها ، وبين الشرور التى تهددها من الناحية العملية ، على أن تحدث محاولة بعد ذلك الى تحويل هذا الخير الى مذهب قابل للتنفيذ • ان ما تحتاجه الديموقراطية فوق كل شىء هو حزب للحرية • انه ينتج ــ وهذا أمر لا يقبل النزاع ــ بعض الليبراليين عرضا ، تماما مثلما تنتج الأنظمة الاستبدادية قاتلى الملوك عرضا • ولكنه يعاملهم بنفس الطريقة التى نتبعها فى طرق رق الطبول • فليس فى مقدوره انشاء حزب منهم ، الا اذا استطاع ابتكار أرستقراطية حقة ، ووطد أقدامها لكى ترعاهم وتؤمن حياتهم •

كلمات أخيرة

لقد نوهت على نحو غامض نوعا بمزايا الديموقراطية • واحدى هذه المزايا واضحة تماما • فلعل الديموقراطية هى أعظم أنظمة الحكم سحرا ، التى اخترعها الانســـان • وليس السر فى ذلك بعيدا عن الادراك • فالديموقراطية تستند الى فروض ، لا يخفى ابتعادها عن الحقيقة • وكل ما لا يتصف بحقيقته ــ كما يعرف الجميع ــ يبدو أكثر جاذبية وارضاء عند الأغلبية الساحقة من الناس أكثر مما هو حقيقى • فللحقيقة مظهر فظ يفزعهم • ففيها مظهر « النهائية » ، التى تتعارض ورومانتكيتهم ، التى لا علاج لها • انهم يعودون عندما يلم بهم مكروه فى الحياة الى الوعود العتيقة ، التى لا يخفى زيفها ، وان كانت تبعث على الشعور براحة حقة • وليس هناك بين جميع هذه العهود العتيقة ما هو أكثر جلبا للراحة من ذلك الوعد الذى قال ان الحثـالة هم الذين سيرثون الأرض • انه وراء العقائد الدينية السائدة فى العـالم الحـديث ، ووراء الأنظمة السياسية السائدة • ولقد منحتها هذه الأنظمة السياسية (يعنى الديموقراطية) قيمة أكبر وسلطانا أعظم من الأولى يعنى « المسيحية » • وفضلا عن ذلك ، فان الديموقراطية قد أضفت عليها مسحة جعلتها تظهر بمظهر الحقيقة الموضوعية التى تتقبل البرهان • ويكتسب انسان العامة ، عندما يقوم بدوره كمواطن الشعور بأنه يتمتع بأهمية حقة فى العالم ، وأن له دورا حقـا فى ادارة الأحـداث • وتولد عن ترنحه فى اتباع الأوغاد والدجالين والمهرجين شعوره ــ بامتلاك قوة هائلة خفية ، هى التى صنعت رؤساء الأساقفة وصف ضبـاط الشرطة وكبـار غيلان كلوكلوكس ، وأشعرتهم بســعادة هائلة •• ولقد ترتب على ذلك اعتقاده بأنه حكيم نوعا ، وأن من يفضلونه ينظرون الى أرائه بعين الجد • فلا عجب اذا رأينا

السعادة مرتسمة على وجوه أعضـــاء مجلس الشيوخ بالولايات المتحدة ، وقراء الطالع ، وصغار المثقفين · وأخيرا فاننا نرى وعيا متوهجا يتصاعد من هذه الحالة من أثر الشعور بأن واجبا أسمى قد تحقق على نحو ظافر ··· وترجع الى هذه الحقيقة السعادة التى نشاهدها على وجوه الجلادين والأزواج ···

ان جميع هذه الأشكال من السعادة وهمية بطبيعة الحال ، لأنهـا لا تدوم · فالديموقراطى الذى يقفز فى الهواء ، ويرفرف بجناحيه حامدا الله يسقط سقطة لا رجعة فيها بعد ارتطامه بأرض الواقع · وكما بينت ، ان بذور الكارثة التى حلت ، انما ترجع الى حماقته · ففى غير مقدوره الخلاص من الوهم الساذج الذى غرسته المسيحية فى قلبه والذى يهمس فى أذنيه بأن السعادة شىء يمكن الحصول عليه بعد انتزاعه من أقرانه الآخرين · غير أن هناك بذورا أخرى فى طبيعة الأشياء ذاتهـا · ومن واجبنا أن ننظر الى الوعود على أنها وعود فحسب ، حتى لو كان مصدرها الوحى الســماوى · ومن المستطاع التعبير عن فرص عـدم تحقق هــذه الوعود فى معادلات رياضية تثير الشعور بالأسى · هنا تكشف عن نفسها المفارقة الساخرة الكامنة وراء جميع تطلعات البشر : اذ لا يجر السعى وراء السعادة فى أذياله دائمـا غير التعاســة فى نهـاية الأمر · غير أن الافصاح عن هذا الرأى لا يزيد عن كونه جهرا بالقول بأن السحر الحقيقى للديموقراطية ، لا يشعر به الديموقراطى ، وانمـا من يشـعر به هو المتفرج · فمن حظ هذا المتفرج ـ فى رأيى ـ أنه يتفرج على عرض رائع من الدرجة الأولى · وعليك أن تحاول تخيل شىء آخر أكثر من ذلك تعبيرا عن البطولة المثيرة للسخرية ! ·· فيالها من ادعاءات هزلية زائفة ! ويالها من استعراض للحماقات ! · وياله من سيل متدفق من الدنس والخداع !

ولكن هل يعد الغش مثيرا للشغف ؟ لو صح ذلك فاننى سأتنازل فورا عن العمل فى ميدان علم النفس · وكمـــا أرى ، ان جانب الغش فى الديموقراطية أكثر اثارة للتسلية من أى شىء آخر ، أى أكثر تسلية الى درجة كبيرة ، حتى من الغش المقترن بالدين ، عند تزييفه · ان عليك أن تذهب الى الغرفة التى تؤدى فيها شعائر الصلاة ، وأن تفكر تفكيرا رصينا فى أى شىء من الأشياء التى تميزت بها مخترعات الديموقراطية مثل فرض القانون ، أو الى أى حد مثل الديموقراطية تمثيلا نموذجيا أمثال المرحوم الملاك الطاهر أرستيد بريان (فى فرنسا) · واذا لم يصفر وجهك خجلا ، واذا لم ترتفع نبضات دقات قلبك من جراء الضحك ، فانك لن تضحك فى يوم القيامة ذاته ، عندما يخرج الأباء المشيخيون من قبورهم مثلما تخرج الكتاكيت من البيض ، ومثلما تنبثق الأجنحة من

الشرانق ، وتقفز الفراشات فى الفضاء الذى يفصل النجوم بعضها عن بعض ، وهى تقهقه من شدة شعورها بالفرح ·

لقد تحدثت حتى الآن عن احتمال كون الديموقراطية علة ذات أثر محدود مثل مرض الحصبة ··· ولكن لعلها شىء أكثر من ذلك · انها شىء يلتهم نفسه · فلا أحد يقدر على مشاهدتها موضوعيا دون أن يتأثر بانطباع عدم وثوقها العجيب فى نفسها ، ومن ميلها الذى يتعذر محوه ، الى التنازل عن فلسفتها برمتها بمجرد ظهور أول علامة للتوتر والتعثر · ولست بحاجة الى الاشارة الى ما حدث دائما بلا اختلاف فى البلدان الديموقراطية عندما تعرضت السلامة القومية لهذه البلدان للخطر · ففى مثل هذه المناسبات ، يتخلى جميع حكماء الديموقراطية ، بكل بساطة ، عن مبادئهم ، وكأنهم يشهقون أنسام الشهيق ، ويتحولون الى مستبدين على درجة كبيرة من العنف والشراسة · وعلى الفور يخطر ببالنا لينكولن وروزفلت (تيوردور) وولسون · أما جاكسون وكلفلند ، فانهم فى الانتظار للاستجابة الى أى استدعاء · كما أن هذا الاجراء لا يقتصر على فترات الخوف والذعر ، انه يحدث من يوم لآخر · فالديموقراطية تبدو دائما ميالة لقتل ما تعشقه من الناحية النظرية · ولقد سردت بعض ما قامت به ضد الحرية ، التى تعد ركيزة ميتافزقيتها السياسية · انها لا تكتفى بشن الحرب ضد الشىء فى ذاته ، ولكنها ربما شنت الحرب على مجرد الدفاع الأكاديمى عنه ، وأعرض ــ على سبيل المثال ــ مشهد الأمريكيين الذين سجنوا لأنهم ضبطوا يقرؤون وثيقة حقوق الانسان · ولعله من أروع الأمثلة الهزلية الواضحة التى شهدها العالم الحديث · ويكفى أن تتخيل نظاما ملكيا يسجن رعاياه لأنهم ينادون بالحق الالهى للملوك ! ، أو المسيحية تدين مؤمنا لأنه كان يدافع عن القول بأن المسيح يسوع هو ابن الله ! · على أن المثل الأخير قد حدث بالفعل · فكل شىء ممكن فى هذا الاتجاه ، غير أنه فى ظل الديموقراطية ، لا يستبعد أن تتحول أبعد الامكانات ، وأكثرها وهمية ، الى أمر مألوف ، بين عشية وضحاها ، ان كل البديهيات ترتد الى مفارقات راعدة ، لا يزيد أغلبها عن متناقضات لا لبس فى معناها · ان الجماهير قادرة على حكم ما بقى منا شريطة أن تخضع نفسها لنظام بوليسى ، وتكون هناك حكومة قوامها القوانين وليس البشر ، وان كان هؤلاء البشر هم الذين يعقدون الجلسات التى تقرر فى نهاية الأمر ماهية القانون ، وما ينبغى أن يكون هذا القانون · وأعظم مهمة يقوم بها المواطن هى خدمة الدولة · ولكن أول افتراض يواجهه عندما يحاول تنفيذ هذا الافتراض ، يدل على افتقاره الى الفراهة والشرف · فهل يعد هذا الافتراض سليما بوجه عام ؟ لو صح هذا ستتحول المهزلة الى عمل مجيد ·

وأعترف من ناحيتى ، أن هذا الأمر يسرنى كثيرا • فأنا أستمتع بالديموقراطية استمتاعا شديدا • فهى تتصف بحماقة لا تضاهى وتثير التسلية على نحو لا نظير له • أليست الديموقراطية هى التى رفعت من شأن المخبولين والجبناء والأفاقين والأنذال ؟ • وكم نشعر من ألم عندما نشاهد هذه النوعية من الناس وهى فى حالة صعود ، الا أننا عندما نراها تتهاوى ، فان أثر الألم الأول يزول• فهل الديموقراطية نظام متلاف مسرف قليل الذمة ؟ ولكن بالاستطاعة وصف جميع الأنظمة الأخرى بذلك ، لأنها جميعا تتساوى فى عدائهـا لأصحاب الاجتهاد والفضل ، وهل يعد الاحتيال من صميم مقومات الديموقراطية ؟ • ولكن علينا أن لا ننسى أننا قد تحملنا هذا الاحتيال منذ ١٧٦٠ ، وما زلنا على قيد الحياة ، ففى نهاية المطاف سيتضح أن الاحتيال أمر ضرورى لأية حكومة مؤلفة من بشر ، بل وربما للحضارة ذاتها • فهذه الحضارة فى صميمها لا تزيد عن عملية تدليس هائلة ••• لست أدرى ! وغاية ما بمقدورى قوله أنه عندما يوفق مصاصو الدماء فى تسيير الأمور ، فان العرض يزداد ابهارا الى حد لا نهاية له •• على أننى ربما كنت انسانا شريرا نوعا • فعندما يصل الأمر الى اتجاهى الى التعاطف على مصاصى الدماء ، فان معنى هذا ان مشاعرى قد جنحت الى الشذوذ والبعد عن المألوف • وما أعجز عن تفسيره هو كيف يستطيع انســان ما أن يؤمن بالديموقراطية اذا شعر بمناصرته للبشرية • واذا أوجعه أن يرى هذا البشر يتلهى ويفسد ويثير الفضائح • كيف يستطيع أى انسان أن يكون ديموقراطيا ، عندما يكون ديموقراطيا بكل اخلاص ؟ •

انتقاد أحد الشيوعيين للديموقراطية

بقلم ف• ا• لينين •

[فلاديمير ايليش لينين (١٨٧٠ ـ ١٩٢٤) صاحب نظريات فى الشيوعية ، وزعيم الثورة الروسية • تولى رئاسة الوزراء من سنة ١٩١٨ حتى وفاته] •

(★) نقلا عن كتاب الدولة والثورة تأليف Vladimir Ilyich Lenin (مترجم من الروسية الى الانجليزية) •

فى النقاش الدائر حول الدولة ، يرتكب دائمـا الخطأ الذى حذر انجلز من الوقوع فيه ... اذ ينسى دوما أن هدم الدولة يعنى أيضا هدم الديموقراطية ، وأن تلاشى الدولة ، يعنى أيضا تلاشى الديموقراطية .

وللوهلة الأولى ، يبدو هذا الكلام غريبا وغير مفهوم . ولربما نزع أحد الناس الى الخوف من أى نكون قد اتجهنا الى الظن بوجود نظام للمجتمع لا يحترم فيه مبدأ خضوع الأقلية للأغلبية . أليس معنى الديموقراطية هو الاعتراف بهذا المبدأ ؟

كلا . ان الديموقراطية لا ترادف خضوع الأقلية للأغلبية . فلو صح أن الديموقراطية تعنى خضوع الأقلية للأغلبية لكان معنى ذلك هو وجود نظام يجرى فيه الاستخدام المنظم للعنف ، الذى تمارسه طبقة ضد الطبقة الأخرى ، أى جزء من السكان ضد الجزء الآخر .

ولقد حددنا لأنفسنا غاية قصوى تهدف الى القضاء على الدولة ، يعنى القضاء على جميع أشكال العنف المنظم والمدروس ، وأى استعمال للعنف ضد الانســان بوجه عام . ونحن لا نتوقع ظهور نظام للمجتمع لا يلاحظ فيه مبدأ خضوع الأقلية للأغلبية . بيد أنه عندما نسعى لتحقيق الاشتراكية ، فاننا نكون مقتنعين بأنها ستتطور ، وتتحول الى شيوعية ، وسيختفى ـ الى جانب ذلك ـ أى احتياج للقوة لاخضاع أى انسان آخر ، أو اخضاع أى جزء من السكان للجزء الآخر ، لأن الناس سيزدادون اعتيادا لمراعاة الشروط الأولية للوجود الاجتماعى بغير احتياج الى القوة ، وبغير الحاجة الى خضوعهم لها .

ولكى يتوطد هذا العنصر المتولد من الاعتياد ، تحدث انجلز عن جيل جديد « ينشأ فى ظل أحوال جديدة وحرة ، يكون قادرا على « الخلاص من جميع ركام فضلات الدولة » ، أى من كل نوع من أنواع الدولة ، بما فى ذلك حتى الدولة الجمهورية الديموقراطية .

ولايضاح ذلك يجب أن تكون مسألة الأساس الاقتصـــادى الذى يستند اليه تلاشى الدولة ، على الوجه الآتى ...

فلا يخفى أنه لن يكون بالمقدور تحديد اللحظة الدقيقة لتلاشى الدولة مستقبلا . ولما كان ذلك كذلك ، فلا يخفى أن هـذا سيستغرق بعض الوقت ...

ونظرية ماركس برمتهـا عبـارة عن تطبيق لنظرية التطور على الرأسمالية الحديثة ، فى أكثر صورها توافقا واثمارا ، واتباعا للنظرة الصحيحة . وكان من الطبيعى أن يثير ماركس سؤالا حول تطبيق هذه

النظرية على ما يتوقع من انهيار للرأسمالية ، وعلى ما ينتظر من تطور فى المستقبل تجاه الشيوعية ٠

فعلى أساس أى معطيات سينظر الى التطور المستقبلى للشيوعية ؟ ٠

ـ على أساس حقيقة أنها ترجع فى الأصل الى الرأسمالية ، وأنها قد نمت تاريخيا من الرأسمالية ، وأنها حصيلة فاعلية قوة اجتماعية ولدتها الرأسمالية ٠ ولا وجود لأى أثر يدل على أن ماركس قد حاول استحضار يوتوبيا ، أو قام بأى تخمينات فارغة عن أشياء من غير المقدور معرفتها ٠ لقد نظر ماركس الى مسألة الشيوعية نفس النظرة التى ينظرها عالم الطبيعة عند تناوله لمسألة تطور الأنواع البيولوجية الجديدة ، على سبيل المثال : اذا أمكنه أن يعرف أن كذا وكذا هو أصلها ، يكون كذا وكذا هو الاتجاه الذى اتبعته عند تغيرها ٠

فأولا : لقد تخلص ماركس من البلبلة التى ظهرت فى برنامج جوتا Gotha ، وتناول مسألة العلاقة بين الدولة والمجتمع :

وكتب يقول : ان المجتمع المعاصر هو المجتمع الرأسمالى الموجود فى سائر البلدان المتحضره ، المتحررة الى حد ما من أى اختلاط بعناصر ترجع الى العصور الوسطى ، والتى لم تتحور نوعا من أثر التطور التاريخى الذى حدث فى كل بلد ، والمتقدمة بقدر كبير ٠ وتباينا مع ذلك ، « فان الدولة المعاصرة » ستختلف باختلاف الحدود التى تحدها ٠ فهى تختلف فى الامبراطورية الألمانية البروسية عنها فى سويسرا ٠ وتختلف فى انجلترا عنها فى الولايات المتحدة ٠ وبذلك تكون « الدولة المعاصرة » خرافة ٠

ومع هذا ورغم التنوع المتعدد الألوان لصورها ، فان جميع الدول المختلفة لهذه البلدان المتحضرة المختلفة تشترك فى خاصة واحدة : ارتكانها جميعا على المجتمع البورجوازى الحديث مع بعض الاختلافات ـ الى حد ما ـ فى مدى التقدم الرأسمالى ٠ وترتب على ذلك الاشتراك بهذا المعنى فى بعض خصائص أساسية ٠ فبالاستطاعة التحدث عن وجود دولة « معاصرة » بالمقارنة بدولة المستقبل ، عندما تكون جذورها الحاضرة ، يعنى المجتمع البورجوازى ، قد اختفت ٠

ويبزغ بعد ذلك سؤال : ما هى التحولات التى ستتعرض لها الدولة فى المجتمع الشيوعى ؟ وبعبارة أخرى ، ما هى المهام المماثلة للمهام الحاضرة للدولة ، التى ستظل باقية آنئذ ؟ لن يستطاع الاجابة عن هذا السؤال

الا اجابة علمية . ومهما جمعنا آلاف المرات بين كلمة « شعب » ، وكلمة « دولة » ، فاننا لن نقترب قيد أنملة من حل المشكلة (*) ...

وبعد أن سخر ماركس على هذا الوجه من أى حديث عن « دولة الشعب » ، صاغ السؤال ، وحذرنا ـ كما يمكن القول ـ من أننا اذا أردنا الاهتداء الى اجابة علمية ، فان علينا أن نكتفى بالاعتماد على المعطيات العلمية الوطيدة .

والحقيقة الأولى التى توطدت بدقة كاملة بفضل النظرية الوافية للتطور ، وبفضل العلم فى جملته ، ـ وهى حقيقة يتناساها اليوطوبيون ، ويتناساها الانتهازيون فى الوقت الحاضر ممن يخشون الثورة الاشتراكية ـ هذه الحقيقة من الناحية التاريخية ، هى ضرورة وجود مرحلة أو فترة زمنية للانتقال من الرأسمالية الى الشيوعية .

ويردف ماركس قائلا : « ثمة حقبة تفصل بين المجتمع الرأسمالى والمجتمع الشيوعى ، يتحول خلالها المجتمع الرأسمالى تحولا ثوريا الى مجتمع شيوعى . وتناظر هذه الحقبة أيضا فترة انتقال سياسية ، لن تكون فيها الدولة أكثر من ديكتاتورية ثورية للبروليتاريا (**) » .

وبنى ماركس هذه النتيجة على تحليله للدور الذى تضطلع به البروليتاريا فى المجتمع الرأسمالى الحديث ، وعلى معطيات تطور هذا المجتمع ، واستحالة عقد مصالحة بين المصالح المتعارضة للبورجوازية والبروليتاريا .

وفى وقت أبكر ، طرح السؤال على الوجه الآتى : يتعين على البروليتاريا لكى يتسنى لها تحرير نفسها ، أن تقلب البورجوازية ، وتقهر السلطة السياسية ، وتقيم ديكتاتوريتها الثورية .

ويطرح السؤال ، فى الوقت الحالى ، على نحو مختلف نوعا : اذ يتعذر حدوث النقلة من المجتمع الرأسمالى المتقدم نحو الشيوعية ، ونحو المجتمع الشيوعى ، بغير وجود مرحلة انتقالية سياسية ، ولن تكون الدولة فى هذه المرحلة شيئا آخر غير الديكتاتورية الثورية للبروليتاريا .

فما هى اذن علاقة الديكتاتورية بالديموقراطية ؟ .

لقد رأينا كيف وضع « البيان الشيوعى » بكل بساطة فكرتين متجاورتين : الفكرة الأولى ـ « تحول البروليتاريا الى طبقة حاكمة » .

(*) نقد البرنامج الاشتراكى الديموقراطى .
(**) نفس المصدر .

والفكرة الثانية – هى « توطيد الديموقراطية » ، وعلى أساس كل ما قيل آنفا بالاستطاعة تحديد كيف ستتحول الديموقراطية خلال مرحلة الانتقال من الرأسمالية الى الشيوعية ، بدقة أكبر ٠

ففى المجتمع الرأسمالى ، وفى ظل أفضل الظروف الملائمة لازدهارها ، فان لدينا ديموقراطية كاملة نوعا فى الجمهورية الديموقراطية٠ غير أن الديموقراطية تتعرض دوما للتقيد بالاطار الضيق للاستغلال الرأسمالى ، ومن ثم فانها ترادف دائما ، وبحق ديموقراطية الأقلية ، أى تخص طبقة الملاك ، أو الأغنياء فحسب ٠ وقد اتخذت الحرية فى المجتمع الرأسمالى نفس الصورة تقريبا التى كانت تتبعها فى الجمهوريات الاغريقية القديمة ، أى حرية ملاك الرقيق ٠ أما العبيد المأجورون حاليا ، ومن أثر الأحوال المترتبة على الاستغلال الرأسمالى ، فانهم يتعرضون للسحق من أثر العوز والفقر ، بحيث تبدو « الديموقراطية فى نظرهم بلا معنى » ، كما تبدو « السياسة فى نظرهم بلا معنى أيضا » ٠ وفى حالة استقرار الأحوال ، عندما تسود السكينة ، يحال بين أغلبية المواطنين وبين اشتراكهم فى الحياة الاجتماعية والسياسية ٠

فالديموقراطية التى تتمتع بها أقلية تافهة ، يعنى ديموقراطية الأثرياء ، هى اذن ديموقراطية المجتمع الرأسمالى ٠ واذا أمعنا النظر فى « ميكانيزم » الديموقراطية الرأسمالية فى كل موضع ، أى فى كل من دقائق تفاصيل عملية الاقتراع (مثل الأهلية بحكم مكان الاقامة واستبعاد النساء فى الاشتراك فى عملية التصويت ٠٠٠ الخ) وتقنية التنظيمات التمثيلية ، والعراقيل التى تقام ضد حق الأفراد فى التجمع (لأن الأبنية العامة ليست من حق « المتسولين » ؟) ، والتنظيمات الرأسمالية للصحافة اليومية ٠٠ الخ ٠٠ الخ ٠ ، فاننا سنرى قيودا لا تنتهى ، تفرض على الديموقراطية ، من كل جانب ٠ وقد تبدو هذه القيود والاستثناءات والاستبعادات والعوائق التى تقام أمام الفقراء ، أمرا هينا ، وبخاصة فى نظر المنعمين الذين لم يعرفوا يوما ما معنى العوز (ولا ننسى أن تسعة أعشار – ان لم يك تسعة وتسعون فى المائة من المشتغلين بالكتابة والسياسة – من هذه الفئة) الا أن هذه القيود فى جملتها قد أدت الى استبعاد الفقراء من ميدان السياسة ، ومن أية مشاركة فعالة فى الديموقراطية ، كما أدت الى سحقهم ٠

لقد أدرك ماركس على نحو رائع جوهر الديموقراطية الرأسمالية ، عندما قام بتحليل تجربة « الكومين » فى فرنسا ، وقال ان المطحونين يسمح لهم مرة كل بضع سنوات بانتخاب من يمثل الطبقات المضطهدة ، ويسمح لهم بدخول البرلمان وتمثيلهم نيابيا ٠٠٠ وبسحقهم !

غير أن الديموقراطية الرأسمالية المحصورة بالضرورة ، والتى لا تعترف بالفقراء ، ومن ثم فانها تتصف بالنفاق والزيف فى صميمها ، لن تساعد على دفع التقدم الى الامام ، برفق وبطريق مباشر نحو « ديموقراطية أعظم وأعظم » ، كما يحاول اقناعنا أساتذة الليبرالية ، وصغار البورجوازيين من الانتهازيين • كلا – ان التقدم سائر الى الامام ، نحو الشيوعية ، عبر ديكتاتورية البروليتاريا • ولن يكون الأمر على نحو آخر ، لأنه لا وجود لشىء آخر ، أو وسيلة أخرى **لكسر مقاومة المستغلين الرأسماليين** •

غير أن ديكتاتورية البروليتاريا ، يعنى تنظيم المسحوقين فى شكل فئة حاكمة تهدف الى سحق المستبدين ، **لن تكفى وحدها لتوسيع نطاق** الديموقراطية • فالى جانب التوسع الهائل فى الديموقراطية ، التى ستصبح لأول مرة ، ديموقراطية حقة ، أى تضم الفقراء والشعب ، ولن تكون ديموقراطية أهل الثراء ، فان ديكتاتورية البروليتاريا ستأتى بمجموعة من القيود على الحرية ، تطبقها على المستبدين والمستغلين الرأسماليين • فعلينا أن نسحقهم حتى نحرر الانسان والبشرية من عبودية الأجراء ، فيتحتم تحطيم مقاومتهم بالقوة ، فلا يخفى أنه حيثما يوجد قمع ، سيوجد عنف أيضا بالضرورة ، وبذلك لن تكون هناك حرية أو ديموقراطية •

وعبر انجلز عن هذا المعنى على نحو رائع فى رسالة الى بيبل Bebel عندما قال ، كما يتذكر القارىء : « مادامت البروليتاريا مازالت فى حاجة الى الدولة ، فانها لن تحتاجها لصالح الحرية ، وانما من أجل سحق خصومها • وبمجرد أن يغدو بالاستطاعة الحديث عن الحرية ، ستتوقف آنئذ الدولة – بهذا المعنى – عن الوجود » •

عندما تكون الديموقراطية للأغلبية الغفيرة من الشعب ، ويتم القمع عن طريق القوة ، فان هذا سيعنى حرمان مستغلى الشعب والمستبدين من الديموقراطية ، عند التعامل معهم • ان هذا هو التعديل الذى سيطرأ على الديموقراطية ابان فترة **الانتقال** من الرأسمالية الى الشيوعية •

وفى المجتمع الشيوعى وحده ، عندما تكون مقاومة الرأسماليين قد تحطمت تماما ، وعندما يكون الرأسماليون قد تلاشوا ، وعندما تختفى الطبقات (يعنى يختفى وجود اختلاف بين أبناء المجتمع من حيث علاقتهم بالوسائل الاشتراكية للانتاج) حينئذ فقط « تتوقف الدولة •• عن الوجود » • ويغدو من الميسور الحديث عن الحرية • نعم حينئذ فقط ، سيكون بالاستطاعة وجود ديموقراطية كاملة ، أى ديموقراطية

بلا استثناءات · وسيتيسر تحقيقها · وحينئذ فقط ، ستبدأ الديموقراطية ذاتها فى التلاشى تمشيا مع القاعدة البسيطة التى ترى أنه بعد تحرر الشعب من عبوديته للرأسمالية ، ومما لا يعد ولا يحصى من الفظائع والوحشيات والعبث وسفالات الاستغلال الرأسمالى ، فان هذا الشعب سيعتاد شيئا فشيئا مراعاة القواعد الأولية للحياة الاجتماعية ، التى عرفت لقرون عديدة ، وتكررت لآلاف السنوات فى جميع الكتب المدرسية· انهم سيعتادون مراعاتها بغير حاجة الى استعمال القوة أو الاجبار ، وبغير خضوع ، أو وجود للجهاز الذى يدعى بالدولة ·

ولقد كان اختيار شعار « تلاشى الدولة » اختيارا موفقا ، لأنه بين ما فى طبيعة هذا التحول من أولويات وتدرج · والعادة وحدها هى القادرة على احداث مثل هذا التأثير · ولا ريب أنها ستوفق فى هذا السبيل ، لأننا نرى حولنا ملايين الأمثلة التى تثبت كيف يعتاد أفراد الشعب دون تردد ملاحظة قواعد الحياة المشتركة بينهم ، عندما لا يوجد استغلال ، وعندما لا يوجد ما يثير الغضب ، وما يستحث على الاحتجاج والتمرد ، الذى يؤدى الى اجراءات القمع ·

وهكذا يكون ما نعرفه فى المجتمع الرأسمالى هو الديموقراطية الشائهة الهزيلة والزائفة : الديموقراطية الخاصة بالأغنياء وحدهم ، أى بالأقلية · أن ديكاتورية البروليتاريا فى فترة الانتقال الى الشيوعية ، ستتمكن للمرة الأولى من تحقيق الديموقراطية للشعب ، أى للأغلبية ، وستكون هذه الديموقراطية مصحوبة بالضرورة بقمع الأقلية ، أى المستغلين · والشيوعية وحدها قادرة على الاتيان بديموقراطية كاملة حقا · وكلما ازدادت اكتمالا ، ستزداد سرعة صيرورتها بلا ضرورة ، وبذلك تتلاشى من تلقاء نفسها ·

وبعبارة أخرى ، فاننا فى ظل الرأسمالية ، نحيا فى دولة بالمعنى الصحيح للكلمة ، يعنى الدولة كأداة مهمتها هى قمع طبقة لطبقة أخرى ، وقمع الأقلية للأغلبية · وبطبيعة الحال ، يتطلب النجاح فى تحقيق مثل هذه المهمة ، أى القمع المنظم لاستغلال الأقلية للأغلبية المستغلة أعظم قدر من القسوة ووحشية القمع ، واسالة بحور من الدماء ، ستتقدم من خلالها البشرية التى ترزح فى العبودية والاسترقاق ·

نعم سيظل القمع خلال فترة الانتقال من الرأسمالية الى الشيوعية كضرورة لاذبة ، ولكنه سيتحول الى قمع الأغلبية المستغلة (بفتح الغين) للأقلية المستغلة (بكسر الغين) ، وستظل الدولة ، أى الجهاز الخاص ، بأدواته اللازمة للقمع من الضرورات ، ولكنها ستكون هذه المرة دولة

انتقالية ، ولن تستمر كدولة بالمعنى الذى اعتدناه ، لأن قمع الأغلبية ، التى كانت بالأمس عبيدا أجيرة ، لأقلية المستغلين (بكسر الغين) سيكون أمرا بسيطا وطبيعيا بالمقارنة · ولن يكون سببا فى اراقة دماء غزيرة تفوق فى غزارتها الدماء التى سالت عند قمع انتفاضة الرقيق والعبيد ، وسيكون الثمن الذى تتكبده البشرية أقل · وتتوافق هذه الآراء ونشر الديموقراطية بين الأغلبية الساحقة للسكان ، مما سيؤدى الى توارى الحاجة لاستبقاء أداة خاصة بالقمع · ولا ننسى ، أن المستغلين (بكسر الغين) كانوا يعجزون عن قمع الشعب بغير استعانة بأدوات بالغة التعقيد تساعدهم على النهوض بهذه المهمة · أما الشعب ، فانه قادر على قمع المستغلين (بكسر الغين) حتى وان استعمل أدوات شديدة البساطة ، ولعله قادر على تحقيق ذلك حتى بدون استعمال أية أدوات ، بفضل التنظيم البسيط لحشوده المسلحة (كتلك الموجودة فى اتحادات العمال ، والقوات المسلحة) ·

وأخيرا فان الشيوعية ستجعل الدولة بلا ضرورة على الاطلاق ، لأنه لن يوجد آنئذ أحد يستأهل القمع ، لا أحد بمعنى « لا طبقة » ، أى لن توجد ضرورة للكفاح المنظم ضد فئة محددة من السكان · ولسنا من اليوتوبيين ، ونحن لا ننكر بتاتا احتمال ـ ولابدية ـ حدوث مغالاة أو تطرف من قبل بعض الأفراد ، كما لا ننكر الحاجة لقمع مثل هذه الحالات المتطرفة · ولكن وفى المقام الأول ، سيتولى هذه المهمة الشعب المسلح نفسه ، ببساطة ، وفورا ، مثلما تفعل أية جماعة من الشعب المتحضر ، حتى فى المجتمع الحديث ، عندما ينشب صراع بين اثنين من المتحاربين ، أو لا يسمح بالاعتداء على أية امرأة ، ثانيا ـ اننا نعرف أن السبب الاجتماعى الرئيسى وراء أحداث المغالاة والتطرف ، التى تدفع الأفراد للاعتداء على قواعد الحياة الاجتماعية ، انما يرجع الى استغلال الحشود ، وما يعانون من عوز وفقر · فاذا أزيل هذا السبب الأساسى ، فان التطرف سيتجه الى التلاشى من تلقاء نفسه · ونحن لا نعرف مدى سرعة تحقق ذلك ، أو الخطوات التى سيمر بها · بيد أننا نعرف أنها ستتلاشى ، وبعد تلاشيها ، ستتلاشى الدولة أيضا ·

ـ الفوضوية ـ رفض الديموقراطية الرأسمالية • بقلم بيتر كروبوتكين

[الأمير بيتر كروبوتكين (١٨٤٢ ـ ١٩٢١) واحد من طبقة النبلاء في عهد قيصر روسيا ، ومن علماء الجغرافيا ، ومن أصحاب القلم • ويعد واحدا من أقدر أصحاب نظريات المذهب الفوضوى (الأناركى) وأبعدهم تأثيرا • عاش فى المنفى زهاء اثنين وأربعين سنة ، حتى سمح له بالعودة الى روسيا ١٩١٧]

الفوضوية هى الاشتراكية كمذهب بلا حكومة • وترتد الى أصل مزدوج • فهى حصيلة حركتين كبيرتين من حركات الفكر فى ميدان الاقتصاد وميدان السياسة ، تميز بهما القرن التاسع عشر ، وبخاصة فى نصفه الأخير • وتضامنا مع جميع الاشتراكيين ، يعتقد الفوضويون ان الملكية الخاصة للأرض ورأس المال والمعدات قد ولى عهدها ، وأنه قد كتب عليها أن تختفى ، وأن ما يحتاج اليه فى سبيل الانتاج يجب أن يؤول الى الملكية المشتركة للمجتمع ، ويدار بمعرفة من أنتجوا الثروة ادارة مشتركة • وتماثل الفوضويون هم وأعظم ممثلى الراديكالية السياسية ، فى قولهم ان المثل الأعلى للتنظيم السياسى للمجتمع يرادف الحالة التى تتضاءل فيها مهمة الحكومة الى حدها الأدنى ، ويسترد الفرد حريته الكاملة فى المبادرة والعمل لاشباع حاجات البشر ، التى تتنوع الى ما لا نهاية • وتتولى هذه المهام جماعات واتحادات حرة مؤلفة تأليفا حرا •

وفيما يختص بالاشتراكية ، فان معظم الفوضويين قد اهتدوا الى أقصى ما تبتغيه ، يعنى الاستبعاد الكامل لنظام الأجور والشيوعية • وفيما يتعلق بالتنظيم السياسى ، فانهم بما أضافوه من انماء للدور المذكور آنفا عن البرنامج الراديكالى ، فانهم قد اهتدوا الى نتيجة ترى أن الهدف النهائى للمجتمع هو تصغير دور الحكومة ، وتضاؤله الى الصفر ، أى الى أن يصبح المجتمع بلا حكومة • وهكذا أستمدت اسمها « الأناركية » (آن بمعنى انعدام ـ اركية (الحاكم) وفضلا عن ذلك ، فيرى الفوضويون أنه لما كان هذا هو المثل الأعلى للتنظيم الاجتماعى والسياسى ، فيتوجب أن لا يلقى عبء بلوغ هذه الغاية على كاهل القرون الآتية ، اذ يكفى انجاز هذه التغيرات وحدها فى تنظيمنا الاجتماعى ، التى تساير المثل الأعلى

(*) نقلا عن الشيوعية الفوضوية (الأناركية) : أسسها ومبادئها ، تأليف
Peter Kropotkin

المزدوج السابق الاشارة اليه ، والتى ستساعد على الاقتراب من هذا المثل الأعلى ، وأن يكتب لها الحياة ، حتى تعود بالخير على الصالح العام ٠

ومن ناحية المنهج الذى سينهجه المفكر الفوضوى ، فانه بعيد الاختلاف عن الأساليب التى يتبعها اليوتوبيون ٠ اذ لا يلجأ المفكر الفوضوى الى أية تصورات ميتافزيقية مثل « الحقوق الطبيعية » « وواجبات الدولة » وغير ذلك ، لاقامة ما يراه أفضل الأحوال التى تساعد على تحقيق أعظم قدر من السعادة للبشر ٠ وعلى عكس ذلك ، فانه يتبع الطريق الذى رسمته الفلسفة الحديثة للتطور ٠ فهو يدرس المجتمع البشرى ، كما هو الآن ،وكما كان فى الماضى ، دون أن ينسب للبشر ، أو لكل فرد بمفرده ، صفات سامية ، لا يملكها ، ويكتفى بالنظر الى المجتمع ، كتجمع لكائنات عضوية تحاول أن تعثر على أفضل الوسائل للجمع بين احتياجات الفرد ، واحتياجات الجماعات المؤلفة من أفراد عندما يتعاونون لصالح النوع الانسانى ٠ ويدرس الفوضوى المجتمع ، ويحاول أن يكتشف ميوله فى الماضى والحاضر ، وحاجاته المتنامية فكريا واقتصاديا ٠ وعندما يحدد مثله الأعلى ، فانه يراعى الاتجاه الذى يتجه اليه التطور ، ويميز بين الاحتياجات والميول الحقة للحشود الانسانية والعوارض (كالحاجة الى المعرفة ، والهجرة ، والحروب ، والغزوات) التى حالت دون اشباع هذه الميول ٠ ويستخلص من ذلك ان الميلين الأساسيين (وان كانا دائما لا شعوريين) خلال تاريخنا كانا : أولا ــ الميل الى أحداث تكامل فى العمل المشترك ، لانتاج جميع الخيرات ، بحيث يؤدى ذلك الى استحالة التفرقة بين نصيب فرد ونصيب فرد آخر فى الانتاج العام ٠ ثانيا ــ الميل الى تحقيق أكمل حرية للفرد لمتابعة جميع أهدافه على نحو يعود بالخير عليه بالذات ، وعلى المجتمع فى جملته ٠ وهكذا يكون المثل الأعلى للفوضوى هو الحصيلة التى يرى الخطوة التالية للتطور متجهة اليها ٠ ولم تعد هذه المسألة مجرد مسألة ايمان بأمنيات ، ولكنها تحولت الى مسألة تخضع للنقاش العلمى ٠.

ومن الحق ، أنه من بين الملامح الرئيسية لهذا القرن ما حدث من نمو للاشتراكية ، والانتشار السريع لنظرياتها بين الطبقات العاملة ٠ وهل كان يتوقع أن يكون الأمر خلاف ذلك ؟ فلقد شهدنا ازديادا مباغتا لم يسبق له مثيل فى قدرتنا الانتاجية ، تمخض عن تراكم الثروات ، على نحو تجاوز أمانينا وتوقعاتنا ٠ غير أن نظامنا المتبع فى تحديد الأجور قد جعل هذه الزيادة فى الثروة التى نجمت عن الجهود التى اشترك فيها رجال العلم والمديرون والعمال أيضا ، لا تؤدى الى غير تكديس لم يسبق له مثيل للثروة بين يدى أصحاب رأس المال ، بينما جاء نصيب الجحافل الهائلة

للعمال مجرد زيادة فى الشقاء ، والافتقار الى الأمان فى الحياة ، وهوى العمال غير المهرة الذين لا يكفونعن البحث عن عمل الى حالة حرمان لم يسمع عنها من قبل ، بل وتعرض لنفس المصير الحرفيون الذين يتقاضون أعلى أجور ومهرة العمال الذين يحيون فى تهديد دائم للتردى ـ بدورهم ـ الى نفس الحال الذى حل بالمعدمين غير المهرة ، من أثر بعض التقلبات التى لا تنقطع ، والتى يتعذر تفاديها ، ونزوات رأس المال ٠

وهكذا تكون الفجوة بين المليونير الحديث الذى يبدد انتاج العمل البشرى فى مظاهر الترف ، بتفاهتها ، واختلابها للألباب ، وبين الفقير المعدم ، الذى انحدر الى مستوى فظيع من البؤس الذى يهدد وجوده ، قد ازدادت اتساعا بحيث أحدثت تصدعا فى وحدة المجتمع ذاتها أى فى هارمونية حياته ، وهددت بالخطر تقدم ارتقائه الى ما هو أسمى ٠

وفى الوقت نفسه ، فان العمال قد ضعف استعدادهم للصبر على تحمل انقسام المجتمع الى طبقتين بعد أن ازدادوا وعيا بقوة الانتاج ، وما يحققه من ثراء فى الصناعة الحديثة ، وبالدور الذى يضطلع به العمال فى الانتاج وبقدراتهم على التنظيم ٠ وبمقدار زيادة المشاركة الحية لجميع طبقات المجتمع فى المسائل العامة ، وانتشار المعرفة ، بين كتل البشر ، تشتد قوة تطلعاتهم ، وتزداد ارتفاعا صيحاتهم بالمطالبة باعادة تنظيم المجتمع ٠ ولم يعد من المعقول الاستمرار فى تجاهلهم ٠ ويطالب العامل بنصيبه فى المغانم التى ينتجها ، ويطالب بنصيبه فى ادارة الانتاج ، ولا يكتفى بالمطالبة بشىء من التحسن فى مستوى حياته ، ولكنه يطالب بحقوقه الكاملة بالاستمتاع بالعلم والفن ، فى أسمى مستوياتهما ٠ ان هذه المطالب ، التى لم يجهر بها فيما مضى سوى المصلحون الاجتماعيون ، قد بدأت تتردد على كل لسان من ألسنة الأقلية ، التى تتزايد يوما بعد يوم ، من أولئك الذين يعملون فى المصانع ، أو يفلحون الأرض ٠ وتتجاوب هذه المطالب واحساسنا بالعدالة ، بحيث أصبحت تلقى تعضيدا عند أقلية تتزايد يوما بعد يوم بين الطبقات المميزة نفسها ٠ وهكذا غدت الاشتراكية الفكرة الممثلة للقرن التاسع عشر ٠ ولم يعد فى مقدور القهر أو الاصلاحات الزائفة ايقاف استمرار تقدمها ٠

بطبيعة الحال ، لقد ازداد الأمل زيادة كبيرة فى امكان تحسن الأحوال ، بعد زيادة الحقوق السياسية للطبقة العاملة ٠ بيد أن هذه التنازلات التى لم تك مصحوبة بأية تغيرات مناظرة فى العلاقات الاقتصادية، قد أثبتت أنها أوهام ، لأنها لم توفق فى النهوض بأحوال السواد الأعظم من العمال ، من الناحية المالية ٠ ومن ثم جاء شعار الاشتراكية « الحرية الاقتصادية كأساس وطيد أوحد للحرية السياسية » ، ومادام النظام

الحالى للأجور ، بجميع نتائجه السيئة ، سيظل بلا تغيير ، فان الشعار الاشتراكى ، سيظل موضع تطلع العمال والهامهم ٠ ان الاشتراكية ستستمر فى التصاعد الى أن تحقق برنامجها ٠

والىجانب الحركة العظيمة للفكر فى الجوانب الاقتصادية ، ظهرت حركة مماثلة تخص الحقوق السياسية والتنظيمات السياسية ومهام الحكومة ٠ ولقد وجه الى الحكومة نفس النقد الذى وجه الى رأس المال ٠ فبينما رأى معظم الراديكاليين أن حق التصويت العام والنظام الجمهورى هما آخر صيحة استطاعت الحكومة السياسية الجهر بها ، تمكنت أقلية من الاقدام على خطوة أبعد ٠ فلقد انتقدت وظائف الحكومة ، والدولة ذاتها نقدا ألذع وأعمق ، بعد أن طبق نظام الحكومة التمثيلية على نطاق واسع ، وتكشفت عيوبه فى صورة أوضح ٠ واتضح أن هذه النقائص ليست مجرد أشياء عابرة ، ولكنها كامنة فى النظام نفسه ٠ وثبت أن البرلمان والجهاز التنفيذى عاجزين عن التنبه الى جميع أوصاب المجتمع التى لا حصر لها ٠ وليس فى مقدورهما التوفيق بين المصالح المتنوعة ، والمتضاربة غالبا ، لكل طرف على حده ، فى الدولة ٠ وأثبت نظام الانتخاب عجزه عن الاهتداء الى اناس يصلحون لتمثيل الأمة ، ويديرون الشئون التى يرغمون على وضع تشريعات لها ، بأسلوب يختلف عن الأسلوب المتحزب ٠ وازدادت هذه المثالب بروزا الى حد تعرض مبادىء النظام التمثيلى ذاتها للنقد والارتياب فى عدالتها ٠

والى جانب ذلك ، فقد ازدادت أخطار الحكومات المركزية وضوحا ، عندما تصدى الاشتراكيون وطالبوا بالمزيد من سلطات الحكومة ، بعد أن عهد لها بادارة الميدان الفسيح الهائل ، للعلاقات الاقتصادية بين الأفراد ، وما ترتب عليه من أعباء جسام ٠ ودار سؤال قوامه : ألا يؤدى تكليف الحكومة بادارة الصناعة والتجارة الى تحولها الى خطر داهم يهدد الحرية والسلام ٠ وهل سيكون فى مقدورها أن تنهض بأعباء هذه الادارة ؟

لم يدرك اشتراكيو الجزء الأول من القرن ادراكا كاملا الصعوبات الجمة الكامنة وراء المشكلة ٠ فبعد اقتناعهم بضرورة الاصلاحات الاقتصادية ، لم يوجه معظمهم أى انتباه الى الحاجة لتحقيق حرية الفرد ٠ وظهر من بيننا مصلحون اجتماعيون على استعداد لاخضاع المجتمع للحكم الثيوقراطى أو الديكتاتورى ، حتى يتسنى تحقيق الاصلاحات بمعناها الاشتراكى ، ومن هنا لاحظنا فى انجلترا ، وفى القارة الأوربية أيضا ، انقساما بين أصحاب الرأى فى التقدم ، أى الى راديكاليين سياسيين ، واشتراكيين ٠ الفريق الأول ــ ينظر بعين الشك الى الفريق الآخر ، ويراه مصدر خطر على الحريات السياسية ، التى اكتسبتها الأمم المتحضرة ،

بعد سلسلة طويلة من الصراعات · وحتى الآن ، وبعد أن انضوى الاشتراكيون فى جميع أنحاء أوربا تحت لواء الأحزاب السياسية ، وزعموا ايمانهم بالديموقراطية ، فانه قد استمر وجود خوف من الحكومة الشعبية Volkstaat — له ما يبرره — انتاب معظم الناس من غير المتحزبين باعتبار الحكومة الشعبية خطرا داهما يهدد الحرية ، كأى صورة من صور الأوتوقراطية ، لو عهد الى حكومتها بمهام ادارة جميع التنظيمات الاجتماعية ، بما فى ذلك مسائل الانتاج والتحكم فى الأرزاق ·

ومع هذا فقد مهد التطور الحديث العهد الطريق ، وبين ضرورة ، وامكانية ظهور شكل أسمى من التنظيم الاجتماعى ، يكفل الحرية الاقتصادية ، بغير أن يدنى الفرد ، ويحوله الى عبد للدولة · ودرست أصول الحكومة بعناية ، وطرحت جانبا جميع النظرات المتافزيقية عن استمدادها من أصل الهى ، أو تعاقد اجتماعى · فلقد اتضح أن الدولة قد ظهرت الى عالم الوجود منذ عهد حديث نسبيا · وتناسب نمو سلطانها عبر العصور تناسبا طرديا هو ونمو قسمة المجتمع الى طبقات مميزة ، وطبقات غير مميزة · وفهم أصل الحكومة التمثيلية أيضا ، وأدركت قيمتها الحقة ، أى عرف أنها أداة قامت بدور فى الكفاح ضد الاوتوقراطية ، ولكنها ليست مثلا أعلى للتنظيم السياسى الحر ، أما فيما يتعلق بمذهب الفلسفة ، الذى رأى فى الدولة مصدر تزعم التقدم ، فانه قد تعرض للمزيد من الاهتزاز ، بعد أن تبين أن التقدم تزداد فاعليته اذا لم يتعرض للتوقف من أثر تدخل الدولة · وهكذا بدا جليا أن أى تقدم أبعد فى الحياة الاجتماعية لا يرجع الى الاتجاه الى زيادة تركيز السلطان والمهام التنظيمية فى أيدى الجهاز الحاكم ، ولكنه يتحقق بفضل الاتجاه نحو اللامركزية من الناحية الاقليمية ، والناحية الوظيفية على السواء ، أى تقسيم الوظائف العامة تبعا للاحتياجات العملية وطابع هذه الوظائف · وبعبارة أخرى ، فان النظام لن يتحقق الا اذا تنازلت الحكومة عن هذه المهام لمبادرة الجماعات المنتخبة انتخابا حرا ، بدلا من تركها المحكومة كما يحدث الآن ·

ويعترف الفوضويون بعدالة الاتجاهين السابق ذكرهما نحو الحرية الاقتصادية والحرية السياسية ، ويرون أنهما مظهران مختلفان لنفس الحاجة الى المساواة ، التى تمثل جوهر جميع الصراعات التى جاء ذكرها فى التاريخ · ومن ثم فانهم يشتركون هم وجميع الاشتراكيين فيما يقولونه للمصلحين السياسيين : « لن يتحقق أى اصلاح جوهرى مادام المجتمع منقسما الى معسكرين متعاديين ، ومادام العامل — اذا تحدثنا بلغة الاقتصاد — مازال عبدا لصاحب العمل · غير أننا نقول لأنصار اشتراكية

الدولة أيضا : « ليس فى مقدوركم تعديل الأوضاع القائمة للملكية ، ما لم يحدث تعديل جذرى للتنظيم السياسى ، فى الوقت نفسه ، فعليكم الحد من سلطات الحكومة ، ونبذ الحكم البرلمانى • فلكل مرحلة اقتصادية فى الحياة مرحلة سياسية جديدة مناظرة • فما يناظر الملكية المطلقة هو نظام الرق والعبودية • ويناظر الحكومة التمثيلية الحكم الرأسمالى • ويلاحظ أن النظامين مستندان على الحكم الطبقى • أما فى المجتمع الذى يختفى فيه الفارق بين الرأسمالى والعامل ، فانه لن يتطلب مثل هذه الحكومة ، التى قد تعتبر مغالطة تاريخية ، أو مصدر تهديد • وقد يحتاج العمال الأحرار الى تنظيم حر ، لن يكون له أساس آخر غير الاتفاق الحر والتعاون الحر ، دون تضحية باستقلال الفرد فى مواجهة التدخل الكاسح للدولة فى جميع الشئون • ان النظام الذى تختفى منه الرأسمالية يساوى نظاما بلا حكومة •

وهكذا يتضح أن مذهب الفوضوية ، الذى تحرر فيه الانسان من السلطات الاستبدادية للرأسمالية والحكومة سيغدو توليفة من تيارين قويين للفكر ، يتميز به عصرنا •

وأثبتت الفوضوية باهتدائها الى هاتين النتيجتين أنها تتمشى والنتائج التى اهتدت اليها فلسفة التطور ، فبعد أن ألقت هذه الفلسفة الضوء على مدى طواعية التنظيمات العضوية ، وما يترتب على ذلك من انماء للملكات عند سائر الكائنات ، مما يساعد على زيادة اكتمال التجمعات مع ما يحيط بها ، واكتمال تكيف كل مكون من مكونات هذا التجمع ، واحتياجات التعاون الحر بين هذه المكونات • ولقد عرفتنا هذه الفلسفة بالأوضاع التى تجرى فى جميع مناحى الطبيعة العضوية • اذ يتناسب نمو القدرة على الحياة تناسبا طرديا وامكان تكامل الكائنات العضوية فى تجمعات مركبة تزداد اكتمالا ، وبذلك استطاعت أن تفرض الرأى الذى سبق أن عبر عنه الأخلاقيون الاجتماعيون عن تقبل الطبيعة البشرية بلوغ الكمال perfectability ، ولقد بينت لنا هذه الفلسفة أنه على المدى الطويل وعلى ضوء ما حدث من صراع على البقاء ، فانه قد ثبت أن « الاصلح أو الأنسب » هم أولئك الذين جمعوا بين المعرفة الفكرية والمعرفة اللازمة لانتاج الثروة ، وليسوا أولئك الذين يتمتعون بالثراء الآن ، لأنهم هم أو أسلافهم قد جمعوا هذه الثورة اعتمادا على القوة التى تمتعوا بها لبعض الوقت •

وعندما بينت فلسفة التطور وجوب ادراك « الصراع على البقاء » لا بمعناه الحرفى ، أى كصراع بين الأفراد على وسائل العيش ، وانما بمعنى أوسع ، أى كتكيف جميع أفراد النوع مع أفضل الأحوال التى

تساعد على استمرار بقاء الأنواع ، وكذلك من أجل تحقيق أكبر قدر مستطاع من الحياة والسعادة لكل فرد ، يعنى للجميع ، فانها قد ساعدتنا على استخلاص قوانين العلم الأخلاقى من احتياجات البشر ، من المجتمع ، وعاداتهم الاجتماعية • وبينت لنا الدور الذى لا نهاية له الذى يلعبه النمو الطبيعى لمشاعر الغيرية التى تنمو عندما تسمح أحوال الحياة بنموها ، وبذلك أمكنها أن تفرض رأى المصلحين الاجتماعيين ، الذى ينادى بوجوب تعديل أحوال الحياة للنهوض بالانسان ، بدلا من محاولة اصلاح الطبيعة البشرية اعتمادا على التعاليم الأخلاقية ، دون مراعاة لأن الحياة تسير فى اتجاه معاكس • وأخيرا فان فلسفة التطور ، بعد أن درست الحياة البشرية من منظور بيولوجى ، فانها قد انتهت الى النتيجة التى اهتدى اليها الفوضويون بعد دراسة التاريخ والاتجاهات الحاضرة ، التى ترى أن أى تقدم لاحق يتوافق مع الاتجاه لاخضاع الثروة للعدالة الاشتراكية ، والعمل المتكامل ، بالاضافة الى أكمل قدر مستطاع من حرية الفرد •••

فاذا راعينا جميع هذه النواحى ، وأضفنا الى ذلك الجوانب العملية المترتبة على هذه المسألة ، والخاصة بكيف يمكن تحويل الملكية الخاصة الى ملكية عامة ، فاننا سنرى أن معظم الفوضويين يعتقدون أن الخطوة التالية التى يجب أن يقوم المجتمع بخطوها ، بمجرد النجاح فى تعديل النظام الحالى للملكية ستكون طبقا للمفهوم الشيوعى • فنحن شيوعيون ، وان كانت شيوعيتنا ليست شيوعية المذهب التسلطى • انها شيوعية فوضوية ، أى شيوعية بلا حكومة ، أو شيوعية حرة • انها توليفة من الهدفين الأساسيين اللذين وضعتهما البشرية نصب عينيها منذ فجر تاريخها : الحرية الاقتصادية والحرية السياسية •

لقد سبق أن ذكرت أن « الاناركية (*) » تعنى عدم وجود حكومة • ونحن نعرف أن كلمة « فوضى » تستعمل فى اللغة الجارية كمرادف للكلمة الانجليزية disorder بمعنى الاضطراب والخلل والفوضى ، الا أن هذا المعنى للفوضى مشتق ويدل على افتراضين على أقل تقدير : فهو يدل أولا — على أنه اذا لم توجد الحكومة ستوجد الفوضى • ثانيا — على أن النظام الذى يتحقق بفضل حكومة قوية وشرطة قوية هو دائما نظام خير ونافع • الا أن هاتين الدلالتين لم تثبت صحتهما اطلاقا • فثمة وفرة

(*) يرى بعض العلماء ابقاء كلمة أناركية كمرادف للكلمة الأجنبية anarchism الا أن كلمة المذهب الفوضوى قد استقرت الآن كترجمة لهذه الكلمة الأجنبية • ومن التحليل الذى قدمه كربوتكين ، سنرى أنه لا يمانع اطلاقا فى اعتبار الفوضوية ترجمة للاناركية ••• المترجم •

من النظام ، كما نستطيع القول ، ومن الهارمونية فى العديد من فروع النشاط الانسانى ، التى لم تتدخل فيها الحكومة لحسن الطالع • أما من ناحيه الآثار الخيرة للنظام ، فان نوع النظام الذى كان سائدا فى نابلى ابان حكم أسرة البوربون لم يك أفضل من بعض حالات الاخلال والفوضى ، التى بدأها جاريبالدى ، بينما لا يستبعد أن يقول البروتستانت فى هذه البلاد أن القدر الكبير من الاخلال الذى أحدثه لوتر كان يفضل — على أى حال — النظام الذى ساد فى عهد البابا • وبينما يتفق الجميع على أن الهارمونية أمر مرغوب دائما ، الا أنه ليس هناك اجماع على تحديد مفهوم كلمة « نظام » ، ويزداد هذا الاجماع تضاؤلا اذا فهمت كلمة « نظام » على أنها النظام الذى يفترض أنه يسود مجتمعاتنا الحديثة • ومن ثم ، فليس لدينا اعتراض أيا كان على استعمال كلمة « فوضى » كمقابل لما وصف فى كثير من الأحيان بأنه نظام •

وبعد أن اتخذنا كلمة فوضى كشعار لنا بمعنى اللاحكومة ، فاننا ننوى التعبير عن الاتجاه الذى أفصح عن نفسه فى المجتمع الانسانى • واذا تأملنا التاريخ سنرى أن العصور التى شقت فيها جماعات صغيرة من البشرية عصا الطاعة ضد سلطان حكامها ، واستعادت حريتهـا ، كانت عصورا تحقق فيها أكبر قدر من التقدم الاقتصادى والتقدم الفكرى ، سواء تمثل ذلك فى انشاء المدن الحرة ونهوضها ، وما صحب ذلك من أعمال حرة نهضت بها جماعات مازالت أثارها التى لا تضاهى تشهد بما حدث من اعادة لاحيـاء العقل ، أو رفاهية • أو تمثل فى صورة حركة كبيرة تولدت عنها حركة الاصلاح الدينى • اذ كانت العصور التى استعاد فيها الفرد جانبا من حريته هى العصور التى شهدت أعظم تقدم • ولو لاحظت بعناية التقدم الراهن عند الأمم المتحضرة ، فانك لن تعجز عن اكتشاف ما فيها من حركة ملحوظة دائمة التزايد نحو الحد من مجـال فاعلية الحكومة ، مما يساعد على ترك نطاق أوسع لحرية المبادرة عند الفرد • وبعد أن خبرت البشرية جميع أنواع الحكومة ، وحاولت أن تحل مشكلة ليس لها حل تدعو الى الحصول على حكومة قادرة « على ارغام الفرد على الطاعة دون أن تتغلب على مشكلة اضطرارها لاطاعة جموع الأفراد » ، انها بعد أن عرفت ذلك ، فانها تحاول الآن أن تتحرر من أى ارتباط ، وأن تستجيب لحاجتها للتنظيم بالالتجاء الى الفهم الحر القائم بين الأفراد ، الذين يسعون لتحقيق نفس الأهداف •

لقد أصبح الحكم الذاتى حاجة شديدة الالحاح ، حتى فى نظـر أصغر الوحدات الاقليمية أو الجمعيات • وينظر الى الاتفاق الحر بين مختلف الأطراف على أنه قادر على الحلول محل القانون ، كما ينظر الى التعاون الحر

على أنه بديل أفضل من وصاية الحكومة · وخلال القرنين الماضيين ، تعرضت الأفعال التى يظن أنها من مسئوليات الحكومة ، للنقاش ، وحدث اختلاف فى الرأى بشأنها ، واتضح أن سير المجتمع يتحسن اذا تضاءل دور الحكومة فى توجيهه · وبقدر دراستنا للتقدم الذى تحقق فى هذا السبيل ، وادراكنا عدم كفاية دور الحكومة فى تحقيق ما يتوقع منها ، سيزداد ميلنا الى استخلاص القول بأن الانسانية اذا أرادت النهوض بالمهام الملقاة حاليا على كاهل الحكومة ، فانها سترى أن الحل الأنسب هو تقليص دور هذه الحكومة بحيث يصل الى الصفر · ولقد سبق أن تكهنا بما سيؤول اليه المجتمع ، الذى لا تقيد فيه حرية الفرد بأى قانون ، أو ارتباطات أو أى شىء آخر ، وتترك هذه المسائل لعاداته الاجتماعية ، والضرورات التى يشعر بها الجميع ، والتى ستسوقهم الى خلق تعاون وتعاضد وتعاطف بين كل جار وجيرانه الآخرين ···

وليس من العسير استنتاج الاعتراضات التى ستوجه الى ما ذكرنا آنفا · وسيقال ـ بطبيعة الحال ـ : « ولكن ما الذى سيجرى لأولئك الذين لا يرعون ما اتفقوا عليه ؟ وكيف يعامل من لا يبدون أى استعداد للعمل ؟ وكيف يعامل الذين يفضلون كسر العادات غير المدونة ؟ · ان الفوضوية ربما كانت الأفضل فى حالة البشريه فى أسمى أحوالها ، وليس لأبناء عصرنا » ؟

وأول شىء يجب أن نذكره هو وجود نوعين من الاتفاق : الاتفاق « الحر » الذى يتحقق بناء على قبول الطرفين ، والاختيار الحر بين طريقين مختلفين يتساويان من حيث قدرة كلا الطرفين على استعمالهما · وهناك الاتفاق « المفروض » ، الذى يفرضه طرف على الطرف الآخر ، ويقبله هذا الطرف الأخير بحكم الضرورة فحسب · والحق ان هذا النوع من الاتفاق لا يصح أن يسمى اتفاقا على الاطلاق · انه مجرد خضوع للضرورة · ومن أسف أن الجانب الأكبر لما يوصف الآن بأنه اتفاق ينضوى تحت هذا النوع الأخير · فعندما يبيع العامل عمله لصاحب العمل ، ويعرف تماما أن جزءا من انتاجه سيذهب بدون وجه حق الى صاحب العمل ، وعندما يبيع انتاجه دون أوهى ضمان بأنه سيظل محتفظا بعمله لأكثر من ستة أشهر متعاقبة ، فانه من الأمور المثيرة للسخرية أن تسمى هذه الحالة بالتعاون الحر · وقد يصفها الاقتصاديون المحدثون بأنها حرية ، ولكن أبا الاقتصاد السياسى آدم سميث لم يرتكب مثل هذا الذنب ، لانه لم يقع فى مثل هذا الخطأ · فما دام ثلاثة أرباع البشر يرغمون على الاشتراك فى اتفاقات ينطبق عليها هذا الوصف ، فان القوة ستكون ضرورية بالطبع لفرض هذه الاتفاقات المزعومة ـ من جهة ـ وللحفاظ على مثل هذه الأوضاع ـ

من جهة أخرى · فثمة ضرورة ستقضى باستعمال « القوة » ، وقدر كبير من القوة للحيلولة دون امتلاك العمال ، لما يعتبرونه قد انتزع منهم من قبل الأقلية بدون وجه حق · وسوف تكون القوة ضرورية أيضا لارغام « أية أمم لامتحضرة » جديدة للخضوع لهذه الأوضاع ذاتها ·

غير أننا لا نرى أى مبرر لاستعمال القوة ، لفرض اتفاقات تمت بمنتهى الحرية · فنحن لم نسمع قط عن عقوبة فرضت على أحد أفراد طاقم قارب النجاة ، لأنه فضل فى لحظة معينة أن يفض ارتباطه بهذا الطاقم · اذ لن يزيد ما بوسع زملائه أن يفعلوه له ــ لو أنه أذنب وارتكب اهمالا شنيعا ــ عن احتمال رفضهم التعامل معه بعد ذلك · كما أننا لم نسمع عن غرامة وقعت على أحد المشتركين فى وضع قاموس ، لأنه تأخر فى عمله ، أو عن « جندرمة » كان يسوق المتطوعين للاشتراك مع جاريبالدى الايطالى فى المعركة · فليست هناك حاجة لفرض الاتفاقات الحرة ·

أما فيما يتعلق بالاعتراض الذى طالما تردد عن أن أحدا لن يعمل الا اذا أرغم على فعل ذلك بدافع الضرورة المحضة ، فقد سمعناه كثيرا قبل عتق العبيد فى أمريكا ، وكذلك قبل عتق الرقيق فى روسيا · وسنحت لنا الفرصة لتقدير هذا الاجراء ، والثناء عليه وعلى قيمته العادلة · ومن ثم فاننا لن نحاول أن نقنع أولئك الذين لا يقتنعون الا بعد أن يرون بأعينهم الوقائع بعد تحققها · أما أولو الألباب فاننا نقول لهم ان عليهم أن يدركوا أنه لو صح عن بعض البشر أو عن البشرية فى أدنى مستوياتها ، أو لو صح ذلك عن بعض المجتمعات الصغيرة ، أو عن كل فرد على حدة ، عندما ينساق الى ذلك من جراء الشعور باليأس لاخفاقه فى النجاح فى كفاحه ضد أية أوضاع غير مستحبة ، الا أن هذا لن يصح عن معظم الأمم المتحضرة · فنحن ننظر الى العمل كعادة ، والى الكسل كنبت مصطنع · وبطبيعة الحال ، فانك عندما تشتغل عاملا يدويا ، فان هذا يعنى أنك سترغم على الاشتغال طيلة حياتك عشر ساعات يوميا ، وربما أكثر من ذلك غالبا ، لانتاج جزء من شىء ما كرأس دبوس على سبيل المثال · وعندما يعنى ذلك تقاضيك أجرا تنفقه على اعالة أسرتك على شريطة قيامك بتحديد جميع احتياجاتها تحديدا صارما · وعندما يعنى ذلك أن تكون دوما مهددا بالطرد فى الغد من عملك ــ ونحن نعرف مدى شيوع الأزمات الصناعية ، وما يترتب عليها من شقاء ــ وعندما يعنى ذلك فى عدد كبير جدا من الحالات الموت « ناقصا العمر » فى مستوصف للفقراء ، ان لم يك ذلك فى معسكر العمل · وعندما يعنى اشتغالك عاملا يدويا أن تضطر طيلة حياتك الى ارتداء زى يكشف عن ضآلتك فى أعين نفس الناس الذين

يتعيشون عالة على هذه « الأيدى » ، وعندما تعنى دائما نبذ جميع تلك المتع السامية التى قدمها العلم والفن للانسان · ازاء كل ذلك ،، فلا عجب أن يكون لجميع البشر بما فى ذلك العمال اليدويون ، حلم واحد هـو الارتفاع الى المكانة التى يتعيشون فيها من عمل الآخرين ·

ان الاسراف فى العمل منفر للطبيعة البشرية · أما العمل ذاته فليس كذلك · انه الاسراف فى العمل الذى يتيح الترف لقلة من الناس ، وليس العمل لتحقيق الرفاهية للجميع· فالعمل ضرورة فسيولوجية · انه ضرورة للتنفيس عن الطاقة الجسمانية المختزنة · انه ضرورة توفر الصحة والحياة ذاتها · فاذا كان الكثير من فروع الحياة النافعة يؤدى الآن عن غير طيب خاطر ، فان هذا يرجع الى أن هذه الأعمال هى حصيلة اسراف فى العمل ، أو كونها وليدة نظام يرتكز على أساس غير سليم · غير أننا نعرف ــ وكان الرجل الطيب فرنكلين يعرف أيضا ــ أن أربع ساعات من العمل النافع يوميا قد تكون أكثر من كافية لتزويد الجميع بالراحة فى بيت من البيوت التى يحيا فيها أبناء الطبقة المتوسطة حياة مستورة ، لو أننا ارتضينا العمل للانتاج ، ولو أننا لم نبدد قوانا الانتاجية ، كما نبددها فى الوقت الحالى ·

أما بالنسبة للسؤال الصبيانى ، الذى ما زال يتردد منذ خمسين سنة : « ومنذا الذى سيقوم بالأعمال الكريهة ؟ » · وبكل اخلاص ، فانى أشعر بالأسى والأسف ، لأن لا أحد من جهابذتنا قد أرغم على أداء مثل هذا النوع من الأعمال ، ولو ليوم واحد من حياته ، ولو صح أنه مازالت هناك أعمال يمكن أن توصف بأنها كريهة ، فانما يرجع ذلك الى أن علماءنا لم يكترثوا بالبحث عن وسائل لتخفيف طابعها الكريه ، لأنهم عرفوا دائما أن هناك عددا وفيرا من الجائعين الذين سيضطرون لأداء هذه الأعمال الكريهة لقاء دراهم معدودة كل يوم ·

وفيما يتعلق بالاعتراض الثالث والاساس ، والذى يزعم أن الحكومة ضرورية لعقاب أولئك الذين يعتدون على قانون المجتمع ، فان هناك أشياء كثيرة يمكن أن تقـال فى هذا الصدد ، بحيث يتعذر لمس هذه الناحية بطريقة عابرة ، فكلما ازدادت دراستنا لهذه المسألة ، ازددنا اقترابا من استنتاج مسئولية المجتمع بالذات عن الأفعال التى تضر المجتمع ، والتى تقترف بين جنباته ، وأنه لا وجود لأية عقوبة أو سجون أو جلادين قادرين على انقاص عدد مثل هذه الأفعال · فالسبيل الوحيد هو اعـــادة تنظيم المجتمع ذاته ·

ان ثلاثة أرباع الحالات التى تعرض على محاكمنا كل سنة ، انما

ترجع بطريقة مباشرة أو غير مباشرة الى سوء التنظيم الحالى للمجتمع فى ناحيه انتاج الثروة وناحية توزيعها • ولا يرجع ذلك الى انحراف الطبيعة البشرية • وفيما يخص الأفعال القليلة نسبيا التى تضر المجتمع وترجع الى مشاعر مضادة للمجتمع ، وتنسب الى أسباب فردية ، فــان انقاص عددها لن يتحقق عن طريق السجون ، أو حتى باللجوء الى المشانق ، لأننا عندما نلجأ الى السجون ، فاننا نضاعف هذه الجرائم ، ونزيد الأمر سوءا • ان ما يقوم به مخبرونا السريين بما يسمى « ضريبة الدم » ، وأحكــام الاعدام التى نصدرها ، وسجوننا ، كل هذه الوسائل ساعدت على نشر تيار فظيع من أحط المشــاعر والعادات ، لدرجة تثير فزع من يقدر على ادراك الأثار البعيدة لهذه الانظمة ولما يفعله المجتمع باسم الحفاظ عــلى الأخلاق • فعلينا أن نبحث عن دواء آخر • ولقد أشير الى هذا الدواء منذ أمد بعيد •

بطبيعة الحال ، عندما تضطر احدى الأمهات ، وهى فى طريقهـا للبحث عن غذاء ومأوى لأطفالها الى المرور أمام « فترينات » حافلة بأبهى ما تشتهيه النفس • وعندما تعرض أدوات الترف بمنتهى الصفاقة عروضا خلابة تبهر المحرومين واللامحرومين ، وعندما يتمتع كلب أحد الأثرياء ، وحصانه ، بعناية تفوق العناية التى يحظى بهــا ملايين الأطفال ، الذين تتقاضى أمهاتهن الكفاف مقابل عملهن فى ظلمات بدرون (أقبية) المصنع• وعندما يتكلف رداء متواضع للسهرة تلبسه احدى السيدات فى أمسية واحدة وتدفع ثمنا له ما يعادل الأجر الذى يتقاضاه عامل مقابل عملــه المتواصل لمدة ثمانية شهور أو سنة كاملة • وعندما يكون الاثراء عــلى حساب الآخرين هو الهدف السافر للطبقات العليا ، ويتعذر الاهتداء الى حد واضح يفرق بين السبل الشريفة المشروعة ، وغير الشريفة لكسب المال • فى مثــل هذه الحالات ، لا عجب أن تكون القوة هى الوســيلة الوحيدة للحفاظ على مثل هذه الأوضاع ، وأن يصبح الجيش المؤلف من جنود للشرطة وقضاة وجلادين ضرورة لا مفر منها •

بيــد أنه اذا تلقى جميع أطفالنــا ــ وجميع الأطفال هم أطفالنا ــ تدربا وتعليما سويا ، وتوافرت لدينا الوسائل لتحقيق ذلك ، واذا عاشت كل أسرة فى بيت لائق ــ وبالمقدور تحقيق ذلك ــ واذا أحسنا استعمال المعدل المرتفع لانتاجنا ، واذا تعلم كل صبى وفتاة حرفة الى جـــانب ما يتنقون من علم ، ولا ينظر الى الحرف اليدوية ــ التى هى مصدر الثروة ــ على أنها علامة حقارة • واذا عاش الناس متقاربين تقاربا وثيقا وحميما، وتواصلت لقاءاتهم فى المسائل العامة ، التى يعهد بها الآن الى فئة ضئيلة، واذا ترتب على هذا الاحتكاك الوثيق تعلمنا كيف نهتم اهتماما حيويــا

بمشكلات جيراننا وآلامهم على نحو شبيه باهتمامنا بأقربائنا • آنئذ ، فاننا لن نلجأ الى رجال الشرطة والقضاء والسجون وأحكام الاعـــدام ، وبذلك يتسنى الخلاص من الأفعال الضارة بالمجتمـــع ، وهى مازالت فى مرحله البراعم ، بغير تعرض للعقوبة • أما الخلافات القليلة التى قـــد تنشب ، فيمكن فضها بالرجوع الى محكمين ، ولن يكـــون هنـــاك داع لاستخدام القوة ، لفرض قرارات هؤلاء المحكمين ، وبذلك نتبع نظاما فى فرض القرارات شبيها بما تفعله « التربيونات » الأسرية فى الصين •

وهنا نساق الى البحث فى مسألة خطيرة : ما الذى سيحل بالأخلاق فى مجتمع لا يعترف بوجود أى قانون ، وينادى بالحرية الكاملة للفرد • وسؤالنا واضح • فالأخلاق العامة مستقلة عن القانون والدين ، وأسبق منهما • وحتى الآن ، لقد اقترنت تعاليم الأخلاق بتعاليم الدين • غير أن التأثير الذى أحدثته التعاليم الدينية على العقل قد وهنت مؤخرا • ولم تعد القداسة التى كانت الأخلاق تستمدها من الدين تتمتع بسلطانها السابق • ونما ملايين وملايين فى مدننا من أولئك الذين فقدوا ايمـــانهم القـــديم • فهل يعنى هذا طرح الأخلاق جانبا ، والسخرية منها كما نسخر من عقائد البدائيين الوثنية •

وضح أن الأمر ليس كذلك • فيستحيل وجود مجتمع ، بلا مبادىء محددة للأخلاق ، يعترف بها الجميع • فلو نشأ كل انسان على خـــداع أقرانه • ولو أننا فقدنا الثقة فى الاعتماد على وعود الآخرين ، وكلماتهم • ولو عامل كل انسان رفاقه كأنهم أرقام يباح فى التعامل معها جميع ضروب العدوان ، ما كان بوسع أى مجتمع الاستمرار فى البقاء • ولقد رأينا ـ فى الواقع ـ أنه رغم تداعى المعتقدات الدينية ، فان مبادىء الأخلاق قد ظلت صامدة لا تتزعزع ، بل ولقد رأينا شعوبا لا دينية تحاول الارتقاء بالمعايير السائدة للأخلاق • فالحق أن المبادىء الأخلاقية مستقلة عن المعتقـــدات الدينية (*) • انها أسبق منها • ان الكثير من القبائل البدائية ليس لديها دين ، ولا تعترف الا بالخزعبلات والخوف من قوى الطبيعة المعاديـــة •

(*) لقد وصمت « الفوضوية » دائما بهذا الخطأ • فقد ظنت أن الحرية الكاملة تتطلب التحرر من جميع القيود التى تفرضها الحكومة وتعاليم الأديان ، وأنه من الميسور اقامة نظام أخلاقى متحرر من الدين • ولو أن كروبوتكين وامثاله اطلعوا على الدراسات الكبيرة التى كان علم الأنثروبولوجيا الحديث العهد آنئذ يجريها لعرفوا بعدم وجود مجتمعات لم تعرف الدين فى أية صورة من صوره ، ولا يلزم أن تكون هذه الصورة مماثلة لصورة الأديان السماوية • فلا وجود اذن لأى نظام أخلاقى غير مدعم ومعزز بايمان دينى • ولعل هذه النظرة الفجة الى الدين كانت سببا فى اعتبار الفوضوية مرادفة للعدمية • (المترجم)

وبالرغم من هذا ، فاننا نصادف عندهم نفس مبادىء الأخلاق التى يدعو اليها المسيحيون والبوذيون والمسلمون والعبرانيون ، نعم ان بعض ممارساتهم تتضمن معايير أسمى كثيرا للأخلاق الجماعية ، لعلها تفوق المعايير التى ظهرت فى مجتمعنا المتحضر ٠

وفى الحق ، لقد استمد كل دين جديد مبادئه الأخلاقية من الرصيد الأخلاقى الحق الأوحد للأخلاق ، أى من العادات الأخلاقية التى نمت مع البشر وصحبتهم بمجرد اتجاههم الى الاتحاد للعيش سويا فى قبائل ومدن وأمم ٠ ويتعذر وجود أى مجتمع حيوانى دون أن يتمخض ذلك عن ظهور عادات أخلاقية معينة تدعو الى تبادل العون ، بل والتضحية بالذات من أجل خير الجميع ، ان هذه العادات شرط ضرورى لرفاهية النوع الانسانى فى صراعه من أجل الحياة ، اذ يعد تعاون الأفراد أهم عامل فى الصراع من أجل الحفاظ على النوع الانسانى ، وله دور يفوق دور الصراع بين الأفراد من أجل وسائل العيش ، الذى يكثر الكلام عنه ٠ ان « الأنسب » فى العالم العضوى هم أولئك الذين ازدادوا اعتيادا للحياة فى المجتمع ٠ وتجر الحياة فى المجتمع بالضرورة فى ذيلها وجود عادات أخلاقية ٠ أما فيما يتعلق بالبشرية ، فانها خلال اقامتها الطويلة على الأرض ، قد نجحت فى انماء نواة للعادات الاجتماعية والأخلاقية فى داخلها ، يتعذر أن تختفى مادامت المجتمعات البشرية باقية على قيد الحياة ، ومن ثم ، وعلى الرغم من المؤثرات التى تثبت عكس ذلك ، وتحدث أثرا فعالا نتيجة لعلاقاتنا الاقتصادية الحاضرة ، فان نواة عاداتنا الأخلاقية ستستمر فى البقاء ٠ فعلينا أن ندرك أن كل ما يفعله القانون والدين هو صياغة هذه العادات فى صورة قوانين وأوامر الهية ، ومحاولة فرضها اعتمادا على قداستها ٠

ومهما تنوعت نظريات الأخلاق ، فانه من الميسور تصنيفها فى ثلاثة أقسام رئيسية : أولا ـ أخلاقيات الدين ٠ ثانيا ـ الأخلاقيات النفعية ثالثا ـ نظرية العادات الأخلاقية المترتبة على احتياجات الحياة فى المجتمع ذاتها ٠ وتضفى أخلاقيات الدين القداسة على نواميسها بأن تنسبها الى الوحى الالهى ، وتحاول غرس تعاليمها فى الروح الانسانية بالوعد بالثواب والتهديد بالعقاب ، اما فى حياتنا الراهنة أو فى الآخرة ٠ واستبقت الأخلاقيات النفعية فكرة الثواب ، ولكنها اهتدت اليها فى الانسان ذاته ، ودعت البشر الى تحليل متعهم ، وتصنيفها ، وحثتهم على تفضيل المتع التى تتميز بشدتها واستمرار ديمومتها ٠ ومع هذا فعلينا أن نعترف بأنه رغم ما أحدثته هذه الأخلاقيات النفعية من بعض الأثر ، الا أنه قد نظر اليها على أنها شىء مصطنع ، وكان هذا ما رآه السواد الأعظم من البشر ٠

واخيرا هناك مذهب ثالث فى الأخلاق يتخذ مظاهر شتى ويرى فى الأفعال الأخلاقية ، أى تلك الأفعال التى لها أعظم الأثر فى تهيئة الناس على نحو أفضل للحياة فى المجتمع ، مجرد ضرورة تحث الفرد على مشاركة أقرانه فى متعهم ، وعلى الشعور بالألم عندما يتألم اخوانه • انه المذهب الذى يرى الأخلاق عادة وطبيعة ثانية تساعد على الارتقاء واكتمال الحياة فى المجتمع • هذه هى أخلاقيات البشرية ، وهى أيضا أخلاقيات المـذهب الفوضوى •

عرضنا مذهبا مختصرا للغايـة للمبـادىء الرائـدة فى المذهب الفوضوى • وقد صوب كل مبدأ ضد الكثير من الأهواء وشهوات البشر ، وان كان كل مبدأ من هذه المبادىء حصيلة لتحليل الاتجاهات عينها التى عرضها المجتمع البشرى • وكل منها غنى فى عواقبه ، ويتضمن مراجعة وافية للكثير من الأراء السائدة ، وليس المذهب الفوضوى مجرد خواطر عن المستقبل البعيد • وأمام الفرد الآن الخيار ، بغض النظر عن مجـال نشاطه ، فاما أن يعمل وفقا للمبادىء الفوضوية ، أو يتبع الاتجاه المقابل لها ، واذا اتبع الطريق الأول فانه سيساعد على الاتجاه الى التقدم مستقبلا• أما اذا اتبع الطريق المقابل ، فان هذا سيعنى محاولة ارغام البشرية على الاتجاه الى حيث لا تتجه ••••

أمثلة من المشكلات المعاصرة

● المساواة والأفضلية فى المعاملة

من هم المتساوون ؟ بقلم كارل كوهن

تضمن التعديل الرابع عشر لدستور الولايات المتحدة ما يأتى : « على جميع الولايات أن لا تنكر فى تشريعاتها النص بمساواة الجميع أمام القانون » فما المقصود بهذه الفقرة ؟ وكيف سيكون حال القانون ، اذا لم يطبق على أولئك الذين ينطبق عليهم تطبيقا متساويا ؟ . تخيل القانون القائل : « ان التصويت من حق جميع المواطنين ابتداء من سن الثامنة عشر » . وبموجبه ، يعامل أبناء السابعة عشر معاملة مختلفة عن معاملة أبناء التاسعة عشر . غير أن جميع المواطنين الذين يبلغون التاسعة عشر من العمر سيعاملون على قدم المساواة (لو أطيع القانون) ، كما سيعامل جميع المواطنين فى سن السابعة عشر على نحو آخر ، ولن يحرم الفريقان من الحماية المتساوية للقانون . افترض اننى عندما توجهت الى المكتب الانتخابى لاعطاء صوتى ، كان رد الموظف المسئول على مطلبى ابتسامة دالة على الحيرة وقال : « آه ! أجل يا مستر كوهن ، ولكن عليك أن تراعى أنك يهودى ، ومن ثم فاننى آسف ، لأننا لن نقبل صوتك » . هذه باختصار الحقيقة بدون لف أو دوران .

والآن افترض أن القانون كان مختلفا ، وافترض أن صيغته قد

(★) نقلا عن مقال صدر بمجلة Phi Kappa السنة الثامنة والستون (شتاء ١٩٧٨) ، وقد تغير عنوان هذه المجلة الآن ، وأصبح National Forum

نصت على ما يلى «من حق جميع المواطنين ابتداء من الثامنة عشر ـ باستثناء اليهود ـ أن يصوتوا فى الانتخابات » · فى هذه الحالة ، فان الموظف لن يبتسم عندما يتسلم مطلبى ، ويحتمل أن يقول : « آسف يا مستر كوهن ، ولكن القانون قد نص على عدم اعطاء اليهود حق التصويت » · وقد أصاب بالذهول عندما أقرأ نص القانون الذى أقره الكونجرس ، عندما يطرحه أمامى · ولكن من الواضح أن هذا القانون قد قرر حق اللا يهود (فوق الثامنة عشر) فى التصويت ، وعدم أحقية اليهود لذلك· واذا افترضنا أن الموظف رجل كفء ونزيه ، وعامل اليهود جميعا بمنتهى الدقة ، معاملة واحدة · فى هذه الحالة ، سيقال أن الجميع قد عوملوا معاملة عادلة واحدة بحكم القانون ، الذى يساوى بين الجميع ·

وليس من شك أننا لن نفترض أبدا أن رعاية القانون للجميع على قدم المساواة ، ستجر فى أذيالها المعاملة المتساوية للجميع ، لأننا نعرف أن هذا سيكون سخفا · فلأصحاب العمل التزامات قانونية ، لا وجود لها فى حالة الموظفين ، وللطلبة حقوق قانونية (وواجبات) لا يتمتع بها المدرسون· ويتوجب على الأغنياء دفع ضرائب ، لا يضطر الفقراء الى دفعها، فشرائعنا القانونية حافلة بالامتيازات · وهناك مئات بل آلاف من الامتيازات التى تحدد طريقة تطبيق القوانين ، وقد يغضبنى وجود امتياز ما ، غير أننى سأقر رغم أنفى أنه لما كان القانون هكذا ، ولما كنت أنتمى الى فئة بالذات ، فان الانصاف يقتضينى الالتزام بما جاء فى القانون ، مثلما يلتزم أولئك الذين ينتمون الى نفس الفئة ·

وقد يحتدم الخلاف بيننا حول هذه الامتيازات ، ويتخذ ثلاثة سبل مختلفة : فقد يتركز اعتراضنا (والمحامون دائما يعترضون) على ماهية من يندرجون تحت هذه الفئة ، ومن لا ينطوون تحتها · وعندما تعترض على مصلحة الضرائب ، ضد استقطاعات موضع خلاف فى ضريبة الدخل ، وعندما أصر بوصفى أستاذا فى الكلية على أننى لست موظفا عموميا ، ومن ثم فانى لست مطالبا باعطاء بيانات عن مصادر دخلى ، فان ما سنختلف حوله سيكون الطريقة القانونية فى تحديد الفئات ، وليس حول الفئات ذاتها ·

وقد نقترح بوصفنا طلبة للعلوم السياسية أو مشرعين ، بأنه من الأحكم (أو من غير الأحكم) ادخال بعض تحديدات معينة على الفروق بين الفئات · فمثلا هل يحق للقانون التفرقة بين كبار أصحاب المؤسسات وصغارهم عند تطبيق تعليمات الأمن الصناعى ؟ · وهل يحق للقانون التفرقة بين مختلف الفئات العاملة عند تحديد الاحتياجات الدنيا للأجور ؟

وقد تنصب اعتراضاتنا حول اعتراف القانون بوجود فئات ذات وضع خاص ، فقد تقرر بعض التشريعات التى صدرت فى مناسبات خاصة، أو بعض التعليمات الادارية ، تميز فئات من الأشخاص ، يعتقد أنها لا تستحق هذا التميز . وربما لا يكفي وصف بعض حالات التفرقة بأنها بعيدة عن الحكمة ، والأصح هو وصفها بأنها ظالمة .

ولنرجع الآن الى التعديل الرابع عشر ، والى الفقرة التى تنص على توفير الحماية المتساوية : « ... ان التحريم فى هذه الفقرة قد استند أساسا على حجج من النوع الثالث . فهو لم يحرم على المشرعين تصنيف الخاضعين للقانون (وللمساواة) فى فئات ، ولكنه يفسر على أنه قد أباح وجود فئات ، شريطة توافر مبرر عقلانى يؤيد ذلك .. واذا اتبعت هذه الفقرة ، فانها ستقضى قضاء مبرما على بعض الامتيازات ، التى تمنح لبعض الفئات . وجدير بالذكر ، أن قوانين نورنبرج التى أصدرها هتلر ، كانت تنص على معاملة جميع اليهود على قدم المساواة . أما العدالة فى أمريكا فانها لا تسمح بهذا النوع من المساواة فى الحماية . اذ تركزت الدعامة الأساسية للتعديل الرابع عشر على اعتبار التفرقة بين الفئات باسم القانون ، أو فى المعاملات الادارية الخاضعة للقانون أمرا ظالما من الناحية الجوهرية .

ولكن ما المقصود بالفئات التى يقع عليها الغبن ؟ لا يخفى أن السر وراء هذا التعديل هو التأكيد على وجوب تمتع السود (العبيد سابقا) بحرية مماثلة لحرية البيض . فيجب أن يراعى عندسن القوانين ضمان حماية جميع الأجناس والأعراق على قدم المساواة . والآن ، وبعد مرور أكثر من قرن ، وسعيا وراء وضع الحق فى نصابه ، ولاصلاح المظالم المترتبة على التفرقة بين الأجناس ، فاننا نواجه مشكلة العدالة من زاوية أخرى . فهل يحق لنا فى محاولتنا تحقيق المساواة الحقة بين الأجناس أن نفرق بين الأسود والأبيض (وبين الأصفر والبنى .. الخ) ، وأن نمنح مميزات لبعض على حساب بعض آخر ؟ . وهل يسمح بذلك التزامنا بما نصت عليه القوانين من المساواة فى الحماية والرعاية .

وعندما تتحدث المحاكم (والمحكمة الدستورية العليا بخاصة) عن مثل هذه المسائل ، فانها لا تكتفى بتحديد ما يطالب به دستور الولايات المتحدة ، ولكنها تقصد ما الذى تتطلبه العدالة فى نظرها . اذ يتعين أن تضع المحاكم العليا المبادىء التى تستند اليها القرارات الخاصة بالمشاحنات بين الأطراف الحقة فى القضايا المنظورة أمامها ، والقضايا التى ستنظر مستقبلا . وغالبا ما تكون الاستدلالات القانونية استدلالات

أخلاقية فى صميمها • ومن ثم فان علينا أن ندرك الفلسفة الكامنة وراء احكامها ، والخلفيات التى دفعتها لذلك •

ولعل ما دعانى للمطالبة بتعميق فهم النص الخاص بالحماية المتساوية للقانون ، هو أفضلية المعاملة فى نظـــام الالتحاق بمدارس القانون ، ومدارس الطب • ويصف بعض المشكلة بأنهـا عملية تفرقة معكوســـة ويصفها بعض آخر بأنها « استثناء حميد » • ولندع هذه الأوصاف جانبا حتى لا ننساق الى التحيز فى هذه القضية • ان مالم يعرض علينا أو على المحاكم هو الأسباب الكامنة وراء هــذا المسلك • ولا أظن أن أحدا من المرتابين فى هــذا النزاع يتشكك فى الحاجة الملحة لاتخاذ اجراء قاطع وحاسم لتصحيح المظالم العنصرية التى ظلت سائدة لعهد طويل • أما ما هو موضع خلاف ، فهو ما يتعين علينا بحكم العدالة أن نفعله لتحقيق هذه الغاية • وأى تصنيف علينا أن نتبعه ، أو لا يجب علينا أن نتبعه ، وكيف نطبقه أو لا نطبقه •

ان قضــية الخــلاف بين المسئولين عن جامعة كاليفورنيا والطالب الان باك قد لفتت الأنظار الى هذه المشكلة • اذ رفضت مدرسة الطب فى كاليفورنيا (فى دافيس) قبول آلان باك مرتين ، سنة ١٩٧٣ ، و١٩٧٤ • وكانت نتائجه فى الدراسة فى مرحلة البكالوريوس جيدة ، وحصل فى فى الاختبـــار على نتائج ممتازة ، وسلوكه طيب ، ومظهره فى الاختبار الشخصى رائع ، وترتيبه مرتفع للغاية بين ثلاثة آلاف من الذين تقدموا لشغل ١٠٠ مكان • ولكن الجامعة حجزت ستة عشر مكانا لبعض أفراد قـــلائل من المتقدمين دون نظر الى الشروط الأخرى • ولوحظ انخفاض مستواهم عن مستوى الأغلبية من أمثـال آلان باك • وكانت جامعــة كاليفورنيا مثل جامعات أخرى مماثلة ، قد أدرجت نسبة تمثل السود وغيرهم من الأقليات بمدرسة الطب ، بغض النظر عن استهجان وجود معيارين للاختيار يتبعان لتحقيق هذا الغاية •

وشكلت مدرسة طب دافيس لجنة خاصة لشغل الأماكن المحجوزة وحددت اللجنــة الأماكن التى سمح بها ورئى اقتصار القبول بها على المرشحين من طوائف الأقليات • ومن الناحية الرسمية يفترض أنه بمقدور أى شخص لا تتوافر له شروط القبول العامة ، أن يستفيد بالقبول تبعا لهذا النظام الخاص • ولكن الواقع أن جميع الأشخاص الذين قبلوا طبقا لهــذا البرنامج الحالى ابتداء من بداية ١٩٦٩ كانوا من أبنــاء طوائف الأقلية • ومن الناحية الرسمية ، قامت اللجنة بابــلاغ لجنــة القبول بالأســـماء المختارة • ولكن الواقع أن المتقدمين الذين اختارتهم اللجنة

الخاصة ، قد اختيروا تبعا لمبررات ثابتة • وفى كل سنة من السنوات التى رفض فيهـا قبول « باك » كان هناك بعض المقبولين من طوائف الأقلية من الحاصلين على درجات متواضعة ، ولم يك من المستبعد رفضهم رفضا باتا لو كانوا من البيض •

ولم تنكر جامعة كاليفورنيا أن عملية الاختيار التى تولاها مكتب التنسيق وأسفرت عن اختيار كثيرين من المتقدمين من طوائف الأقلية ، بعد اجراء المقـابلات الشخصية وحسـاب درجات السلوك والهوايات ، والاختبارات والمتوسـط ، قد أسفرت عن اختيار مستويات أقل بدرجة ملحوظة من مستوى الكثير من أغلبية المتقدمين الذين رفضـوا • وذكر « باك » أنه لو كان له جلد أقتم فى اللون ، لكان قبوله أمرا مؤكدا • وقال ان رفض قبوله بسبب لون بشرته قد عنى حرمانه من حماية القانون ، والمعاملة على قدم المساواة ، التى نص عليها التعديل الرابع عشر لدستور الولايات المتحدة •

واتفق جميع الأطراف فى هـذا الخـلاف على أن المدارس المهنيـة (كمدرسة الطب) قد تلجأ من باب التمويه فى القبول الى جملة مبررات خلاف الاعتماد على درجات الاختبار والنسب المئوية كادعاء المهارة والحذق أو تكريس بعض الأماكن بصفة استثنائية لاناس ما ، أو دافع الشفقة أو غايات لا يمكن الجهر بها ، ويتفق الجميع على أن الأشخاص الذين تعرضوا لأضرار أو غبن ، من حقهم الحصول على الترضية المناسبة • أما الحالة الوحيدة التى ما زالت موضع خلاف فانها الأفضلية المستندة الى العرق أو الجنس •

ويفسر المدافعون عن نظام أفضلية القبول المرتكن الى الجنس الموقف على النحو الآتى : ان الحماية المتسـاوية للقوانين تتطلب وسائل مختلفة للتعامل مع الناس فى مختلف الأوضاع ، وأبناء طوائف الأقلية لهم وضع خاص جدا • والأفضليـة المستندة الى العرق أو العنصر أو الجنس هنا وسـيلة معقولة لتحقيق غايات عادلة واضطرارية معا ، بالنسبة لأبناء طوائف الأقلية •

وهكذا يكون قد دوفع عن مبدأ أفضلية المعاملة (والذى لا تنكره مدرسة الطب) بالاستناد الى حجتين محوريتين • الحجة الأولى ــ تعتمد على المطالب المزعومة للعدالة فيقال ان اعطاء الأفضلية عمدا للمتقدمين من الأقلية سيساعد وحده على منح تعويض كاف للأجيـال التى عانت من اساءة المعـاملة والاستبداد • واستندت الحجة الثانيـة على الاحتياجات المزعومة للمجتمع • فاذا لم نواصل منح الأفضلية عمدا باسم العنصر ،

ستعود مدارس الحقوق ومدارس الطب ، كما كانت ، أى ممالك قاصرة على البيض ، والتعويض هو لب الحجة الأولى ، والتكامل هو كنه الحجة الثانية. والحجتان على السواء خاطئتان خطأ جسيما .

والقول برفع الظلم عمن تعرض للاساءة أمر صائب شريطة عدم التمحك باللون الأسود أو البنى . لقد لحق أبناء طوائف الأقليات الكثير من الأذى ، وعوملوا فى الماضى معاملة قاسية . ولكن علينا أن نتناسى ما حدث من أذى كالحرمان من التمتع بالحقوق النقابية أو الاقتصادية . أو التعليم . ولا نحاول التعويض عن ذلك بطريقة غير سليمة . فالأجدى هو أن يصبح من حق كل متقدم لحق به أذى ظالم ، الحصول على نفس المميزات بغض النظر عن جنسه أو عرقه . ان تحريم الحصول على امتياز خاص بحكم الجنس أو العنصر هو الدافع الجوهرى الذى يضمن تحقيق ما نص عليه الدستور بوجوب حصول الجميع على قدم المساواة بحق حماية القوانين ، أما التصنيف تبعا للعنصر أو الجنس عند توزيع المميزات أو فرص العمل فهو أمر بغيض أصلا ومنفر دائما ، ومرفوض أخلاقيا ، مهما كانت الأهداف الحميدة التى تساق لتبريره .

فماذا عن حالات ازالة التمييز العنصرى المتبعة فى المدارس ، والتى أباحت المحاكم العليا اتباعها عندما أقرت تصنيف الأجناس ضمانا لتحقيق التكامل العنصرى ؟ ألا يعنى ذلك قبول مبدأ الأفضلية القائم على مبرر عنصرى ، اذا كان يهدف الى غاية حميدة ؟ . لا ــ بكل تأكيد ، ففى هذه الحالات التى يسمح فيها بالانتباه الى العنصر أو الجنس من أجل الحاجة الى التأكد من هل توقفت حقا ادارات المدارس التى كانت تعمد الى التفرقة من قبيل الخطأ ، عن فعل ذلك . فلقد سمح بالتحقق من العنصر فى هذه الحالة لسبب أوحد وهو التأكد من تلقى أى طالب ، بغض النظر عن الجنس الذى ينتمى اليه لمعاملة متساوية بصفة مطلقة مع معاملة الآخرين . والفارق حاد وبعيد الغور بين حصر المنتمين لجنس ما ومعرفة عددهم ، وبين اللجوء الى التصنيف تبعا للعنصر بقصد اعادة ادخال تفرقة خاصة .

فهل بالاستطاعة الدفاع عن جامعة كاليفورنيا ارتكانا الى عدم حدوث أى ضرر من جراء تطبيق مبدأ الأفضلية بناء على العنصر ، ووصف هذا الاجراء بأنه اجراء حميد ، كلا ! ان ما يستحق أن يوصف بالحمد هو النتائج، وليس النوايا ، فلقد عادت جميع أنظمة الحصص التى خصصت لبعض الطوائف حصصا خاصة بعواقب وخيمة ، ومن ثم فانها لا تعد حميدة ، فعندما يكون هناك عجز فيما يوزع من سلع ، ويحصل بعض على قدر أكبر منها بحكم عنصره ، سيحصل آنئذ آخرون على قدر أقل

بحكم عنصرهم . ولا مفر من قبول هذا المنطق الصارم . ولقد تعرض « باك » وآخرون من أمثاله الى اقتصاص خطير ، لا لسبب سوى عنصرهم. وليس مثل هذا النظام ـ كما أقرت حتى المحكمة العليا بواشنطن عندما نظرت قضية De Funis « بالنظام الحميد بالنسبة للطلبة من غير الأقليات الذين تم اقصاءهم بمقتضاه » .

على أن كل هذا الكلام لم يذكر أية هنة صغيرة عن التعويض . فاذا كان رفع الظلم واجبا فلنحقق ذلك ، ونحققه على أكمل وجه . واذا تم التعويض عن طريق منة خاصة ، عند القبول بمدرسة كمدرسة الطب ، أو مدرسة الحقوق ، ـ وهذه حالة مشكوك فيها من المنن ، وان كانت ممكنة ـ فان علينا أن نتيقن وأن ندقق فى كل حالة ، وفى احتمال ما قد نلحقه من اضرار فى المواقع التى نسعى لرفع الظلم عنها ، دون نظر الى جنس أو عنصر المتقدم بالطلب .

واذا كانت مطالب العدالة غير قادرة على تأييد مبدأ أفضلية المعاملة بناء على الجنس ، فلعل مصلحة المجتمع الراغب فى تحقيق هذه الغاية قادرة على ذلك . فعندما أقرت المحكمة العليا بكاليفورنيا مطلب « باك » ، فانها سمحت بالاعتراف بضرورة التكامل للصالح العام ، ولكلمة «التكامل» معان مختلفة ، بطبيعة الحال . وقد أدى هذا الغموض الى شكاية الجامعة البالغة التأثير ، والتى قالت فيها : « لقد طلبتم منا أن نتكامل . وعندما ابتكرنا أنظمة للقبول قادرة على تحقيق هذه الغاية ، قلتم لنا ان علينا أن لا نلجأ الى مبدأ الأفضلية المستند الى العنصر . غير أن المشكلة هى مشكلة عنصرية . وليس فى مقدورنا تحقيق أى توازن عنصرى ، اذا لم تمنح الأقليات العنصرية امتيازا خاصا . فلا تطلبوا منا المستحيل ، ولا تطلبوا منا أن نفعل بطريقة غير مباشرة ، ما لا تسمحون بفعله بطريقة مباشرة ».

وليست الحجج التى تذرعت بها جامعة كاليفورنيا حججا سليمة . وتتألف الاجابة المعقولة عليها من أربع نقاط أجملناها فيما يلى :

فأولا : ان بعض الأهداف المذكورة هامة . وبعضها مثير للتساؤل . وأما القول بأن « العملية » برمتها مسألة اضطرارية فأمر مشكوك فيه .

(أ) ان تحقيق خدمات طبية وقانونية أفضل للأقليات من الحاجات الملحة ، غير أنه من المستبعد أن يقدم المشتغلون بهذه الحرف من الأقليات ، الذين تربوا فى أكواخ المدينة ، على العودة لممارسة هذه الحرف فى هذه المواقع . ومن الاجحاف الاثقال عليهم ومطالبتهم بالنهوض بهذا العمل الاستثنائى البغيض . فاذا كنا نسعى لتقديم خدمات لبعض شرائح من المجتمع عن طريق الالحاق بمدارس الطب أو مدارس الحقوق ، فيجب أن

يكون هذا معروفا للكافة ، وأن تتاح الفرصة لجميع الأشخاص باختلاف عناصرهم لاثبات نواياهم ، وصدق هذه النوايا ، لو كانوا ينشدون بالفعل هذه الغاية ٠

(ب) يدافع بعض عن اتباع مبدأ الأفضلية عند القبول بالمدارس على أساس ان الكثيرين من الأشخاص الذين يسعون للحصول على عون من هذه المهن ، سيشعرون بارتياح أعظم ، اذا تعاملوا مع محام أو طبيب من نفس عنصرهم أو دينهم ٠ ومن المحتمل أن يكون هذا الزعم صحيحا ٠ ولكن علينا أن لا ننسى أن الحجة التى استند اليها ما يحققه هذا الاجراء من نفع ، والتى يرتكن عليها الآن لتبرير مبدأ الأفضلية ، وصبغه بالصبغة الرسمية ، قد سبق منذ أمد بعيد اللجوء اليهـا لاستبعاد السود من مستشفيات البيض ، واستبعاد اليهود من الهيئات القضائية ، التى رئى وجوب اقتصارها على المسيحيين ٠ انها حجة تشبع شهوات المتعصبين من كل لون ٠

(جـ) سيساعد تنوع الخلفيات الثقافية فى مدارس الطب ومدارس الحقوق ، وفى المهن نفسها على زيادة ثراء التعليم والخدمات ٠ وسيجىء بنماذج للاقتداء فى شتى المهام لشبيبة الطوائف التى اضطهدت طويلا ٠ ان هذه الفقرات لها جوانب نافعة حقا ، وتستحق التقدير ٠ ولكن هل هى ضرورية بالمعنى المطلوب ؟ ٠ ان ما هو ضرورى هو التكامل بالمعنى الكلاسيكى ، يعنى ازالة جميع العوائق التى تعترض المساواة الحقة فى الفرصة ، وازالة كل تأهل مكتسب من ناحية عنصرية ٠ أما التكامل بالمعنى الشائع ، والذى قد يجر فى أذياله بعض الخلط do facto للأجناس ، والذى قد يوهم بعض بأنه قد حقق التطابق والتجانس ، فانه ربما بدا مستحبا فى بعض مواضع ، وغير مستحب فى مواضع أخرى ، ولكنه على العموم ليس ضروريا بكل تأكيد ٠

ثانيا : لقد شددت المحكمة العليا لكاليفورنيا على القول بأن جميع الأطراف لم تذكر فى دعوتها ضرورة اتباع مبدأ الأفضلية لعناصر الأقلية ، سعيا وراء تحقيق الأهداف الاجتماعية المناسبة (اذ اتفق الجميـع علـى الاعتراض عليه) وحتى اذا وضعت حصص تعسفية باعتبارهـا المعيار المقبول الوحيد للنجاح ، فان هذا لن يعد دليلا على صحة هذا المبدأ ٠ ولكن من أين جاء هذا المعيار ؟ ٠ ان تاريخ أمتنا برمته كان تاريخ استيلاد اثنولوجى ، قامت فيه جماعات مختلفة تنتمى الى أجناس وحضـارات مختلفة ، بمحاولة لخلق تجانس فى المجتمع ٠ وليس هذا الاجراء ضارا أو عديم النفع ٠ وقد أثبتت هذه المحاولة ، بالرغم مما فيها من اتجاهات

طيبة ، انها قد زادت من الانقسام ، وأنها مخيبة للأمال ، وغير فعالة . وهناك سعى معقول لخلق زيادة جوهرية فى تنوع بعض المهن ، وقد يزداد التنوع والتكامل زيادة كبيرة كأمر واقع . اذا أتبعت سياسة بعيدة عن سياسة الأفضلية ، واتخذت شكلا فعالا قويا ، وقد يتحقق ما هو أكثر من ذلك لو أدخلت بعض المشروعات التعويضية المتنوعة ، ولكن علينا أن نطبقها بطريقة محايدة بالنسبة للاختلافات العنصرية . وقد ينتفع بعض المتقدمين من أبناء الأغلبية العنصرية الذين يستحقون أفضلية تعويضية ، من تطبيق مثل هذه البرامج ، وان كان هذا أمرا فى محله تماما .

وليس هناك أى خداع فى هذا الحل . والزعم بأن هذه الوسائل لا تزيد عن كونها وسائل معوجة لبلوغ نفس الغاية كلام زائف فحسب ، ويكشف عن ميل لادخال الأفضلية العنصرية على نحو ما « عن طريق الباب الخلفى » اذا دعا الأمر . وقد يكون هذا أمرا قبيحا . فليس هناك مبرر للخوف أو الخجل من برنامج قبول يجرى بأمانة ، أو من أى برنامج تعويضى نزيه يطبق تطبيقا نزيها ، وما يترتب على ذلك من حصر عددى لعدد المنتفعين به من الأقليات قد لا يكون مماثلا لعدد المنتفعين فى حالة تطبيق مبدأ الأفضلية للأقليات ، ولكن لعله ما كان من الواجب أن تكون النتيجة كذلك . وحتى اذا كان هناك تماثل عددى بين الحالين ، فان الأفراد سيكونون مختلفين ، اذا سلمنا بأن المبادىء هى التى ستتبع وليس أى مبررات عنصرية ، ومن هنا يجىء الاختلاف برمته . وما من شك أنه بالمقدور تحقيق تقدم جوهرى فى تنوع فصول مدارس الطب ومدارس الحقوق ، واحداث تكامل بينها دون استعانة بمبدأ الأفضلية .

ثالثا : علينا أن نعتقد أن المحاباة المستندة الى العنصر أمر كريه ، مهما كان سمو الهدف ، اذ تظهر أهداف ضاغطة الى حد مريع (كالقول بضرورة تحقيق تكامل فى المهن واستيفاء الخدمات القانونية والطبية لأبناء طوائف الأقلية) يحتاج حسمها الى اتباع وسائل غير مقبولة ، ألا يحق لنا أن نتغاضى عما نص عليه الدستور ، ولو مرة واحدة ، فى سبيل الأهمية المترتبة على ما نهدف اليه ، ومدى نصيبه من اللياقة ؟

ان هذا التغاضى هو بالضبط أمل كل طرف له أهداف تبدو فى نظره مقنعة اقناعا عميقا ، وذات أهمية كاسحة . ولقد لجأوا فى الماضى الى التخريجات الدستورية ، وسيلجأون اليها مستقبلا من أجل الأمن القومى (مثلما حدث فى الموقف الذى استدعى القبض على اليابانيين داخل الولايات المتحدة) ومن أجل دعم القانون الجنائى (بالاعتراف بالأدلة المنتزعة بطريق غير قانونى) ، وفى مجالات أخرى . ولكن علينا ان لا نتغاضى ! ويجب أن

يلتزم كل طرف بدوره بالقيود التى وردت فى الدستور ، وبأهم ملامحه ـ اذا اعتبرناه شيئا أكثر من ورقة مكتوبة ـ يعنى استبعاده للوسائل الظالمة ٠ ومن هنا تجىء نفاسة ضمان المساواة أمام القانون ، وقوتها ٠ وعندما يحدث تعارض بين الاجراء الصحيح ، والأهداف المستحبة ، فان التجربة قد علمتنا بأن الأولوية يجب أن تكون فى صف الاجراء الصحيح ، اذ ستؤثر الوسائل الفاسدة فى النتائج (فى حالة المجتمعات والأفراد على حد سواء) ، وستفسد المستفيد فى نهاية الأمر وهذا ما يحدث فى حالة التصنت بأجهزة التسجيل والرقابة ، والاستعانة بكل « حيلة » تتبع مع العلم بها ، على حساب حقوق الأفراد ، والأمر بالمثل فى حالة تطبيق مبدأ أفضلية الأقلية ، حتى لو حسنت النوايا ٠

والاجابة الرابعة : على الحجة الخاصة بالتكامل ضرورية أيضا نفس ضرورة الاجابات الثلاث السابقة ، ولكنها ستضيف شيئا من السخرية المريرة ، ان المدافعين عن هذه البرامج ، رغم بغضهم لمبدأ أفضلية الأقليات فى اختبارات القبول ، ونفورهم من مذاقه ، الا أنهم يعترفون باضطرارهم لاستساغته ، بتأثير اقتناعهم بما يعود به علينا من نفع ٠ انه مبدأ مرير ، ولكنه صحى (هكذا يعتقدون) ٠ وفى هذه الناحية أيضا لقد أخطأوا ، لأن الأفضلية القائمة على الجنس ليست خيرا لأى انسان ، سواء كان أبيض اللون أم أسود ، من الأغلبية أم من الأقلية ٠ انه لن يساعد على احداث تكامل بين الأجناس ، ولكنه سيؤدى الى تفككها ، لأنه سيرغم على الانتباه الى الجنس ، ويخلق قلقا واضطرابا حول الجنس فى جميع السياقات الخاطئة ، وسيثير الحسد وسوء النية والضيق على نطاق واسع من العقوبات المجحفة ، والثواب بلا استحقاق ٠

كما أنه لن يخدم الأقلية خدمة صحيحة ، اذا اتضح أن الطلبة من طائفة الأقلية ، الذين قبلوا استثناء بموجب مبدأ أفضلية الأقليات أقل تأهلا لمتابعة دراساتهم وممارسة مهنتهم ٠ ولقد أبلغ عالم نفس أسود حدوث ضرر من جراء تطبيق مبدأ الأفضلية بناء على العنصر ٠ اذ قال الدكتور تشارلز ديكلون (Western Reserve University Hospital) لجريدة النيويورك تايمس ١٩٧٤ : « اننى لن أستعين ببعض طلبة الأقلية الذين رأيتهم فى ضرب كلب ٠ وأعتقد أنكم تنفخون فى هذه الدمى حتى يتسنى لكم بعد ثمان سنوات من الآن أن تنظروا الينا ، وتقولون : « انظروا ما آل اليه هؤلاء ، من سوء » ٠

وفوق كل شىء ، ان مبدأ الأفضلية للأقلية ، قد حجب منجزات

أولئك المتميزين من أصـــحاب المهن (من طوائف الأقلية) وأساء الى سمعتهم ، وان كانوا ليسوا فى حاجة الى مثل هذه المحاباة ، ولم يجنوا أى شيء منها . فاذا ربطنا فى عقول الجميع سودا أو بيضـا ، بطريقة آلية ، بين لون جلد الطبيب ، وبين الاحســان والصدقة ، فهل سيبقى أحد من طائفة الأقلية ينظر اليه نظرة احترام . انها نتيجة قاسية .

ان مبدأ الأفضلية للأقلية أشبه بالديناميت . ومن يتلهون بمثل هذا المبدأ قد أعماهم الحماس المخلص الآن ، وأخفى عنهم الانفجار الذى قد يتولد عنه . ولقد أصر وزير العدل جون ماريشال هارلان بعد أن اختلف هو والمحكمة العليا (١٨٩٦) ، التى أقرت مذهب الفصل بين العنصرين والحفـاظ على العدالة ، أصر على القول بأن دستور الولايات المتحدة مصاب بعمى الألوان ، ولابد أن يكون كذلك . ويطالب بعض الآن بأن يتصف الدستور بالقدرة على تمييز الألوان حتى يتمكن من أن يصاب بعمى الألوان فى المستقبل . الا أن هذا لن يحدث ، ويذكرنا هذا القول ، بالزعماء السياسيين الذين علقوا الدستور « حتى يتمكنوا من بناء قاعدة أرسخ للديموقراطيـة » ، وبمجرد توطد أسس التفرقة كشيء مقبول دستوريا ، فان الأشتات العنصرية سيتعاظم شـأنها ، ولن يخفت أثـرها أو يزول ، وليست هناك وصفة أضمن من ذلك لتحقيق التنافر العنصرى.

ان المحاباة الرسمية اعتمادا على العنصر أو الأصل القومى لها مفعول السم فى المجتمع ، وفى المجتمع الأمريكى بالذات الذى بنى على شرائح عنصرية واثنولوجية متعددة . انها ستحدث أثرا ساما قاتلا . وكم سيكون الخطأ فادحا ، اذا تعاطى هذا المجتمع جرعات جديدة من نفس المادة ، بينما هو ما زال يعانى من أوجاع الشفاء من المرض القديم .

٢٢ ـ دفاع عن برنامج أفضلية المعاملة بقلم ريتشارد ٠م٠ واسرستروم

[ريتشـارد ٠أ٠ واسرستروم (١٩٣٦ ـ) أسـتاذ القانون والفلسفة فى جامعتى كاليفورنيا وسان فرانسيسكو . وقد

(★) نقلا عن مجلة Phi Kappa Phi (السنة الثامنة والخمسون) شتاء سنة ١٩٧٨ ولقد تغير اسم هذه المجلة حديثا وأصبح National Forum
كاتب المقال هو : Richard A. Wasserstrom

عمل بين ١٩٦٣ و ١٩٦٤ مدعيا عاما فى قسم الحقوق المدنية بوزارة العدل الأمريكية وألف كتابا يحمل عنوان Judicial Decision وأشرف على نشر (١) كتاب War and Morality (٢) Morality and Law ، (٣) To days Moral Problem (الطبعة الثانية)]

اعتمد عدد كبير من تبريرات برامج الأفضلية فى المعاملة على الزعم بأن مثل هذه البرامج ، لها نتائج خيرة ، على نحو ما ، أو كونها وسائل فعالة يرتكز عليها لتحقيق بعض الغايات المنشودة ، كالمجتمع المتكامل الذى يتمتع أفراده بالمساواة . وما أقصده ببرامج الأفضلية فى المعاملة هو الاشارة الى برامج كتلك التى ثار نزاع حولها فى قضية « باك » ، أى البرامج التى خصصت عددا محددا من الأماكن (فى مدرسة الحقوق على سبيل المثال) لأولئك الذين ينتمون الى طوائف الأقليـة (كأشخاص من غير البيض أو النساء فى بعض الحالات) الذين يتمتعون بأدنى قدر من المميزات التأهيلية (كالنقص فى درجات الاختبارات أو انخفاض مراتب النجاح) ، ورئى امكان تفضيلهم فى القبول فى تلك الأماكن على نظائرهم من أبنـاء الأغلبية ، من الحاصـلين على مميزات تأهيلية أعلى (كارتفاع درجات الاختبارات ومراتب النجاح) .

وزعمت عدة انتقادات لبرامج « الأفضلية فى المعاملة » ان مثل هذه البرامج حتى اذا أثبتت فاعليتها ، فانه من العسير تبريرها ، لأنها من ناحية هامة ــ مجحفة وغير عادلة . وفى هذا البحث ، سأعرض دفاعا محددا عن مثل هذه البرامج ، وأبين أن هناك حجتين من الحجج الرئيسية التى ذكرت عن اجحاف هذه البرامج ، وابتعادها عن العدالة ، لا يمكن الاقتناع بما جاء فيها بناء على الفروض التى افترضها نقاد هذه البرامج ، أو بالقدر الذى افترضوه .

والحجة الأولى هى كما يلى : أعلن خصـوم برامج أفضليـة المعاملة ان أنصار هذه البرامج قد وقعوا فى خطأ التناقض الفكرى ، ان لم تك جريمتهم هى العنصرية أو التحيز للاناث Sexism . فكما هو معترف به الآن بالفعل ، وفى بعض حالات فى المـاضى ، كان أصـحاب العمل والجامعات والكثير من المؤسسات الاجتماعية ، يخصصون حصصا لبعض الأجناس الأخرى ، أو للنساء (عندما كانوا لا يتبعون صراحة الاتجاه الى الاستغناء عن الأجناس الأخرى أو النساء) . ولم يشعر بأى انزعاج كثير من أولئك الذين عنوا عناية فائقة بالسعى نحو استبعاد هذه الحصص المخصصة للعناصر الأخرى ، من أثر البرامج الجديدة التى حلت رسميا محلهـا . وزعم أن هذا أمر متناقض . فاذا اعتبرت مراعاة العنصر أو

الجنس، عندما كان السود والاناث أهدافا للسياسات العنصرية ، أو المتحيزة للذكور ، أمرا خاطئا ، فمن باب أولى يكون من الخطأ أيضا أن يؤخذ العنصر أو الجنس فى الحسبان ، عندما تنعكس الآية وتتغير النظرة الى العناصر الأخرى أو الاناث ، عند تحديد الأهداف السياسية ، وتتطلب أبسط مراعاة للتوافق الفكرى أن يظل ما أعتبر مبررا حسنا آنئذ مبررا حسنا الآن ، أى الاستناد الى العنصرية وال sexism لشجب هذه السياسات والممارسات الاجتماعية •

وتكمن مشكلة هذه الحجة فى أنها رغم مظهرها ، الا أنه لا يوجد أى تناقض متضمن فى الاعتقاد بالنظرتين كليهما • وحتى اذا اعتبرت برامج أفضلية المعاملة ، التى خصصت حصصا ، من قبيل الخطأ ، الا أنها لا تعد خاطئة استنادا الى المبررات التى اكتشفت ما يحدث من خطأ فى حالة تخصيص حصص مناهضة للسود والاناث • ويرجع ذلك الى أن الوقائع الاجتماعية قد كشفت عن وجود اختلاف بين • ويرجع الشر الأعظم للبرنامج الذى ينحاز ضد السود والاناث الى أن هـــذه البرامج تنتمى الى عالم اجتماعى أكبر ، يرعى بطريقـة منهجية شـبكة من التنظيمات التى تركز بلا حق السلطة والنفوذ وجميع الخيرات فى أيدى الأفراد الذكور والبيض • ولا تمنح السود والاناث ــ عن قصد ــ سوى المراكز الثانوية فى المجتمع•

وأيا كان الخطأ فى البرامج الايجابية الفعالة ، وفى نظام الحصص المتبعة فى أيامنا هذه ، فمن الواجب أن يكون واضــحا أن الشر ــ ان وجد ــ لم يعد هو هو الشر القديم • اذ تمثـل الأقليـــات العنصرية والأنثوية ــ أى الاناث اللاتى لا يحصلن على حقوقهن بحكم انتمائهن لجنس الاناث ــ الجماعة الاجتماعية السائدة • كما أن النظرة التى تحدد ماهية الفرد الكامل الأهلية فى المجتمع الأخلاقى والاجتماعى لا تتضمن أى أنثى من الاناث أو واحدا من السود • ولن تضيف الحصص التى تؤثر الاناث أو السود اى شىء يؤثر على الرصيد والفرص التى تحت امرة هاتين الطائفتين ، أى أنها لن تقدر على احداث أثر ممــاثل لما أحدثته حصص الماضى التى أضافت رصيدا وهيأت فرصا عديدة للذكور البيض •

وبالاستطاعة طرح النقطة ذاتهـا بطريقة مختلفة نوعا • فأحيانا يقال ان موضع الخطأ فى نظام التفرقة العنصرية فى الجنوب ــ على سبيل المثال ــ أنه قد ارتكن الى خاصية بعيدة الارتباط ، يعنى الناحية العرقية ، واستعملها بطريقة منتظمة لتوزيع المنافع والأعباء الاجتماعية من شتى الأنواع • ويرجع النقص الى أن الخاصية التى استند اليها (أى العنصر) كانت بعيدة الارتباط ، اذ كان معنى ذلك أن الأفراد قد انتهوا الى الخضوع لمعاملة تعسفية ونزوائية •

ولست أعتقد أن هذا كان وجه نقص على الاطلاق · ولنأخذ على سبيل المثال أبشع الممارسات ، أى الرق الانسانى · اذ كان أول خطأ فى هذا النظام لا يرجع الى أن الأفراد الذين كان يعرض عليهم القيام بدور العبيد ، كانوا يختارون عشوائيا لهذا الدور ، وأن هذا الاختيار والتخصيص كان مسألة بعيدة الارتباط بجنسهم · والأصح – كما يبدو لى – ان أول شىء يوصف بالخطأ ، ومازال يوصف كذلك ، هو ممارسة الرق فى حد ذاته ، أى حقيقة اقتدار بعض الأفراد امتلاك أفراد آخرين ، وكل ما يترتب على هذه الممارسة · أما المعيار الذى كان يعتمد عليه عند تخصيص هؤلاء الأفراد فمسألة غير ذات بال ، لأن الرق الانسانى سيظل أمرا خاطئا ، ويصح القول نفسه عن معظم – ان لم يك كل – الممارسات والتنظيمات المخالفة ، التى اشتمل عليها نظام التفرقة العنصرية ، حتى بعد الغاء الرق الانسانى · فليس هناك ما يبرر استمرار بقاء هذه الممارسات · انها مظاهر استبدادية ، وسينظر اليها كذلك ، بغض النظر عن الطريقة التى تتبع فى انتقاء الضحايا ·· وما زاد الطين بلة هو أن المؤسسات ، والأيديولوجية ، التى استندت اليها قد تضافرتا لخلق نظام استبدادى فى التعامل والبشر ، وكان أثره على من يتعيشون فى ظله مهلكا ، مثلما كان لا يستند الى أى مبرر ·

أضف الى ذلك ، أنه اذا كان هناك أى خطأ فى برامج الأفضلية ، التى بدأت تزدهر فى السنوات العشرة الأخيرة ، فيجب أن يكون مفهوما أن هذا الاختلاف انما يرجع الى تغير الحقائق الاجتماعية ، وما طرأ من اختلاف فى توزيع الموارد وفرص العمل · وبغض النظر عن أى شىء آخر ، فليس هناك ما يدعو الى الاعتقاد ان تنفيذ جميع هذه البرامج سيتيح للذكور البيض وضعا يساعدهم على الاستبداد وييسر لهم التحكم فى الاناث والسود اعتمادا على الايديولوجية والمؤسسات الاجتماعية السائدة·

والاعتراض الثانى هو أن برامج أفضلية المعاملة قد أخطأت عندما ارتكنت الى العنصر والجنس بدلا من ارتكانها على الشىء الوحيد الذى يعتد به ، أى مؤهلات الفرد · ان ما تشترك فيه جميع مثل هذه البرامج، وما يجعلها جميعا قابلة للاعتراض عليها – هكذا تقول الحجة – هو أنها تجاهلت الأشخاص الأعظم أهلية ، بأن منحت الأهلية لأولئك الأقل أهلية بحكم كونهم اناثا أو سودا ·

أعتقد أن ثمة عددا من الأخطاء قد تضمنها هذا الاعتراض الذى تذرع بالمؤهلات · وليس أقل هذه الأخطاء شأنا اننا لا نعيش فى مجتمع يستطيع الادعاء بالاحتياج الى المؤهل لشغل الكثير من الوظائف ذات السلطان والنفوذ · فهل يستطيع أحد أن يزعم مثلا أن الأشخاص الذين

يتألف منهم الجهاز القضائى قد احتلوا هذه المناصب لأنهم أفضل الحقوقيين تأهيلا ، أو أنسب الأشخاص لشغل وظائف القضاء ؟ وهل يستطيع أحد أن يزعم أن هنرى فورد الثانى (ملك صناعة السيارات فى الولايات المتحدة) يرأس شركة فورد للسيارات بحكم أنه أكثر الأشخاص أهلية لتولى هذه الوظيفة ؟ ان جانبا من الخطأ الذى يحدث عند الكلام عن التأهيل والفضل يرجع الى أن هذه الحجة قد استمدت بعض قوتها من فكرة خاطئة ترى أنه كان بمقدورنا انشاء نظام قائم على فضائل الأفراد (ميروتقراطى meritocracy) لولا وجود برنامج أفضلية المعاملة ٠٠ والواقع أنه كلما ارتقت منزلة الانسان فى سلم الجاه والسلطة ، وما أشبه ، يبين أن التأهيل لم يك العامل الحاسم فى هذا الشأن ٠ اذ لا يعتمد على التأهيل الا بعض وظائف ومواقع معينة ، ولا يزيد دورها عن النص على حد أدنى من القدرات الضرورية لشغل بعض الوظائف ٠

واذا تجاوزنا عن مثل هذه الصعوبات ، فاننا سنلقى أنفسنا أمام صعوبات نظرية أيضا ، بعيدة الغور تتعلق بحجة المؤهلات ، ونبدأ فنقول انه من المهم أن نلحظ حدوث عدم ترابط أو تفكك خطير نجم عن اتجاه الشخص الذى يؤثر « التأهيل البحت » لاعتقاده فى وجوب اختيار الأعظم أهلية ، لأن هذا الاجراء سيساعد على تحقق الحد الأقصى من الكفاية ٠ فلنفرض ان ما تقوله هذه الحجة كما يأتى : اذا توافر لدينا أفضل العناصر المؤهلة للمهام المناسبة لها ، فان هذا سييسر انجاز هذه المهام بأوفر تكلفة اقتصادية ، وبأعظم كفاية ٠ وليس هناك أى خطأ – من حيث المبدأ – فى الحجج المستندة على ما يترتب على اتباع ممارسة اجتماعية ما على نحو معين من نتائج حسنة ٠ غير أنه مما لا يتماشى وما يقوله خصوم « أفضلية المعاملة » أن ينسب فضل أكبر للأهلية بناء على هذا الأساس ، لأن خصوم « أفضلية المعاملة » قد اعتبروا أنه من الخطأ الاعتراف بالنتائج الحسنة كمقياس للنجاح ٠ وبعبارة أخرى ، اذا اعتبرت الأهلية البحتة ، وتفضيل الأكثر أهلية ، أفضل وسيلة ذات كفاية لانجاز الأشياء ٠ فى هذه الحالة ، فاننا سنكون قد عدنا أدراجنا الى الاعتماد على معيار كفاية النتائج التى تحققها مختلف البرامج ، ونكون قد ازددنا ابتعادا عن معايير العدالة والانصاف التى اعتقد أن لها وزنها وثقلها فى الاعتراض على هذه البرامج ٠

ومن المهم أن يلاحظ أيضا ان المؤهلات فى حالة التعليم – على أقل تقدير – ليست مرتبطة فى معظم الأحيان برباط وثيق بأى تصور مستصوب للفاعلية الاجتماعية ٠ فاذا سمحنا بقبول الطلبة الأعظم تأهلا لمدرسة الحقوق مثلا – حتى اذا سلمنا بأن طريقة التأهيل قد تم تحديدها –

سيكون معنى ذلك فى المقام الأول أننا قد سمحنا بقبول أولئـك الذين توافرت لهم أعظم فرصة للحصول على أعلى الدرجات في مدرسة الحقوق ، على أن هذا لا يدل دلالة أكيدة على الكفاية ، وغاية ما يستخلص من ذلك هو الاعتراف بأن تعليم هؤلاء الطلبة سيكون أيسر • ومع هذا ، ولما كنا لا نعرف الا القليل عن العلاقة بين اتصاف طالب ما بأنه طالب حقـوق جيد ، وبين احتمال تفوقه فى مهنة المحاماة ، لذا سيتعذر علينا الزعـم بمنتهى الثقة بأن النظام القانونى سيزداد كفاية اذا اقتصرنا على السماح بقبول الطلبة الأعظم تأهيلا لمدرسة الحقوق •

ولكى تصبح حجة الأهليـة أعظم حسما ، ينبغى أن تتخذ الصيغة الآتيـة : أولئك الذين يتمتعون بأهلية أعظم يستأهلون الحصول على مزايا (مثل الوظائف ، وشغل أماكن فى مدرسـة الحقوق •• الخ) ، لأنهم الأعظم أهلية • أما ادخال تصور الاستحقاق ، فانه سيحول المسألة الى مسألة اعتراض على عدالة أو مدى الانصاف فى ما وعد به النقد الأصلى للبرنامج •• غير أن المشكلة الآن هى أنه لا وجود لأى مبرر للاعتقاد فى وجود أى معنى قوى لكلمة « استحقاق » تدعو الى الظن فى صحة استحقاق الأعظم أهلية لأى شىء •

ولنبحث احدى الحالات على نحو أوثق • انها حالة أفضلية المعاملة بالنسبة لخريجى المدارس أو الكليات ، وثمة فجوة منطقية فى الاستدلال تفصل بين الزعم بأن شخصا ما هو الأكثر تأهلا لأداء مهمة ما ، يعنى لكى يكون تلميذا مجتهدا ، وبين النتيجة القائلة بأنه هو أو هى يستأهل أو تستأهل القبول لكى يصبح طالبا أو تصبح طالبة • بطبيعة الحال ، ان أولئك الذين يستحقون القبول يتعين قبولهم ، ولكن لماذا يستحق الأعظم أهلية شيئا بالذات ؟ • ليست هناك ـ بكل بساطة ـ أية علاقة ضرورية تربط بين الميزة الأكاديمية (بمعنى الاتصـاف بالتفـوق فى الأهليـة) واستحقاق الانضمام الى هيئة الطلبة • على سبيل المثال ، افترض أنـه لا يوجد عند جماعة ما أكثر من ملعب تنس واحد • فهل يعنى هذا عدم السماح باستعمال الملعب لغير أفضل اللاعبين للتنس ؟ • ولماذا لا يكون هذا من حق الأبكر فى الحضور الى الملعب ؟ أو من حق من يستمتعون باللعب استمتاعا أكبر ؟ أو من حق الأسوأ ؟ ومن ثم فانهم الأكثر احتياجا للحصول على أعظم فرص للتدريب ؟ ، أو أولئـك الذين لم تسنح لهم الا فرص ضئيلة بذلك ؟

ان بوسعنا ـ بطبيعة الحال ـ اصدار قانون يعطى أولوية استخدام ملاعب التنس للأفضل • وبناء على هذا القانون ، سيكون لأحسن اللاعبين أفضلية فى استخدام الملاعب أكثر من أسوأ اللاعبين ، غير أن هـذا قـد

يؤدى الى تقهقر البحث خطوة للوراء ، فهل هناك سبب يدعو الى تفكيرنا فى ضرورة اصدار قانون يعطى لأفضل لاعبى التنس مثل هذه الأفضلية ؟٠ والحق أن الحجج التى يمكن أن تساق تأييدا أو معارضة لمثل هذا القانون عديدة ومتنوعة ٠ والقليل من هذه الحجج ـ ان وجدت ـ هى التى قد تؤيد القول بأن القانون يمكن أن يعتمد على الربط بين القدرة والاستحقاق ٠

ومع هذا فلربما أجاب أحد على ذلك بأن أقدر الطلبة يستحقون القبول بالجامعات ، لأن مستواهم الدراسى الأبكر كان نوعا من المباراة والتنافس ، وأن القبول بالجامعة بمثابة جائزة تمنح للفائزين ٠ فهم يستحقون القبول لأن هذا هو ما ينص عليه قانون التنافس ٠ وبالاضافة الى ذلك ، قد يقال أيضا أنه من الغبن استبعادهم الآن ، وتفضيل آخرين، اذا راعينا التوقعات التى جالت فى خاطرهم عن الطريقة التى يتعين أن يكافىء بها اجتهادهم وأداؤهم ٠ ان برامج قبول الأقلية التى تفضل بالضرورة بعض من هم أقل كفاية على البعض الأكثر كفاية تتسم كلها بهذا النقص ٠

وثمة مشكلات عديدة تتصل بهذه الحجة ٠ وأكثر هذه المشكلات جوهرية ، أنها تقدم صورة منفرة « تجريبيا » لعالمنا الاجتماعى ٠ فالكثير مما يعد من المستلزمات الحاسمة للقبول بالتعليم العالى يتصل اتصالا كبيرا بأشياء ليس للفرد أى سيطرة عليها أو مسئولية عنها ، ومن أمثلة هذه الأشياء : البيئة المنزلية ، والطبقة الاجتماعية الاقتصادية للوالدين ، ولا ننسى نوعية المدارس الثانوية التى تم التعلم بها ٠ ولما كان الأفراد لا يحصلون على أى شىء من هذه الأشياء بدرجة مساوية للأفراد الآخرين ، لذا فانهم لا يستحقون مؤهلاتهم ، فى أغلب الأحيان ٠ ولما كانوا لم يحصلوا على قدراتهم عن استحقاق ، لذا فانهم لا يستأهلون القبول اعتمادا على قدراتهم ، باتباع مثل هذا المنطق الفظ ٠

وما من شك أنه لو كانت هناك قاعدة تربط بين الأداء فى المدرسة الثانوية والقبول بالكلية ، سيصبح آنئذ ما يقال عن أحقية أولئك الذين أبلوا بلاء حسنا فى المدرسة الثانوية ـ ولهذا السبب فقط ـ القبول بالكلية ، وان كان مثل هذا المنطق يتسم بضعفه ٠ وبالاضافة الى ذلك ، فاذا كان الأشخاص قد عقدوا العزم ، أو اعتمدوا على توقعاتهم المعقولة ، فيما يتعلق بالأداء والقبول ، سيكون فى هذه الحالة من حقهم المطالبة بالقبول بناء على هذا الأساس أيضا ٠ غير أنه من المؤكد ، ومن غير الجلى ، اعتبار هذه المطالب الخاصة بالاستحقاق أقوى أو أكثر ضرورة من المطالب

المرتبطة بالتنافس ، والمستندة على الاحتياجات والمزايا التى سيحصل عليها السود أو الاناث فى حالة تطبيق مبدأ « أفضلية المعاملة » . وكما بينت ، ان جميع مطالب الاستحقاق المستندة الى قاعدة تعد ضعيفة ما لم يبين أن القانون الذى خلق المطلب ذاته له ما يبرره . والى أن يتم ذلك . فما لم يتوافر للمرء أفضلية قوية بناء على الأوضاع الراهنة Status quo وما لم يتمكن المرء من الدفاع عن هذه الأفضلية ، فان ما يحدث داخل النظام من تخصيص أماكن على نحو ما ، لن يذهب بعيدا على الاطلاق فى بيان ان هذا هو الطريق الصحيح أو العادل لتخصيص هذه الأماكن فى المستقبل .

ولا الزام على نصير برامج أفضلية المعاملة باتباع النظرة التى ترى أن المؤهلات يتعين أن لا تعطى أى اعتبار . فقد يتفق هو أو هى على أنه فى ظل التكوين القائم لأى مؤسسة هناك ــ فيما يحتمل ــ مجموعة من المؤهلات التى تمثل الحد الأدنى . بغيرها ، لن يحق لأحد أن يشارك مشاركة ذات بال فى أى مؤسسة . وبالاضافة الى ذلك، يمكن التسليم بأن مؤهلات أولئك الذين ينضوون تحت جناح هذه المؤسسة ستؤثر فى طريقة سيرها ، وطريقة تأثيرها في الآخرين في المجتمع ، وستختلف النتائج باختلاف حالة المؤسسة . غير أن كل هذا سيدعم القول بأن المؤهلات بهذا المعنى ــ ذات ارتباط ــ ولكنها ليست ذات أثر حاسم . ان هذا يتوافق تماما مع الزعم بأن العنصر أو الجنس يجب أن ينظر اليه بعين الجد فى مسألة مماثلة لمسألة القبول بالجامعة أو مدرسة الحقوق . وهذا هو كل ما حاول أن يفعله برنامج مثل برنامج أفضلية المعاملة ، حتى فى حالة الحصة التى دارت حولها قضية « بلاك » .

لم أحاول أن أثبت صحة برامج أفضلية المعاملة ، أو أثبت أنها شىء مرغوب فيه . فثمة قضايا تجريبية تتعلق بنتائج هذه البرامج ، لم أناقشها ، ولم تحسم بكل تأكيد . ومما يؤيد ذلك ، اننى لم أحاول أن أبحث الحجة القائلة أن العدالة قد تسمح ــ وان لم تك تتطلب ــ هذه البرامج كوسيلة للتعويض أو رد الاعتبار عن الاساءات التى حدثت فى العهد القريب ، أو فى الماضى أيضا ، أو كوسيلة لاسترداد مكاسب حصل عليها بدون وجه حق أولئك الذين ينتمون الى الزمرة السائدة . ان ما حاولت أن أفعله هو أن أبين أنه من الخطأ الاعتقاد ان برامج أفضلية المعاملة تستحق الاعتراض عليها بناء على الاعتقاد الذى تسبب فى الماضى والحاضر فى خلق ملامح التفرقة العنصرية والعرقية فى مجتمعنا وكذلك التحيز للذكور ، ضد الاناث . فالحقائق الاجتماعية التى تتمثل فى السلطة والفرصة تمثل اختلافا أساسيا . ومن الخطأ أيضا الاعتقاد ،

استنادا الى مبرر قوى ، بأن برامج أفضلية المعـــاملة غير عادلة ، أو لا تستند الى مبادىء ، ومن ثم يستصوب ويتعين أن تعتمد قضية أفضلية المعاملة على : ولا النظرة القائلة بأن مثل هذه البرامج لا تحمل أى غبن للذكور أو البيض فيما عدا المنطق الهزيل ، والذى يتمسح بأحقية الحكم ، وقد بيناه آنفا ، ـ النظرة القائلة بأنه من الغبن استمرار بقاء مجموعـة المؤسسات الموجودة فى الحاضر ، والتى يتألف منها الواقع الاجتماعى ، والتى تتسم فى الأغلب بنظراتها العنصرية ، وانحيازها اما للذكور ، أو اعتقادها فى وجود غبن يقع على النساء • وقد تستند قضية هذه البرامج أيضا على القول بأنه اذا سلمنا بما هو متبع فى الولايات المتحدة الآن ، فى ناحية توزيع السلطات والنفوذ ، فان مثل هذه البرامج يمكن أن ينظر اليها على أنها ذات قيمة « بالقوة » ، وانها وسائل فعالة ، يجوز الاعتماد عليها لتحقيق مثل اجتماعية رائعة ، وعظيمة الأهمية للمساواة والتكامل •

١٩٨٨/٧/١٠

تعقيب

لقد أرهقنى هذان المقالان الأخيران عن « المساواة وأفضلية المعاملة » فهما مكتوبان بلغة الصحافة الأمريكية ، وعلى الرغم من تخصص الكاتبين فى الفلسفة ، الا أنهما لم يتبعا عند عرضهما أى أسلوب فلسفى ، واعتمدا فى أغلب الظن على أساليب المحامين ، ولا ننسى أيضا أنهما من أصـــل أجنبى ، ولا يستبعد أن يكونا قد عهدا لآخرين بتنقيح لغتهما الانجليزية ، لأن الكثير من التراكيب اللغوية ، وبخاصة فى المقال الأخير ، تراكيب ألمانية •• والفكرة التى دار حولها النقاش بسيطـــة للغايـة وتتلخص فيما يأتى :

قامت جامعة كاليفورنيا بتخصيص أماكن خاصة ، أو استثنائيـة بمعنى أصح ، للسود لا تخضع لنظام القبول الذى يطبق على الطلبة البيض فى مدرسة الطب ومدرسة الحقوق التابعتين للجامعة ، وشكا طالب يدعى « باك » لأنه حصل على درجات علمية أعلى ، ولديه جميع المسوغات ، التى تطلبها الجامعة • ولكن الجامعة رفضت طلبه • وقارن الطالب حالته بحالة

من انطبقت عليهم برامج أفضلية المعاملة ، واستخلص من ذلك حدوث غبن دفعه الى الشكاية للمحكمة العليا بكاليفورنيا التى حكمت بأحقيته فى الالتحاق بمدرسة الطب · وانبرى « كارل كوهن » لانتقاد برنامج أفضلية المعاملة ، ورأى أنه سيساعد على زيادة الشعور بالعنصرية ، وأن الواجب يقتضى العدول عنه ، وترك المنافسة حرة بين البيض والســـود ، وبين الذكور والاناث دون تدخل بحجة الانصاف قد تؤدى الى عواقب وخيمة ، كما حدث فى حالة المواطن الأبيض « باك » ـ أما ريتشارد واسرستروم فيرى أن الانصاف والعدالة ، يقتضيان تنفيذ هـــذا البرنامج وغيره من البرامج لتحقيق العدالة والتكفير عن المظالم الماضية ، حتى يحدث تكامل صـــحيح بين العناصر المؤلفة للشعب الأمريكى ، الدائم الشكوى من عدم التجانس · ولعل هذه القضية ، ونحن بعيدون عنها تماما · تزيد من استنارتنا بالأحوال الجارية فى مناطق كثيرة من العالم ، أبرزها جنـــوب أفريقيا ·

٣ ـ مراجع مقترحة للاستزادة

مختـــارات

Beck, Robert N. Perspectives in Social Philosophy : Readings in Philosophic Sources of Social Thought. New York : Holt, 1967. This book contains generous selections from the writings of classical and contemporary political philosophers. There are sections devoted to existentialism and analytic philosophy.

Cohen, Marshall et al. (eds.). Equality and Preferential Treatment. Princeton, New Jersey : Princeton U.P. 1978. An interesting recent collection of essays on this controversial subject.

Cranston, Maurice (ed.). *Western Political Philosophers A Background Book.* New York : Capricorn, 1967. A series of concise and lucid essays by contemporary philosophers and political scientists on Plato, Aristotle, Aquinas, Machiavelli, Hobbes, Locke, Rousseau, Burke, Hegel, Marx and Mill. The beginning student, particularly, will find this book helpful.

Pennock, J. Roland and Chapman, John W. (eds.) *Equality.* Nomos IX. Yearbook of the American Society for Political and Legal philosophy. New York: Atherton 1967. A collection of essays by philosophers, political scientists, and lawyers on various aspects of egalitarianism . Other Volumes in this series are devoted to *Authority, Community, Liberty, Justice, Revolution*, and other topics of political philosophy.

Somervile, John and Santoni, Ronald E. (eds.). *Social anl Political Philosophy Readings from Plato to Gandhi.* New York : Doubleday, Anchor, 1963. Extensive selections (in some instances the unabridged work) from some of the most famous and influential writings in social and political thought by philosophers and political leaders.

مؤلفـــات كاملة

Beck, Robert A. *Handbook in Social Philosophy.* New York : Macmillan, 1979. An examination of such topics as state power and authority, political obligation, and the ideal of justice in terms of various contemporary philosophical perspectives.

Deininger, Whitaker T. *Problems in Social and Political Thought : A Philosophical introduction.* New York : Macmillan, 1965. An expository text focusing on the contributions of both classical and contemporary philosophers. Designed for the beginning student.

De Tocqueville. Alexis. *Democracy in America.* Edited and abridged by Richrad D. Heffner. New York : New American Library, a Mentor Book. 1965. Although written over a hundred years ago, this work remains one of the most perceptive studies of American democracy. With the passage of time. it seems to grow more, not less. pertinent.

Dewey, John *Freedom and Culture.* New Cork : Capricorn 1963.

———. Individualism : Old and New. New York : Capricorn. 1962.

—— . Liberalism and Social Action. New York : Capricorn, 1963.

——. *The Public and Its Problems.* Chicago : Alan Swallow. 1967. The major works on social and political philosophy by the great American philosopher of liberal democracy.

Frankel, Charles. *The Democratic Prospect.* New York : Har-

per, Harper Colophon Book, 1964. A contemporary defense of democracy by an American philosopher.

Goldman, Emma. *Red Emma Speaks : Selected Writings and Speeches by Emma Goldman.* Compiled and edited by Alix Kates Shulman, New York : Random, Vintage Books, 1972. A comprehensive collection of essays by a famous American anarchist.

Hook, Sidney. *Social Myths and Democracy.* New Preface by the author. New York : Harper, Harper Torchbooks, 1966. A vigorous, clear and critical examination of various political philosophies with particular emphasis on Marxism and democracy by a former student of John Dewey and an able defender of his philosophy.

Macpherson, Crawford B. *The Life and Times of Liberal Democracy.* New York : Oxford U.P., 1977. A brief, clear attempt to set forth the essence of liberal democracy as now conceived.

Mencken, H. L. *Minority Report* : H. L. Mencken's Notebooks. New York: Knopf, 1956. This book consists of memoranda Mencken jotted down over many years. Let these seemingly disconnected notes often witty and biting, express a coherent and fundamental criticism of the American democratic scheme of things.

Quinton ; Anthony. (ed.). *Political Philosophy.* New York : Oxford U.P., 1967. A judicious collection of recent influential writings on various issues in the area of political philosophy.

Raphael, D. D. *Problems of Political Philosophy.* London : Pall Mall, 1970. A recent clearly written introduction for the beginning student.

Rawls, John. *A Theory of Justice. Cambridge : Belknap Press* of Harvard U.P., 1971. An outstanding systematic work in social and political philosophy by an American philosopher. It already has provoked a great deal of discussion. Recommended for the more advanced student.

Reitman, Jeffrey H. *In Defense of Political Philosophy.* New *York* : Harper, Harper Torchbooks, 1972. The book vigorous-

ly argues against R. P. Wolff's *In Defense of Anarchism* (See Wolff, *In Defence of Anarchism*) and for majoritarian democracy.

Russell, Bertrand. *Power : A New Social Analysis*. New York: Barnes & Noble. Unwin Books, 1962.

Road to Freedom : Socialism, Anarchism and Syndicalism New York : Parnes è Nobel, Nnwin Books 1965. The first book Power is Russell's attempt at a comprehensive statement of his social and political philosophy. In the second book, Russell fully describes and discusses political doctrines, particularly the Guild Socialism Russell himself still favored in 1948 and now stimulating renewed interest because of current dissatisfaction with both capitalist democracy and Marxian communism. .

Spencer, Herbert. *The Man Versus the State*. Edited by Donald Macrae, Baltimore : Penguin, 1969, As the result of the growing conviction that governments have become too strong for the preservation of men's liberties, the writings of the great nineteenth-century champion of *laissez faire* individualism against an inherently oppressive state have sparked renewed interest.

Taylor, Richard. *Freedom, Anarchy, and the Law : An introduction to political Philosophy*. Englewood Cliffs, N.J. : Prentice-Hall, 1973. Beginning and advanced students will find this lucid work stimulating and a pleasure to read.

Wolff, Robert Paul. *In Defense of Anarchism*. New York : Harper Torchbooks, 1970. This iconoclastic work by an American philosopher has provoked much discussion. (See Reitman, In Defense of Political Philosophy.)

Young, Michael. *The Rise of Meritocracy*, 1870-2033. Baltimore, Penguin, 1968. The famous, stimulating, imaginative vision of a kind of "meritocracy" where I.Q. plus effort equal merit that our present society could easily become.

Dictionary of the History of Ideas: Studies of Selected Pivotal Ideas. Philip P. Wiener, editor-in-chief. New York : Scribners, 1973. Substantial and clearly written essays emphasizing

the historical development of topics discussed in this part. Designed to inform the nonspecialist, each essay concludes with a selected bibliography.

Encyclopedia of Philosophy. Paul Edwards. editor-in-chief New York : Macmillan, 1967. The beginning student will find many worthwhile articles on the subjects treated in this part and excellent bibliographies.

Philosophy and Public Affairs. Princeton, N.J. : Princeton U.P. A quarterly journal. Philosophers and philosophically inclined writers from various disciplines bring their methods to bear on problems that concern everyone interested in social and political issues.

● رابعًا:

العقـــل والجســـم

مقدمة الفصل

في رواية كاريل تشـــابيك المعروفة (Rossum's R.U.R. Universal Robots) تعلم العلماء كيف يصنعون الربوت(*) القادر على أداء جميع الأفعال اليدوية والذهنية ، التى يقوم بها الانسان . ويرى أبناء البشر أن الروبوت يفتقر الى الروح ، لكونه لا يزيد عن آلة حصيلة عملية فزيائية معقدة ، ولأن الروبوت يستخدم على أى نحو يخدم حاجات الانسان . ويبدو الروبوت الذى تم صنعه باتباع طريقة جديدة فى تنظيم المادة كثير الشبه بالانسان وأفعاله ، ما عدا افتقاره الى المشاعر والانفعالات ، التى استبعدت عن قصد لزيادة انتاجيته . ولما كانت لاحساســية الروبوت للألم قد أدت فى كثير من الأحيان الى وقوع حوادث ، لذا قام أحد العلماء فى مصنع روسوم Rossum للروبوت باجراء تجارب . وســاعد تعديل مواصفاته على تزويده بمشاعر بشرية ،ونجحت تجاربه . غير أن الروبوت الحساس المستحدث قد اعتبر نفسه ندا للانسان ، وشعر باحباط من جراء وضـــاعة منزلته ، ومن ثم فانه تمــرد وحطم الانسان .

وتثير هذه الرواية مسألة : هل هناك أى اختلاف بين هــذا الروبوت - بالرغم من أنه لا يزيــد عن آلة معقدة - والبشر الذين اخترعوه ، وربما كان للاجابات عن هذا السؤال آثار هامة على نظرة الانسان لنفسه ، وموضعه فى العالم . فثمة نظرة دينيــة تقليدية عن الانسان ميزته بأهمية خاصة مؤداها أن الانسان بفضل امتلاكه روحا لامادية فانه وحده الذى صنع فى صورة مطابقة لصورة الله ، بيد أنه اذا تيسر اثبات أن الانسان لا يزيد عن آلة معقدة ، آنئذ سيتعين التنازل عن هذه النظرة ، التى خصت الانسان بهذه المكانة

(*) رأينا استبقاء كلمة روبوت ، ولم نر داعيا لترجمتها لكلمة « انسان آلى » . ولعل ما سيجىء فى هذا السياق يفسر ضرورة الاحتفاظ بالكلمة الأجنبية .

الخالصة . وأعتقد أن المذهب الذى يرى أن الانسان روحانى وفزيائى معا له أهمية حاسمة ، بناء على أسباب أخرى . فلقد استند الزعم بأن الانسان يتمتع بالخلود على القول بامتلاكه المفترض لروح قادرة على الاستمرار فى البقاء بعد فناء الجسد . وذكر بعض الفلاسفة أنه لما كان العالم الفزيائى خاضعا لسيطرة قوانين لا تتغير ، لذا فليس بالاستطاعة الأخذ بمذهب الارادة الحرة ، الا اذا أعتقد أن للانسان جانبا روحانيا . ولن يكون الانسان مسئولا أخلاقيا الا اذا توافرت له آراء حرة . وعلى ضوء هذه المتضمنات ، فان الفيلسوف يعنى بتقرير هل يعتبر الانسان بالفعل أكثر من مجرد شىء فزيائى معقد .

***

وتسمى مشكلة طبيعة الانسان ، وهل يعد فزيائيا بحتا ، أم لا مشكلة العلاقة بين العقل والجسم . ومن النظرات البارزة الى الواقع « المذهب المادى » ، الذى يرى أن الانسان برمته ـ مثل أى شىء آخر فى الكون ـ كيان فزيائى بحت ، وينظر الى الكون على أنه مؤلف من جسيمات مادية ، تتحرك فى الخلاء أو المكان ، كما ينظر الى أى زعم بأن الانسان له روح أو عقل على أنه خرافة ، وتنسب حقيقة امكان قيام الانسان بأفعال مثل الكلام أو الاستدلال الى مخه وجهازه العصبى الشديد الارتقاء . ويحدث الموت عندما يتوقف الجسم عن أداء وظائفه . ولا يعد أى استمرار للحياة بعد الموت خلودا للشخص فى حالة مجردة من الجسم ، مثلما تدعو مختلف الأديان . فأقصى ما يستمر فى البقاء هو الجزيئات التى يتألف منها الجسم . ويتعين عدم الخلط بين هذه المادية الميتافيزيقية والاستعمال الدارج لكلمة « مادية » ، التى تنسب الى أولئك الذين لا يتمتعون بأية أهداف أخلاقية عالية ، ويعنون أساسا بالحصول على المنافع والمتع الدنيوية .

***

ويتعارض وأولئك الماديين من يعتقدون أن الانسان أكثر من جسم مادى . فله أيضا عقل وروح . ولقد ظهرت لجملة أسباب الفكرة القائلة بأن الانسان شىء أكثر من مجرد بدن . ومن الأسباب المحتملة أن الانسان البدائى يعجز عن فهم ما يقال عن تمتع بعض الأجسام بالحياة ، أو ما يقال عن موت بعض الأجسام ، بينما تتوافر لها ظاهريا نفس الأعضاء الفزيائية ، ونسبوا الى الجسم الحى روحا

خفية أو نفسا خفية ، لا وجود لها فى حالة الجسم المائت • وغدت فكرة الروح التى تبارح الجسم ــ ظاهريا ــ عنـــد الوفاة أساس الاعتقاد فى الخلود ، يعنى استمرار وجود الروح بعد الوفاة •

***

ويساوى فلاسفة هذه الأيام فى تأملاتهم بين الروح والعقل ، ويزعمون أنه جزء منها ، يفـــكر ، وله تخييلات images واحساسات • وارتكانا الى أن مختلف التخييـــلات والأفكار التى لدينـا ليس لها حجم أو وزن أو موضـع ، فانها لا يمكن أن تكون مادية • وبناء على ذلك ، رأى هؤلاء الفلاسفة نسبتها الى عقـــل لامادى • وهذه حجة مفحمة • وفضلا عن ذلك ، فكثيرا ما يزعم أن العقل ضرورى لتفسـير السلوك الهادف • والسلوك الهـادف هو الذى يحدده ادراك الانسان ورغبته فى تحقيق هدف فى المستقبل ، على نقيض السلوك الذى يتحدد بفعل علل فزيائية مسبقة • ويسمى الفلاسفة الذين يعتقدون أن الانسان لديه جسم فزيائى ، وعقـــل لافزيائى باتباع « المذهب الثنائى » •

★★★

وأكثر الصور اتباعا بوجه عام من المذهب الثنائى ــ ولعلها أقرب صورة لتصورنا المعتاد للانســـــان ــ هى مذهب التفـاعلية interactionism ويرى أنصار هذا المذهب أن العقل والجسم قادران على تبادل التأثير العلى • وعلى هذا النحو ، فان الحادثات فى العقل تحـــدث سلوكا جسمانيا • وبمقدور الحادثات الجسمانية أن تحدث أحداثا ذهنية • ومن أمثلة الأحداث الذهنية التى تحـدث حادثات جسمانية ما يفعله من يتذكر احدى صديقاته عندما يلتقط سماعة التليفون ، ويسعى لمكالمتها • ومن أمثلة الحادثة الفزيائيـة التى تحدث حادثة ذهنية الحالة التى تترتب على ورم أحد الأصابع فتحدث احساسا بالوجع •

★★★

واعتقد كثير من الفلاسفة أن نظرة أصحاب المذهب التفاعلى غير مقبولة • ونشأت الصعوبة الرئيسية من عدم وجود تفسير مقنع لكيف يتسنى لأية حادثة ذهنية ــ مثل الفكرة ــ أن تحـدث سلوكا فزيائيا ، فلقد اعتدنا أن نتصور مبدأ العليـــة فى صـورة حادثة فزيائية أخرى ، ومن الأمثلة البسيطة لذلك كرة البليـــاردو التى تتحرك وتصدم كرة أخرى فتحركها • ولكن كيف تستطيع أية فكرة

تحريك بعض أجزاء من جسم شخص ما ؟ • وأين يحدث الفعل فى الجسم فيدفعه للحركة ؟ • ربما مال المرء الى القول بأن العقل يؤثر فى جزء ما من المخ ، ولكن الفسيولوجيين لم يعثروا على أى موضع يظن أن المخ تنبه فيه بتأثير أية علة خفية • وبالمثـــل كيف يمكن للجسم أن يحـدث احساسات وتخييـــلات فى العقل تتصـــف باللافزيائيتها ؟ •

***

وعندما واجه مثل هذه الصعوبات بعض الفلاســـفة ، الذين يعتقدون أن الظواهر الذهنية لا يمكن ردها الى ظواهر فزيائية ، فانهم تنازلوا عن المذهب التفاعلى ، وآثروا عليه مذهب الظاهريات الثانوية epiphenomenalism • ويرى هذا المذهب أن بمقدور الأحداث الفزيائية أن تحدث أحداثا ذهنية ، فبدلا من حدوث تفاعل فان لدينا علاقة علية من جانب واحد : يعنى من الجسم الى العقل • وصادفت هذه النظرة أيضا انتقادا مماثلا • اذ تتماثل هذه النظرة هى ومذهب التفاعلية فى الحاجة الى تفسير كيف تســـتطيع حادثة فزيائية فى الجسم أن تحدث حادثة يقع موضعها فى العقل • وثمة مشكلة أخرى جاءت من المفارقات التى تنبثق من هذه النظرية • ومن أمثلة هذه النتائج أن جميع الأفكار والاستدلالات ، ليس لها دور على الاطلاق فى تحديد سلوكنا ، والحق أنه من الصعب أن نتصور هل كان العالم سيتصف بصفاته التى نراها اليوم ، لو أن أفكارنا البشرية عن الدين والديموقراطية والأخلاق لم تظهر الى الوجود •

***

ومن النظريات البارعة التى تؤكد وجود عقول ، ولكنها تتجنب الخوض فى مختلف النظريات الثنائية ، النظرية المثالية Idealism ويؤيد المثاليون القول بوجود عقول ، بالاضافة الى وجود مدركات ومشاعر ، ولكنهم ينكرون وجود أشياء مادية منفصلة عن العقل • فالحق أن هذه الأشياء التى اعتدنا أن نعتبرها موجودة فى العـــالم الخارجى لا تزيد عن كونها علامات ظاهرية تتراءى للعقول • وعلى الرغم من أن النظرة المثالية التى ترى أن هذا العالم يتألف من عقول مجردة من الجسمانية ومحتوياتها قد تبدو غريبة جدا ، الا أنه من الواجب عدم استبعادها بغير تقدير دقيق لها • ولعل أكثر الصعوبات جدية التى تواجه المثالى هى احتياجه الى تقديم تفسير لعلة مدركاتنا ،

فاذا كان لا وجود لأى شيء خارج عقولنا يحدث مدركاتنا لأشياء مثل المناضد والكراسى ، فلماذا اذن ندركها على الاطلاق ؟ •

★★★

وفى المجموعة الأولى من القراءات التى ستجيء فيما بعد ثمة دفاع عن العديد من هذه المواقف • اذ يدافع ريتشارد تيلور فى مقال بعنوان How to bury the Mind-Body Problem عن المذهب المادى ، ويرى أن السبب الأساسى للاعتقاد فى وجود العقول يرجع الى زعم باطل بأن المادة قادرة على التفكير، وأنه من المتعذر قيام الأجسام البحتة بعمليات التفكير والاختيار والاستدلال • ويشحن دعواه فى تأييد المادية ببيان أوجه الضعف الكامنة فى الحجج الأساسية التى استعملت فى تأييد القول بوجود عقول • ويرى « جود » فى معرض دفاعه عن موقف المذهب التفاعلى أن الماديين ليسوا قادرين على تفسير السلوك الهادف تفسيرا وافيا ، أو وسيلة استخلاص المعانى من المدركات • ويتصور جود العقل قوة فعالة خلاقة تضطلع بمهـــام أفعال لا يمكن أن تفسر بنسبتها الى وظيفة المخ فحسب • ويعتقد جود متعارضا والنظرية المادية اننا اذا عرفنا معرفة كاملة ما يجرى فى مخ أى شخص ، فاننا لن ننجح فى معرفة فيما يفكر ، لأن ثمة أفكارا مختلفة يمكن أن تنجم فى نفس الحالة التى عليهـــا المخ • ويرفض لوقا A. A. Luce فى مقال بعنوان Sense without Matter المذهب المادى ، وينكر معرفتنا على أى وجه للمادة ، أو التسليم بوجودها • على أن الاحساسات التى لدينا لا يمكن أن توجد وحدها ، ومن ثم فان علينا أن نسلم بوجود عقول •

★★★

وعلى الرغم من أن اختراع الروبوت قد احتل منذ أمد بعيد مكانا فى موضوعات القصص والروايات العلمية مثل رواية R.U.R. الا أنه أضحى موضوعا ذا أهمية متزايدة عند الفلاســـفة والعلماء كنتيجة للتقدم الحديث العهد للكومبيوتر (*) • ويرى بعض أصحاب النظريات أن الكومبيوتر سيوالى تقدمه ، الى حد نهوضه فى نهاية الأمر بجميع العمليات العقلانية عند الكائنات البشرية • واعتمادا على تقدم الروبوت المزود بأجهزة كومبيوتورية ، سيكون بمقدورنا الحصول على آلات قادرة على فعل كل شيء باستطاعة الانسان القيام

(★) لا أميل أيضا الى ترجمة شاعت حديثا لهذه الكلمة : « الحسوب » •

به . ويقال ان هذه الأداة ستكون ـ فى الواقع كائنا بشريا ! .
اذ تبين أن الكائن البشرى لا يزيد عن آلة . ولكن هل من الميسور اختراع آلة قادرة على أداء جميع الأفعال الفذة التى يقوم بها الكائن البشرى ؟ واذا أمكن ابتكار هذه الآلة ، هل ستستمر مفتقرة الى بعض أشياء من تلك التى فى جعبة البشر ؟ فاذا تيسر لنا انتاج آلة قادرة على أداء كل شىء بوسع الانسان عمله ، فهل نكون ـ فى هـذه الحالة ـ قد أثبتنا أن البشر لا يزيدون ـ فى الواقع عن كونهم أشياء فزيائية ؟ .

★ ★ ★

ويعتقد كارل ساجان فى مقال بعنوان In Praise of Robots بأن الآلات ليست قادرة فقط على التفكير ، ولكنها ستغدو قريبا قادرة على النهوض بمهام شاقة وخطيرة يقوم بها الانسان حاليا . ويعتقد ساجان أن من واجبنا أن نقبل الآلات المفكرة ، وأن نتعلم كيف نتعاون معها لو أردنا أن نصنع مجتمعا أفضل ، وأكثر انتاجا فى المستقبل . ويذكر John T. Troll فى معرض كلامه عن هل تعد الآلات قادرة على التفكير بأنه من المتعذر ارتقاءها الى حد قيامها بأداء جميع العمليات الذهنية التى تتميز بها الكائنات البشرية. ويقول ان نوع التفكير الذى يقوم به البشر عندما يدركون العلاقات بين الأحداث ، أو يأتون بتعميمات ليس من الأشـياء التى يمكن برمجتها فى الكومبيوتر . فاذا كان هذا النوع من التفكير فى غير مقدور الكومبيوتر النهوض به ، فمن باب أولى ، لن يكون بوسع الروبوت الاضطلاع بمهمة الفكر الخلاق ، أو الحـكم على مختلف التصورات ، وتحديد أيها يتسم بمعقوليته .

★ ★ ★

ومن القضايا الكبرى التى تنبثق من النقاش حول العـلاقة بين العقل والجسم قضية الخلود ، اذ يتطلب استمرار البقاء بعـد الموت الفزيائى أن يتوافر للانسان جزء لا فزيائى قادر على الاستمرار فى البقاء بغير جسم . على أن قبول المذهب الثنائى ليس في ذاته كافيا لتأييد وجود الخلود ، فلا يستبعد يقينا أن تتوقف وظيفة المخ عندما يتوقف الجسم عن اداء مهامه . وعلى هذا فلكى تتوافر أسس عقلانية للاعتقاد فى الخلود ، لا يكفى المرء أن يثبت أن للانسان عقـلا أو روحا . انما عليه أيضا أن يثبت وجود أدلة تؤيد حدوث مثل هـذا الوجود المستمر .

وفى مقال بعنوان « الخلود ـ افتراض سـخيف » ، يذكر البارون دا هولباخ أنه بفرض امكان الاعتراف بالزعم المثير للشك بأن للبشر أرواحا ، فانه لن يكون هناك مبرر للاعتقاد بأن الروح خالدة • ومن بين الاعتراضات التى توجه للاعتقاد فى وجـود روح خالدة أن البشر فى حاجة الى حواس ومخ لكى تتوافر لهم الأفكار والمشاعر • ولكن الموت الذى يحطم أجسـامنا قد يزيل الأساس الفزيائى الضرورى للحياة الذهنية • وفضـلا عن ذلك ، فيعتقد هولباخ أن على البشر أن لا يحاولوا اخفـاء فنائيتهم عن أنفسهم باختراع حكايات تتنافى والطبيعة بادعاء وجود أرواح فى عالم آخر • ويرى دوكاس أن الحجج المستعملة لبيان استحالة الحياة بعـد الموت خاطئة • ويطرح دوكاس فى مقابل الزعم بأن مالدينا من أدلة يثبت أن المخ يتوقف عن اداء وظيفته عند الموت دليـلا محتملا يؤيد عكس ذلك بناء على انتقادات الظواهر النفسـية • ويحرص دوكاس على الاشارة الى أنه حتى اذا صح هذا الدليل ، فانه قد لا يبين حدوث استمرار فى البقاء • ويرى أن الرغبة فى اثبات استحالة الخـلود نابعة من افتراض صحة المذهب المادى • وعلى أى حال ، فان رفض هذا الافتراض سيساعد على فتح الطريق أمام الايمان بالخلود •

● المذهب المادى

كيف تدفن مشكلة العلاقة بين العقل والجسم

بقلم : ريتشارد تيلور *

[ريتشارد تيلور (١٩١٩ ـ) أستاذ الفلسفة فى جامعة روشستر • وقد ألف كتبـا وكتب مقـالات حظيت بالكثير من الاستحسان فى مختلف المشكلات النفسية]

مشكلة العلاقة بين العقل والجسـم فى جميع تنوعاتها عبارة عن اختلاق فلسفى مصطنع لايستند الى أية معطيات صحيحة على الاطلاق ،

---

* نقلا عن مجلة : American Philosophical Quarterly الجزء السادس (ابريل ١٩٦٩) • بقلم Richard Taylor

ولقد انبعثت من افتراضات سابقة معينة عن المادة والطبيعة البشرية عرفتها الفلسفة منذ عهد فيثاغورس . انها افتراضات سابقة قد استمرت فى الصمود الى حد أنها تركت دون فحص . وما ساعد على عدم زيادة التشكك فيها هو مجرد كونها مألوفة .

فهناك مشكلات فى علم النفس ، ومشكلات فى الصحة العقلية ، تثير الضيق والحنق . ولكن ليس هناك مشكلات خاصة بالعلاقة بين العقل والجسم ، وهناك مشكلات « للسيكلوجية الفلسفية » ، كما تسمى أحيانا الآن ، من بينها مشكلات الادراك الحسى ، والاحساس ، وتحليل الاستبصارات والسلوك الهادف .. وهكذا . ولكن ليس هناك مشكلات خاصة بالعلاقة بين العقل والجسم .

ويرجع سبب عدم وجود مشكلات تخص العلاقة بين العقل والجسم الى مبررات واضحة كالشمس . فأولا ــ لما كان لا وجود لأشياء مثل العقول ، لذلك ليس هناك حالات وقدرات وقوى ذهنية مألوفة اذا توخينا الدقة فى القول ، وكل ما هناك هو وجود حالات وقدرات وقوى مألوفة معينة ، جرت العادة على وصفها بانها ذهنية ، وان كانت هذه العادة مضللة . وقد سميت كذلك خضوعا لافتراضات سابقة فلسفية فى المقام الأول . وفى المقام الثانى ، كانعكاس لافتقارنا الى فهمها ، أى لجهلنا .

فليس الرجال والنساء مرادفين لكلمة عقول ، كما أنهم ليس « لديهم » مثل هذه العقول . ولا يقتصر الأمر على عدم « توافر » عقول لهم ، مثلما تتوافر لهم الأذرع والأرجل ، ولكنهم لا يملكون عقولا ــ على الاطلاق ــ بالمعنى الصحيح للكلمة . وكما لم يتوافر لأى رجل أو امرأة ، أى عقل ، كذلك الحال بالنسبة للقطط والضفادع والخضروات ، وباقى المخلوقات الحية ، فكلها بلا عقول ، وان كان فلاسفة فطاحل من أمثال أرسطو قد ألفوا أنفسهم قد دفعوا للقول بأن جميع الأشياء الحية ــ بما فى ذلك الخضروات يتعين أن يكون لها روح (وبغير ذلك هل سيكون بمقدورها أن تكون أشياء حية ؟) . وأيضا اعتقد آخرون يتمتعون بنفس القدر من التبجيل والاحترام مثل ديكارت بأن البشر لابد أن يكون لهم عقول . وبغير ذلك ، كيف يتسنى لهم الاضطلاع بدور التفكير ؟
واليوم عندما يتحدث الفلاسفة عن مشكلات العلاقة بين العقل والجسم ويعرضون مزاعم مختلفة عن العلاقات الممكنة بين الحالات والأحداث « الذهنية » و « الفزيائية » ، فانهم ــ بطبيعة الحال ــ يتحدثون عن البشر ، ولكن بوسعهم أيضا قول الشيء نفسه عن الضفادع ، لأن الافتراضات السابقة التى ساعدت على ظهور مثل هذه النظريات تنطبق على الحيوانات الأخرى مثل انطباقها على البشر .

١ ـ الحجج الفلسفية عن وجود أو عدم وجود الأشياء :

من المتعذر وجود أية حجة فلسفية تثبت وجود الشيء أو عدم وجوده اعتمادا على وصفه أو تعريفه تعريفا يتسم بتوافقه الذاتي ، وهكذا فلا يمكن الاعتراف بالحجة الفلسفية التي ذكرها بعض فلاسفة القرون الوسطى عن وجود احدى العظام في أجسام البشر ، لاتتعرض للفناء مثل باقي الجسم ، وبالمقدور فقط القول أن مثل هذه العظمة لم توجد قط (وهذه ليست حجة فلسفية) ، ثم يبين زيف هذا الافتراض السابق ، أو عدم ارتكانه على أي أساس مما أدى الى ظهور مثل هذا الاعتقاد (وفي المثل السابق ذكره يكون هذا الافتراض السابق متعلقـــا بالاحتياجات التي يتطلبها بعث الجسم) وبالمثل فليست هنـــاك حجة فلسفية تثبت أن للبشر أرواحا أو عقولا ، أو تثبت عكس ذلك ، أي أنه ليست لديهم أرواح أو عقول ، أو أنه ليست هنـــاك حالات أو أحداث متقومة بذاتهـــا Sui generis ، يفترض أنها متوافقة توافقا ذاتيـــا • وبمقدورنا فقط أن نلاحظ أن مثل هذه الأشياء لم توجد قط عند أي انسان حيـــا أو ميتا • وبمقدورنا بعد ذلك أن نتبين التعنت أو الزيف في مثل هذا الافتراض السابق ، الذي أدى الى ظهور هذه المعتقدات ، وفيما يتعلق بمسألة البحث عن مثل هذه الأشياء ، فقد زعم كثير من الفلاســفة أنهم عثروا على هذه الأدلة داخل نفوسهم ، وزعموا أنها أشــياء خصوصية جوانية مختبئة في الأعماق لايدركها الا من يستحوذون عليها ، غــير أن ما عثروا عليه بالفعل كان مجرد الوقائع الدارجة عن أنفسهم والمعروفه تماما لأي انسان يعرف أي شيء على الاطلاق • غير أنه فيما يتعلق بهذه المسألة ، فاننا سنرجيء الكلام عنها •

٢ ـ الافتراض السابق الأعظم عن مشكلة العلاقة بين العقل والجسم :

ما يتوجب أن أفعله الآن هــو النظر في الافتراض الســابق الذي تسبب في ظهــور المشــكلة المســماة « العــلاقة بين العقل والجسم » ، وأن أبين أنها لاتتضمن أي شيء يتعين علينـــا قبوله • وانما الأمر على النقيض ، فان لدينا دليلا قويا على زيف هذه المشكلة •

وبالاستطاعة التعبير على أفضل وجه عن هذا الافتراض الســابق بالقول : ان المادة غير قادرة على التفكير • وهذه هي الصيغة التي يرددها الديكارتيون في هذا الشأن • غير أن الفلاسفة قد أصبحوا حديثا أقدر على الافصــاح عنها على نحو أفضل نوعا ، وهكذا فاننـــا نميل الى أن يقال

لنا ان التفكير والاختيار والتبصر والاســـتدلال والادراك الحسى ، بل والشعور ، أى جميع هذه الأشياء ليست تصورات فزيائية أو كيمائية ، ومن ثم فلا يصح نسبة هذه المصطلحات الى الجسم ، فلما كان الناس يفكرون ويختارون ويتبصرون ويستدلون ويدركون حسيا ويشعرون ، فانهم لم يفعلوا مثل هذه الأشياء بفضل أجسامهم فحسب ، أو لأنهـم « مجرد أجسام » • وعوضا عن ذلك ، فان علينا أن ننظر اليهم على أنهم عقول أو أرواح ، أو كما يقال الآن على نحو أكثر شـــيوعا : « على أنهم نفوس أو أشـــخاص » • وبذلك تـكون تعابير مثل « قائم بالتفكير » أو « قائـم بالاختيـــار » أو « قائم بالادراك الحسى » •• الخ ، ليست أوصافا فزيائية . ولكنها أوصاف شخصية • فالانسان قد يكون بمعنى واضح ما شيئا فزيائيا ، له ذراعان وقدمان ، وهكذا • أما الشخص ، فليس مجرد هذا الشيء المرئى أو المحسوس ، اذ تتميز النفس أو الشخص بما هو أكثر من ذلك ، لأن النفس أو الشخص (هى أو هو) التى أو الذى يقوم بالتفكير والاختيار والتبصر والشعور ، وهكذا ، وليس جســـمه أو جزءا من هذا الجسم •

والى جانب ذلك ، وهذه فى الحق مجرد وسيلة أخرى للتعبير عن نفس الافتراض السابق ، فاننـــا على استعداد لأن نعـرف أن الأفكار والاختيارات والأسباب والمشاعر •• الخ ليست أشياء فزيائيـــة ، واذا تساءلنا عن مدى ضخامة أية فكرة أو هل يمكن اذابتها فى الكحول •• وهكذا كان كلامنا لغوا •• غير أن هذه الأشياء موجودة ، وبوسع أى انسان أن يعيها « داخل نفسه » • بناء على ذلك ، فان هذه النفس التى يحدث فى كوامنها مثل هذه الأشياء يتعين أن تكون شـيئا ما أكثر من كونها جسما • فلربما كانت جملة هذه الأشياء اللافزيائية (الذهنية) ، ولكنها على أية حال ستكون ذهنية فى طبيعتها ، وهكذا تـكون النفس أو الشخص شيئا وجسمه شيئا آخر •

كما أنه فى الحالات التى يتلجلج المرء فيهـــا عنـد تذكر الأفكار والمشاعر وما أشبه من أشياء ، فعلى أقل تقدير (كمـــا يقـــال) لا أحد ينكر أنها حادثات أو حالات • ولكنها ليست أحداثا أو حالات كتلك التى تحدث أو التى نحصل عليها فى المعامل الكيمائية أو الفزيائية ، والتى قد نصادف وجودها أحيانا فى المعامل • فليس بمقدور أحد على الاطـلاق أن يتمثل ماقد يحدث فى أنبوبة اختبار أو فى أنبوبة الكترونية على أنه تبخر لفكرة أو شعور ، اذ لا تحدث مثل هذه الأشياء ، وحقا انها لا يمكن أن تحدث فى أنابيب الاختبار أو الأنابيب الالكترونية ، لأنها ليست من

نوع الأحداث التى تترتب عليها تغيرات مادية ٠ انها نوع من الأحداث « الذهنية » ٠ ولما كانت هذه الأشياء تحدث ـ كما لا يخفى ـ عند الناس ، لذا يصح القول بأن الأشياء التى تحدث عند الناس لا فزيائية ، أى ذهنية فى طبيعتها ، وهكذا ٠

٣ ـ النفوس أو « الأشخاص » كعقول أو أجسام

كلمة « نفس » وجمعها « نفوس » من المصطلحات الشائعة فى المعاجم الفلسفية المعاصرة ، ولاتظهر هذه الكلمات قط خارج الفلسفة الا باعتبارها مقاطع فى نهاية الكلمات أو ضمائر شخصية ٠ أما فى المقامات الفلسفية ، فانها تؤخذ على أنها تدل على أشياء غير عادية ٠ والحق أن النفوس من أغرب سكان « الطبيعة » الذين يمكن تخيلهم ، وباستثناء مايحدث من وصف لها فى الفلسفة ، فانها لاتقبل حتى أن تتخيل فى المقام الأول ، باعتبارها أشياء غير فزيائية ٠ فليس بمقدورك أن توخز نفسا بعصا ٠ وجل ما بوسعك أن تفعله هو أن توخز الجسم الذى يضم هذه النفس باعتباره شيئا فزيائيا ، أى شيئا يحتمل أن يبحث عن طريق الفزياء والكيمياء ، وهذا الشىء ليس هو الشىء الذى يفكر ويستدل ويتبصر وهكذا ، ولكنها النفس هى التى تقوم بأشياء من هذا القبيل ٠

وفى الوقت نفسه ، فلا يمكن حدوث ارتياب بأن النفوس هى هى الأشخاص ٠ ويظن أن الأشخاص هم هم ما يسمى بالجمهور أو البشر ٠ وليس من شك على الاطلاق أن جميع البشر يمكن رؤيتهم ، وأنهم أشياء ملموسة ، لهم أذرع وأقدام وهكذا ٠ وبمعنى آخر انهم أشياء فزيائية ٠ ولسنا مضطرين فى المقامات التى قد يبدو من الحمق أو مما يؤدى الى التبلبل أن نقول ان الانفس (البشر) كائنات روحية (عقول) ثم يبين بمعنى ما أو آخر أن لها أجساما ٠ فلا يخفى أن البشر كائنات مرئية ، ويمكن لمسها ، أى أنها أجسام ٠ وبوسعنا أن نقول ذلك ٠ غير أننا فى الوقت نفسه ، لسنا بحاجة فى الحق ـ أو علينا أن لا نقول ـ أن البشر (مجرد) أجسام ٠ فلا ننسى أن ثمة اختلافا بين جسم الانسان ، وما يقوم بالتفكير والادراك والشعور والتبصر ٠٠ وهكذا ٠ وهذه أشياء يقوم بها البشر (الأنفس) ، وليست هذه الأشياء من فعل الأجسام ٠ كما أن هناك اختلافا بين الأوصاف الجسمانية (يزن ٩٠ كجم ـ ويسقط ـ ودافىء) والأوصاف الشخصية (يختار ـ يعتقد ـ يحب بلاده ٠٠٠ الخ) والأوصاف الأولى يمكن أن تنسب الى جسم الانسان ،

مثل أى جسم آخر ، غير أنه اذا ذكرت الأوصاف الأخيرة عن أى جسم صرف ، أو أية أجسام بشرية أخرى ، فانهـا ستبدو بلا معنى ٠ انها أوصاف تخص الأشخاص ٠ بناء على ذلك ، فبالرغم من أن الأنفس عبارة عن أشخاص ، والأشخاص عبارة عن بشر ، والبشر يمكن أن يروا ، وهم بمثابة كائنات قابلة للمس ، فان علينا أن لا نعتقد أنهم لا يزيدون عن كونهم كائنات فزيائية ٠ أنهم أجسام فزيائية ، لها عقول ، أو كما يفضل بعض القول : أنهم عقول لها أجسام فزيائية ٠ أو كما يستحسن أغلب من يكتبون فى هذا الموضــوع القول : انهـم يجمعون على نحـو ما بين الصفتين ٠

وهكذا يمكن التفرقة بين ما هو ذهني وما هو مجرد « شيء فزيائى »٠ وبذلك تبزغ مشكلة العلاقة بين العقل والجسم على الفور ، وكيفيــة الاتصال بينهما ؟ وما هى العلاقة بين عقول البشر وأجسامهم ؟ أو بين الحادثات الذهنية والفزيائية ؟ ، أو بين الأوصاف الشخصية والأوصاف الفزيائية ؟ ٠ وبمقدور من يثير هذه الأسئلة ــ والحق انها جميعا لا تزيد عن كونها سؤالا واحدا ــ أن يدرك على الفور صعوبة الاجابة عليهـــا ٠ وهذا يعنى أن هذه المسألة قادرة على اغــذاء قــدر كبير من التفلسف ٠ والحق أن هــذه المسألة قد شغلت الفلاسفة فى قارات متفرقة مئـات السنوات ، وما زالت حتى الآن تستنفد الكثير من جهد المشتغلين بالفلسفة والأقسام الفلسفية ، ومن هم فى رعايتها ٠ وقد يبدو من الغرور الاقدام على حسم جميع هذه القضايا ، ولكن هذا هو ما أنوى القيام به الآن ٠

٤ ــ الذهنية والمادية

تأمل الفكرتين الآتيتين : ــ

أولا : ليس الشخص شيئا ما ، يملك عقلا ، ويستعمله أو يضمه ، أن الشخص ليس شيئا ما ، وعقله شيئا آخر ٠ فالشخص أو النفس ، وجسمه شيء واحد ٠ انه نفس الشيء ٠

ثانيا : ليس الشخص شيئا ما يملك ويستعمل أو يشغل جسما ٠ يعنى أن الشخص ليس شيئا ما ، وجسمه شيئا آخر ٠ فالشخص أو النفس وجسمه هما شيء واحد ٠ انه نفس الشيء ٠

وبوسعنا أن نسمى هاتين الفكرتين : « النزعة الذهنية » و « النزعة المادية » على التعاقب ، باعتبار الفكرة الأولى قد ذكرت أن البشر عقول وليسوا أجساما ٠ وقالت الثانية : انهم أجسام وليسوا عقولا ٠

وأول شيء يمكن أن يلاحظ بشأن هاتين الفكرتين اللتين قد طرحتا على نحو أقرب الى الفجاجة ، انهما على السواء باطلتان ، لأن كليهما قد أيدت ما أنكرته الأخرى • وبطبيعة الحال ، من المحتمل تكون الفكرتان زائفتين ، لأنه لا يمكن القول بوجود هوية بين الشخص وجسمه • ولا يمكن القول أيضا بوجود هوية بين الشخص وعقله (بالرغم من صعوبة تصور استعمال مصطلح آخر غير مصطلح « الشخص ») • أو قد تكون هناك هوية على نحو ما بين الشخص والشيئين الآخرين فى نفس الوقت • على أن هاتين الفكرتين البسيطتين هما رغم ذلك بداية طيبة للنقاش • وسوف أصر على القول بأن الفكرة الثانية التى تمثل المذهب المادى حقيقية باطلاق •

وقد جنح الفلاسفة الى اعتبار الفكرة الأولى ، أو أية صورة معقدة لها صحيحة ، وأن يستبعدوا الفكرة الثانية باعتبارها غير جديرة بالنظر • والحق مع هذا — ومن الصعب تصور كيف حدث تجاهل عام لذلك — فان أية حجة فلسفية مؤيدة للفكرة الأولى ضد الفكرة الثانية لا تختلف فى صلاحيتها عن الحجة الفلسفية المؤيدة للفكرة الثانية ضد الفكرة الأولى • وسأصور ذلك بعد قليل •

وفى الوقت نفسه ، فان علينا أن ننصف الحقيقة المتواضعة القائلة أن هناك اعتبارات منتزعة من المفهومية الدارجة Common Sense أو من المعرفة المشتركة للبشرية تؤيد — دون أن تبرهن — الفكرة الثانية • فمما نشترك جميعا فى معرفته قولنا : ان ثمة أشياء تماثل الأجسام البشرية ، وأن هناك رجالا ونساء فى العالم ، وأن هناك جسما ما اعتاد كل منا — وبغير أى شعور بترديه فى السخف — أن يشير اليه على أنه نفسه • فهو يرى نفسه فى المرآة ويلبس نفسه ، ويجرح نفسه •• وهكذا •• وهذا أمر معروف ، مثلما يمكن أن يعرف أى شيء • ولو اعترف أحد بالشك فى ذلك — أى اذا ارتاب أو تشكك على سبيل المثال فى وجود أشياء فزيائية فى العالم مثل الرجال والنساء ، وتشكك تبعا لذلك فى حقيقة جسمه — فى هذه الحالة ، سيتوجب النظر الى هذا الانسان على أنه جاهل تماما • فليس هناك ما هو أوضح من هذه الحقيقة • وسيوصف أى انسان بالجهل حقا اذا لم يعرف أن هناك أشياء مثل الشمس والقمر والأرض والأنهار والبحيرات • وأنا شخصيا لم أقابل انسانا بهذا القدر من الجهل — غير أن أى انسان لم يعرف حتى أن هناك رجالا ونساء فى العالم وأنه هو بالذات يعنى جسمه — من بين هؤلاء الناس ، فانه سيكون جاهلا تماما •

على أن مثل هذه المعرفة المشتركة العامة لوجود العقول أو الأرواح ،

ليس لها وجود . فلا أحد قد عثر على شيء من هذا القبيل فى أى مكان . ويعتمد الايمان بمثل هذه الأشياء ، اما على الاقتناع الدينى ، أو على حجج فلسفية ، وأحيانا لا يعتمد على أى شيء خلاف مفهوم بعض الكلمات المألوفة . ومثل هذه المعتقدات عبارة عن ظنون من السهل التشكك فيها . وهى ليست من الأشياء التى يعرفها أى أحد . ولو أنكر أحد وجود مثل هذه الأشياء - مثلما فعل كثيرون - فانه لن يكون قد كشف عن أى جهل . وكل ما فعله هو التعبير عن تشككه أو ارتيابه بافتراضات سابقة ، أو حجج معينة ، دينية أو فلسفية .

فاذا قمنا تبعا لذلك بالبحث عن نوع من الأشياء ، نعتبر أن بينها وبين الأشخاص هوية ، فان هذه الاعتبارات ستكون لصالح القول بوجود هوية بينهم وبين أشياء مسلم بأنها تلاءم احتياجات الحجج الفلسفية أو الايمان الدينى . وبطبيعة الحال ، ان هذا لا يثبت أو يبرهن أن البشر لا يزيدون عن كونهم أجساما ، ولكنه يكفى لبيان أنه لما كنا نعرف وجود أشياء مثل الأشخاص، ونعرف أشياء مثل البشر (أى الأجسام البشرية الحية) ، فان الأفضل لنا أن ننظر الى هذه الأشياء على أنها نفس الأشياء ما لم تك هناك بعض حقائق تحول بيننا وبين أن نفعل ذلك . وسأتمسك بالقول بأنه لا وجود لمثل هذه الحقائق . وكل ما هناك هو حجج فلسفية ، ليس بينها ما يثبت شيئا .

● **الحجج المؤيدة للنزعة الذهنية** - سأبحث الآن الحجج التى أعرف أنها تؤيد ما أسميته بالنزعة الذهنية . ولقد أجملتها بالفعل . والحق أن جميع الفلاسفة لا ينظرون الى هذه المشكلة الخاصة بالعلاقة بين العقل والجسم نظرة جادة ، كما أنهم لم يشتركوا فى ترديد هذه الفكرة البسيطة ، كما قمت بصياغتها . غير أن الصور الأكثر تعقدا لهذه الفكرة يمكن أن تنظر أثناء مواصلتنا للبحث ، وسيبين أن الحجج المؤيدة لا تتساوى فى عدم قطعيتها .

● **الحجة الأولى** - ثمة أوصاف معينة تنطبق بغير شك على الأشخاص ، ولكنها لا تنطبق على أجسامهم ، ومن هنا فلا يصح القول بوجود هوية بين الأشخاص وأجسامهم . فبمقدور المرء أحيانا أن يصف بحق أى شخص مثلا بأنه ذكى وعاطفى ويحب بلده ويؤمن بالله ويتبع نظريات غريبة تتعلق بفكرة الكليات ، وهكذا ، غير أنه سيبدو من الغريب بحق . بل وقد يبدو هذا الكلام هراء ، اذا قيل مثل هذا الكلام عن أى شيء من الأشياء الفزيائية ، ومن بينها الجسم البشرى . وسيحدث فى أفضل الأحوال خلط للمقولات لو تلنا مثلا أن جسم انسان معين يحب بلده .

● **والاجابة عن ذلك** ـ اذا اعتبرت الحجة المذكورة آنفا حجة حسنة للدلالة عن عدم وجود هوية بين الأشخاص والأجسام ، ستكون الحجة التالية مماثلة فى دلالتها على عدم وجود تماثل بين الأشخاص وعقولهم • فهناك بغير شك أوصاف أكيدة تنطبق على الأشخاص ، ولكنها لا تنطبق على عقولهم ، ومن هنا يكون الانسان شيء ، وعقله شيء آخر ، فبمقدورنا أن نقول عن شخص ما أحيانا أنه يمشى أو أنه قد جرى الى مكتب البريد ، وأنه أصيب بحمى ، و سقط على الأرض • غير أنه سيبدو من الغريب حقا ، ولن يكون لهذا الكلام معنى ، اذا ذكرت مثل هذه الأشياء عن عقل أى كائن ، وفى أفضل الأحوال ، سيكون ثمة خلط للمقولات ، اذا قيل على سبيل المثال ان عقل انسان ما قد جرى الى مكتب البريد •

ولقد ساقت اعتبارات من هذا القبيل كثيرا من الفلاسفة الى تأكيد أن الشخص أو النفس بمعنيهما الحقيقى ليسا عقلا ولا جسما على السواء ، ومن ثم يكون الشخص اما : (أ) شيئا آخر بالمرة ، أو قد يفضل بعض القول بأن مصطلح الشخص لابد أنه يعبر عن تصور « بدائى » • أو (ب) أن يكون الشخص عقلا وجسما معا ، بمعنى أن الشخص يجب أن تتوافر له خصائص ذهنية وفزيائية •

والبديل الأول من هذين البديلين يدل على التملص • فالأشخاص كائنات حقيقية ، ومن ثم فلابد من وجود أشياء عبارة عن أشخاص • فاذا كنا عندما نقرع انسانا ما ، لا نكون قد قرعنا شخصاً ما ، واذا كنا فى الوقت نفسه لا نشير الى شخص ما عندما نصف أحد الناس بأنه يفكر . عندئذ سيكون من المستحيل أن نتصور شيئا ما يمثل دور الشخص • وربما كانت كلمة شخص كلمة بدائية حقا • غير أن ما يستخلص من ذلك فى اعتقادى ، هو تماثل مثل هذه الحجج والحجتين اللتين أوردتهما فى صلاحيتهما وعدم صلاحيتهما •

والبديل الثانى ومؤداه • ان الأشخاص كائنات لهم خصائص ذهنية وفزيائية معا ، لا يختلف فى صلاحيته عن الزعم بأن هناك أشياء مثل الصفات الذهنية بمقدورنا أن نبدأ برهاننا بها • والحق أن هذه الصفات لا تحقق حتى هذه الصلاحية • فكما لا تزيد الخاصية الفزيائية عن كونها خاصية لشىء فزيائى كالجسم مثلا ، كذلك الخاصية الذهنية فانها لا تزيد عن كونها خاصية شىء ذهنى كالعقل مثلا • فلكى يحتسب شىء ما على أنه خاصية فزيائية لشىء ما ، يكفى ومن الضرورى أن يكون الشىء المقصود شيئا فزيائيا • وتبعا لنفس البرهان ، فلكى يحتسب شىء ما على أنه خاصية ذهنية فمن الضرورى أن تكون الخاصية من الخصائص

التى تنسب الى العقل · وأية خاصية يمكن الزعم بأنها خاصية لجسم حى ما ، أو لجسم غير حى ، تعد خاصية فزيائية · وبذلك يكون القول بأن جسما ما له خاصية غير فزيائية محض تناقض · والبديل الثانى ، ومؤداه أنه لما كان الأشخاص يتمتعون بخصائص فزيائية وذهنية معا ، فان هذا يعنى أن الشخص سيكون شيئين مختلفين فى نفس الوقت : جسم له خصائص فزيائية ، وعقل له خصائص ذهنية · ولا يفترض أن تكون هذه الحالة شيئين بنفس المعنى الذى نقصده عندما نصف الأسرة مثلا بأنها كثرة من الكائنات تتألف من زوج وزوجة ، وربما طفل أو أكثر · وانما يكون المقصود نوعين من الكائنات المتباينة تماما ، ليس بينهما ـ كما ذكر ديكارت ـ أى شىء مشترك · ولما كان هذا لا يعد حلا للتناقض بين ما سميته بالنزعة الذهنية والنزعة المادية ، فانه سيكون مجرد اعادة صياغة لهذه القضية ليس الا · اذ بوسعنا الآن أن نتساءل بكل تأكيد أى هذين الطرفين هو الشخص أو النفس الحقة ؟ : الجسم الذى له عقل ، أم العقل الذى له جسم ؟ · وبذلك نعود الى حيث بدأنا ·

الحجة الثانية ـ تعتمد هذه الحجة على الاشارة الى الأشياء البارزة نوعا ، التى بمقدور الشخص أن يفعلها ، ولكن يزعم أنها ليست شيئا فزيائيا ، أيا كانت درجة تعقيدها · وبطبيعة الحال ، ما يتبع ذلك هو أن لا يعتبر الشخص شيئا فزيائيا ، وأن لا تكون هناك هوية بينه وبين جسمه · فالشخص مثلا قادر على الاستدلال والتبصر فى الغايات والوسائل والتخطيط للمستقبل والتأمل واستخلاص بعض الأفكار من الأدلة ·· وهكذا · وليس هناك شىء فزيائى يفعل مثل هذه الأشياء · وحتى الآلات المعقدة ، فانها فى أفضل الأحوال غير قادرة على أكثر من استثارة هذه الأفعال · والحق اننا اذا قلنا أن جسم الانسان كان يتأمل نتائج الانتخابات مثلا ، فان كلامنا سيبدو هراء ، وأن كان مثل هذا القول ، لن يظهر بمظهر سخيف فى حالة بعض الأشخاص ! وبناء على ذلك يكون الشخص شيئا ، وجسمه شيئا آخر · ولا يمكن أن يوصف بالشخص الا اذا توافرت له تصورات عقلية خاصة ·

الاجابة ـ لا تختلف هذه الحجة كثيرا عن الحجة الأولى · وكل ما فعلته هو أنها استعاضت عن كلمة « أفعال » بكلمة « خاصيات » وأعادت تسميتها بالخاصيات ، وأعادت تسميتها « بالذهنية » · ولن تختلف الاجابات على هذه الحجة الثانية عن الاجابة على الحجة الأولى ، يعنى أنه لما كان الأشخاص كثيرا ما يفعلون أشياء لا يحتمل أن يفعلها أى عقل ، كأن يقومون بالجرى فى مباريات السباق ، ويذهبون لصيد الأسماك ، ويكونون عائلات وهكذا ، لذا فثمة اختلاف بين معنى الشخص ومعنى العقل ·

ومع هذا فثمة اجابة أفضل كثيرا ، وليست من نوع اجابات التسليم جدلا ، وقوامها أنه لما كان البشر يقومون بالاستدلال والتبصر والتخطيط والتأمل والاستنتاج والجرى فى المباريات ويذهبون للصيد ويكونون عائلات . وهكذا .. ولما كان البشر الذين يفعلون مثل هذه الأفعال هم الكائنات المرئية الملموسة ، الذين نراهم حولنا طيلة الوقت ، لذا فان ما يتبع ذلك هو أن بعض أشياء فزيائية ، يعنى البشر ، هى التى تقوم بجميع هذه الأشياء . وتبعا لذلك ، تكون جميعها أفعال أشياء فزيائية . انها ليست أفعالا تنقسم الى أشياء من صنع جانب فزيائى ، هـو الانسان المرئى ، وأشياء من صنع جانب غير مرئى ، يعنى العقل من جهة أخرى .

تأمل القول الآتى : « رأيت جورج بالأمس . لقد كان يحاول أن يرسم أفضل طريق للانتقال من « ألبانى » الى « مونبلييه » (مدينتان فى الولايات المتحدة) . ومن الواضح ان هذا القول يشير فى المقامات العادية الى شخص ، ومن الواضح أيضا أن الاسم هو جورج ، وأن الضمير « هو » يشير الى نفس الكائن ، أو هذا الشخص . وما يشير اليه الاسم والضمير هو شىء قد رئى ، أى جسم انسانى . ولا يشير الاسم والضمير الى شىء لم يرى . ويعد هذا الجسم مظهرا من مظاهره المرئية . ولو كان ذلك كذلك لما كان هذا القول صحيحا حقا . وعلى أية حال ، فانه سيكون من الحماقة المحيرة ، أن يفترض أن أى رد أدق يدل على الفكرة المعبر عنها فى هذا القول كان يجب أن يجىء على الوجه الآتى : « لقد رأيت جسم جورج بالأمس . وكان عقله يحاول رسم كيفية الانتقال من البانى الى مونبلييه » . وتبعـا لذلك يكون القولان قـد عبرا عن نفس الشىء : (أ) مارئى (ب) الرسم والتخطيط ، وأن هذا الشىء هو بغير شك الشىء الفزيائى جورج . على أنه اذا كانت الأعراف تدفعنا الى وصف شىء ما — من باب المجاز — بأنه فعـل ذهنى ، فان علينا أن نفهم ذلك على أنه يعنى أن أشياء فزيائية بحتة — يعنى اناسا أحياء — قد باشرت أفعـالا ذهنية . بيد أن هـذا الاجراء سيكون مضللا ، ان لم يك متناقضـا ، لأنه يوحى بأننا قد نسبنا الى شىء فزيائى فعل شىء ما ليس فزيائيا ، ولكنه ذهنى . ومن هنا قد يكون من الأفضـل كثيرا القول بأن بعض الأشياء الفزيائية تنتسب الى البشر أو الأشخاص — قد يؤدون أحيانا أفعالا فزيائية مثل الرسم والتخطيط ، وأن هناك اختلافا بين هذه الأفعال والأفعال التى اعتدنا أن نصادفها فى أشياء فزيائية أخرى مثل الآلات وما أشبه .

الحجة الثالثة — هذه الحجة ، وهى أكثر الحجج شيوعا تستند الى الاعتقاد بأنه بينمـا قـد يكون أو لا يكون هناك أشياء مثل العقول

(أيا كان ما يعنيه ذلك) ، الا أنه لا خلاف حول وجود أشياء معينة لافيزيائية تسمى تسمية صحيحة بالأشياء الذهنية « التى بمقدور أى أحد التحقق من وجودها بالرجوع الى نفسه . والحق انه أحيانا يزعم أن لاشىء - حتى حقيقه أجسامنا - يؤكد وجود مثل هذه الأشياء الذهنية لأنها لا تدرك ادراكا مباشرا » .

الاجابة - ما أشير اليه هنا ككيانات ذهنية هو بالطبع أشياء مثل الأفكار والتخييلات الذهنية ، وما يتبعها من تخييلات ، والاحساسات والمشاعر .. الخ . وكثيرا ما يأتى ذكر الأوجاع فى هذا المقام باعتبارها - افتراضا - أشياء لا يرتاب أحد فى وجودها . وبعد الوصول الى هذه النقطة ، ستكون الخطوة التالية - بطبيعة الحال - هى النظر فى الصلة بين هذه الأشياء الذهنية وحالات فزيائية معينة للجسم . ولا يخفى أنهما ليسا نفس الشىء ، الا أنه من الصعب تصور كيف ستكون هذه الصلة . وسيمتد النظر أيضا الى مسائل أخرى مثل هل يحتمل الشعور « بنفس » الألم من قبل شخصين أو أكثر ، أو لماذا يتعذر حدوث ذلك ؟ أى على نحو مماثل لما يحدث عند اشتراكهما فى امتلاك أشياء « فزيائية » عادية مثل الساعات أو الكتب . كما أن الفضول سيستثار من أثر حقيقة أن أية تخييلة ذهنية مثلا قد تبدو قد اتخذت لونا ما ، ومع هذا فلا يقدر على ادراكها على نحو ما أكثر من شخص واحد هو صاحبها . كما أن التخييلات قد تتخذ أحيانا - على ما يبدو - شكلا فيه الكفاية اذا أراد المدرك أن يفرق بينه وبين الأشكال الأخرى مثلا ، وان لم يك له حجم محسوس . هنا فى الحق معين لا ينضب من النظرات الفلسفية . وتشغل مثل هذه النظرات ما لا حصر له من مجلدات الكتب .

على أن هناك بالتأكيد وسيلة أفضل للتعبير عما يعرف أنه حقيقى فى كل هذا . وهى وسيلة قد تحول دون ظهور مثل هذه النظريات الغريبة . ان ما نعرف أنه حقيقى ، وما بمقدورنا أن نتيقن من حقيقته هو أن البشر يفكرون ويحسون ويتخيلون ويشعرون .. الخ . وسيعد محض اسهاب وكلام زائد عن الحاجة اذا قلنا أن الناس يفكرون فى أشياء تدعى « الأفكار » ويحسون أشياء تدعى « بالاحساسات » ويتخيلون « تخييلات » ويشعرون « مشاعر » . فلا وجود لمثل هذه الأشياء . واذا قلنا بعدم وجود مثل هذه الأشياء ، فان هذا لا يعنى انكارنا أن الناس يفكرون ويحسون ويتخيلون ويشعرون .

وعلى سبيل المثال ، ما الذى يعنى بالقول بأن انسانا ما يشعر بألم فى قدمه ؟ لا شىء على الاطلاق سوى أن قدمه تؤلمه . ولكن هذا الايلام

من أى نوع هو ؟ انه ليس بشىء على الاطلاق ، أى ليس بشىء يشعر به ، وليس يقينا شيئا ذهنيا يشعر به هذا الانسان فى قدمه · انه حالة ، ولا يعنى هذا أن هذه الحالة فى العقل ، ولكنها حالة مباشرة فى قدمه · ولكن هل يصح أن تكون هذه الحالة شيئا فزيائيا ؟ · ليس هناك احتمال آخر · فليس هناك قدم روحى ، أو كائن روحى أو عقل روحى يمكن أن تنسب اليه هذه الحالة · فلماذا اذن لا توجد هذه الحالة ذاتها عند الآخرين : لماذا لا يشعر آخرون بنفس الألم الذى أشعر به فى قدمى ؟ · ولو كان هذا الألم حالة فزيائية لماذا لا نفتح القدم لكى نراه هناك ؟ أو نقوم باختبار مباشر لنختبر وجوده فى قدم انسان آخر ؟ ·

ان توجيه أسئلة من هذا القبيل يعنى عدم فهم ما الذى يعنى بوصف شىء بأنه فى حالة معينة · تأمل قطعة من الرصاص المصهور · انها فى حالة انصهار · فالى أى نوع من الأشياء تنتمى ؟ والاجابة هى انها ليست شيئا على الاطلاق · انها حالة من أحوال الشىء · فهل هى حالة فزيائية ؟ نعم أنها حالة من حالات الرصاص · والرصاص شىء فزيائى · وليس هناك شىء آخر ينسب اليه هذا الانصهار · فلماذا اذن ليس فى استطاعة قطعة أخرى من الرصاص أن يكون لها نفس الحالة ؟ بالطبع فى استطاعتها ذلك بالمعنى الأوحد الذى يمكن أن ينسب الى هذا السؤال · ان أية قطعة أخرى من الرصاص أو أى أشياء أخرى ليست رصاصا ، بمقدورها أن تنصهر على نفس النحو الذى حدث لهذه القطعة من الرصاص المنصهر · أما اذا تساءلنا لماذا ليس فى استطاعة قطعة أخرى من الرصاص أن تصبح فى نفس حالة قطعة الرصاص المنصهرة فان السؤال سيكون غير معقول اللهم الا اذا فسر على النحو المشار اليه . وستكون الاجابة آنئذ ، انها قادرة على ذلك · ولكن وبالمثل اذا سألنا لماذا لا يشعر انسان آخر أيضا بالألم الذى يشعر به هذا الرجل ، فانه سيكون سؤالا غير معقول أيضا ، الا اذا فسر على أنه يعنى لماذا لا يشعر اناس آخرون بالألم ، وفى هذه الحالة تكون فرضيته السابقة خاطئة · فاذا كانت قطعة الرصاص التى انصهرت حالة « فزيائية » ، فلماذا لا نستطيع أن نجزىء محلول الرصاص المنصهر الى قطرات لنرى هذه الحالة ؟ والاجابة بسيطة ، لأنها حالة من حالات الرصاص ، وليست شيئا آخر يحتويه الرصاص · والحق اننا اذا حللنا محلول الرصاص الذائب الى قطرات ، فاننا لن نرى حالة انصهاره (فليس هناك حالة من هذا القبيل) ، وانما سنرى أنه قد انصهر · وهذه هى نتيجة الاختبار · وليس فى استطاعتنا أن نسأل الرصاص : هل انصهر ؟ ، ونعتمد على شهادته · ولكننا قادرون على معرفة ذلك من مسلكه · وبالمثل فبوسعنا

أحيانا ـ مع الاعتراف بأن هذا ليس دائما ـ أن نرى ان انسانا يعانى ، دون أن نضطر الى سؤاله • واذا كنا نخطىء أحيانا ، فان هذا لا يرجع الى أن الألم شيء مختبىء داخله ، ليس بمقدور أحد آخر اكتشافه والتبليغ عنه • فليس هناك أى شيء مختبىء ، وليس هناك شيء سيبحث عنه • وكما أن هناك وسيلة مباشرة لاختبار هل انصهرت قطعة الرصاص ، فانه ليس هنـاك وسـيلة مباشرة مماثلة لاختبار مدى توجع الرجل من قدمه • فقد يكون متظاهرا بذلك فحسب • فهل يبين من ذلك أنه ربما شعر بألم قد اكتشفه فى قدمه ، ولكنه أخفاه ، مثلما يخفى محتويات محفظته ؟ • بالتأكيد لا • ان غاية ما يبين هنا هو أن البشر يختلفون عن قطع الرصاص ، لأنهم قادرون على التظاهر ، ولست أعتقـد أن هنـاك حاجة لأى تفلسف للكشف عن هذه الحقيقة الدارجة • فالكشف عن وجود حالات من الخصائص أسهل فى اختباره فى بعض حالات من الحالات الأخرى • ولا يصح هذا الحكم عن حالات أجسام البشر فعلا ، وانما عن كل شيء تحت الشمس • غير أن الأشياء التى يصعب اثبات ذلك فى حالتها ، لا يحق لنا أن نسميها بالحالات « الذهنية » •

ومن الميسـور ابداء ملحوظات مماثلة عن التخييلات ، التى كثيرا ما نرشحها للقيام بدور الحالات الذهنية • واذا تحرينا عن تخييلاتنـا الذهنية ، كثيرا ما يلجأ الناس عند وصفها الى ذكر تفاصيل شائقة • وأحيانا يكون ذلك مصحوبا بشيء من الزهو ، على نحو لا يختلف كثيرا عن حالة من يمتلك جوهرة ثمينة لا يملك أحد غيره حق التصرف فيها • ومع هذا فان غاية ما يستخلص من براعة فلان فى الوصف هى قدرته على الخيال ، التى قد تكون أحيانا عظيمة جدا • واذا قلنا أنه يتمتع بخيال خصيب حى ، أو حتى بقدرات عظيمة للتخيل ، فان هذا لا يعنى أنه قادر على الخلق بعقله من العـدم ex nihilo أشـياء تسـمى بالتخييلات تتألف من بعض مواد ذهنية لا فزيائية وروحية • فليس هناك مادة لا مادية ، وليست هنـاك تخييلات مؤلفـة من هـذه اللاماديات أو غيرها ، باستثناء تلك الأشياء الفزيائيـة ـ بطبيعة الحال (كالصـور ••• الخ) ، التى بوسع أى انسان قادر على الرؤية أن يراها ، والتى تسمى بحق تخييلات الأشياء • وعندما يرى أحد شيئا ما يكون هناك طرفان : أولا ـ القائم بالرؤية • وثانيا ـ الشيء المرئى ، كبناء ما أو مشهد ما ، على سبيل المثال • ولا وجود لطرف ثالث بينهما ، أى طرف يسمى مظهر ما يرى appearance • ويتفق الفلاسفة تماما حول هذه الحقيقة • ولكن بالمثل عندما يتخيل أحد شيئا ما ، أو كما يقال بطريقة مضللة « عندما يؤلف تخييلة ما أو حدث ما » لهذا الشيء ، آنئذ يكون هناك : أولا ـ من تخيل • ثانيا ـ أحيـانا وليس دائمـا الشيء الذى

تخيله ، كبناء ما أو مشهد ما ، ربما لا يكون حقيقيا أحيانا . وفى هذه الحالة لا يكون هناك ما هو أكثر من الشيء موضع البحث . واذا قلنا أن انسانا ما يتخيل شيئا ما ، فان هذا القول يرادف قولنا ما الذى يفعله ، أو ربما اشارتنا الى حالة ما يمر بهـا . ولا يعنى ذلك الاشارة الى شيء جوانى قد خلقه ، وفى حالة بقاء هذا الشيء فانه يكون خاصا به وحده .

تكفى الاشارة الى ذلك ، كما يبدو لى ، أى الاشارة الى أننا قادرون على قول كل ما نريد قوله عن قدرات البشر التخيلية ، بغير اقحام لكلمة « تخييلة » . ولن تفقد الفلسفة شيئا اذا تخلت عن هـذه الكلمـة . وليست هناك أية حقائق عن الطبيعة البشرية على الاطلاق تتطلب توكيد وجودهـا (التخييلة) . ولكن اذا أصر أحد على ادعـاء حقيقة وجـود التخييلات الذهنية ، وزعم مثلا أنه يراها حقيقة فى ذهنه اعتمادا على الاستبطان ـ وربما بدا مثيرا للدهشة تلهف طلاب الفلسفة فى تأييد هذا الزعم ـ هنـا بوسـعنا أن نسـأل بعض أسئلة محـيرة للغـاية . افترض ـ مثـلا ـ أن أحدا ادعى قدرته على انشاء تخييلة واضحة للغاية لمكتبة الكلية ، أى أن بمقدوره استحضارها فى ذهنه ، والاحتفاظ بها فيه ، وربما أمكنه حتى قلب صورتها رأسا على عقب ، أو استبعادهـا تبعـا لمشيئة . فى هذه الحالة ، سنسأله أن يحتفظ بها فى ذهنه وأن يعرفنا عـدد درجات السلم التى بالتخييلة ، وعـدد النوافذ وعـدد فتحات برج الحمـام .. وهكذا . وسيكون باسـتطاعته أن يفعل ذلك لو توافرت له صورة فوتوغرافية للشيء المعروض أمامه . ولكنه لن يكون قادرا على تحقيق ذلك بالاعتماد على التخييلة ، بالرغم من حقيقة أنه من المفروض امكان استحضارها فى ذهنـه ، بسـهولة وبطريقـة غير مباشرة . نعم سيكون بمقدوره ذكر عدد درجات السلم اذا كان قد قام بعدها أحيانا فى البناء ذاته (أو فى صورته الفوتوغرافية) وتذكرها الآن . ولكن هذا الموقف مختلف عما يقال بأنه اعتمادا على التخييلة الذهنية قد عرف عدد درجات السلم ، لأن هذه الحالة مختلفة عن حالة عدد درجات السلم . كما أن بوسـعه أن يتخيل أن هذا السلم يتألف من ثلاثين درجة . وبناء على ذلك فانه ينطق العدد « ثلاثين » ، ولكن هـذه الحالة لا تسمى عدا ولكنها تسمى performance . فالتخييلة التى يزعم أنها واضحة فى حوزته ، بجميع تفاصيلها ، ليست حتى موجـودة . وعنـدما يزعم أنه استحضر فى ذهنه تخييلة المكتبة ، فان ما يحدث آنئذ بالفعل هو مجرد تخيل المكتبة .

فما المقصود اذن بتخيل أى شيء ؟ هل التخيل فعل أم حالة ، أم ماذا ؟ ليس لطريقة اجابتنا عن هذا السؤال أية أهمية فى واقع الأمر .

وغاية ما نود قوله هو أن التخيل ليس عملية انتاج كيان يدعى « بالتخييلة الذهنية » • ولنفترض فى هذا المقام اننا عندما نتخيل شيئا ما فاننا نكون فى حالة معينة • فهل توصف هذه الحالة بأنها حالة فزيائية ؟ • بلى ! انها حالة من الحالات التى يمر بها الانسان مثل حالات السكر والنوم والتنفس والبدانة •• الخ ، التى قد تكون حالات هذا الشخص أو ذاك • فما المقصود بالتساؤل عن هل هى حالات فزيائية ، بدلا من التساؤل عن هل هى حالات لأشياء فزيائية ؟ • فما قولنا اذن عن حالة نكون فيها فى حـالة نوم ؟ • انها حالة تخص الانسان • والانسان كائن فزيائى ، يعنى مرئى وملموس • فليس بمقدورك أن تخز حـالة تخيل انسان لشىء ما بالعصا ، وكل ما بوسعك أن تفعله هو أن توخزه هو • وهذا حقيقى • كمـا أنك لا تستطيع أن توخز نعاسيته بعصا أيضا • فلا وجود لشىء ستوخزه • وكل ما هناك هو انسان نائم أو انسان فى حالة تخيل ، أو انسان سكران •• وغير ذلك •

فكيف اذن يمكن القول بأن باستطاعة أى انسان — ان كان لا يزيد عن مجرد شىء فزيائى — أن يكون فى مثل هذه الحالة أو تلك • ولماذا لاتعرف العصى والأحجار مثل هذه الحالة ؟ • أليست هى أيضا أجساما ؟ والاجابة هى : لنفس السبب الذى يقال فى تفسير عدم قدرتها على السكر أو النوم أو التنفس أو الشعور بالشبع أو الجوع ، يعنى لأنهـا عصى وأحجار وليست بشرا ، فلا يرجع السبب الى افتقارها الى العقل ، فحتى لو توافر لها العقل ، فانها ستظل غير قادرة على السكر والنوم والتنفس والشعور بالشبع والجوع ، لأنهـا ستظل عصـيا وأحجارا ، وليست بشرا •

الحجة الرابعة والأخيرة — يشترك الناس بما فى ذلك الفلاسفة فى القول بأنهم قادرون على تخيل امكان استمرارهم فى البقـاء بعد مـوت أجسادهم • وهذا أمر يبدو مستحيلا فى نظر أى انسان يفترض وجود هوية بين شخصه وجسمه • ومن المعترف به أنه فى غير مقدور أحد أن يعرف حدوث استمرار فى البقاء بعد الموت • غير أنه لا يلزم — على أية حال — أن يكون مثل هذا القول زائفـا • فمذهب الـ metempsychoses مثلا ، على الرغم من عدم وجود ما يبرر الايمان به ، الا أنه من المتعذر اثبات استحالته اعتمادا على الأسس الفلسفية فحسب • وقد يكون ذلك مستحيلا لو كانت هناك هوية بين الشخص وجسمه ، ومن ثم تكون أية صورة من صور الاستمرار فى البقاء بعد الموت مستحيلة • ونحن نعرف مصير الجسد • انه التراب • فاذا كانت هناك هوية بينى وبين جسدى ، هنا سيكون من المتعذر منطقيا أن لا أشارك فى هذا المصير •

الاجابة ـ ان كل ما بينته هذه الحجة هو أنه ليس كل انسان ـ وربما حتى لا أحـد ـ يعـرف وجود هوية بينه وبين جسمه ، وأن الشيئين شيء واحد • ولا يبين من هذا على الاطلاق أنهما ليسا كذلك • فثمة بعض أشـياء مثـل « نجمة الصباح » و « نجمة المســاء » اللتين اعتاد بعض الاعتقاد بأنهما شيئان مختلفان ، ووصفا كذلك ، بيد أنه قد تبين أنهما شيء واحد •

فاذا افترضنا أن خاطرا قد أوحى لى ووعد بوجود حياة بعد الموت ـ أو ربما باعادة مولدى (أنا نفس الشخص فى مكان آخر وفى جسد آخر) ـ فان مثل هذا الوعد قد يساعد على انعاش الأمل عندى ، اذا كنت أعتقد أن نفسى شيء ، وجسدى شيء آخر • واذا سلمنا بقدرتى ، مثل أى شـخص آخر ، على تبنى مثل هـذا الاعتقاد ، الا أن حقيقة امكان اعتقادى وجود مثل هذا الاختلاف لن تثبت أنه قائم حقا • وفى حالة عدم وجوده ، أى اذا تبين أن هناك هوية بينى وبين جسمى ، فان الغيب لن يكون قادرا على تحقيق هذا الوعد • تمعن فى هذا القياس : لو أن عدوا لبلدنا لم يعرف وجود هوية بين مدينة « البانى » وعاصمة ولاية نيوريورك ، فى هذه الحالة فلا يستبعد أن ينسب اليه أنه اقترح ضرب احدى المدينتين بالقنابل ، وعدم ضرب المدينة الأخرى • ومع هذا فان هذا الاقتراح لن يهتدى الى من يقدم على تنفيذه • نعم ان حقيقة قيام أحد الناس الذين يجهلون وجود مثل هذه الهوية بتصور تنفيذ مثل هـذه الامكانية لا يثبت أنها أمر ممكن •• وكل ما يثبته ذلك هو أنه لا يعرف أن الأمر ليس كذلك •

٥ ـ الروح كحياة والروح كفكرة

من المفيد قبل انهاء هذا الكلام ، أن تعقد مقارنة بين المفهوم الفلسفى للعقل وما كان يسمى فيما مضى بالمفهوم الفلسفى للحياة • اذ كان من المسلم به يوما ما أن البشر وحيوانات أخرى تتمتع بميزة حرمت منها الجمادات ، انها الحياة ، وبفضلها اكتسبت القدرة على أداء جميع أنواع الأشياء ، التى تعجز الجمادات عن فعلها ، مثل تحريك نفسها وامتصاص المواد الغذائية والتكاثر •• وهكذا ، ولقد صنف أرسطو أرواح الأشياء الحية تبعا للقدرات التى تمنحها لأصحابها ، واعتقد أن النباتات ذاتها لها أرواح ، والحق لقد اعتقد بوجه عام أن حياة الحيوان وروحه شيء واحد • ويرتد كلمة anima ذاتهـا الى هـذا الاعتقـاد • لأن كلمة anima فى اليونانية تعنى الحيـاة • وتبعا لما ذكره افلاطـون فان سقراط قـد استطاع أن يقنع نفسه بخلوده استنادا الى هذه الفكرة ،

لأنه اعتقد انه بفضل تمتعه بالحياة ، أو بفضل وجود روح له ، تمكن من أن يكون انسانا حيا ، ومن ثم فمن الحماقة أن يخشى موت هذه الروح. فقد ظن أن هناك هوية بين الحياة وروحه ، وان كانت الحيـــاة عرضية بالاضافة الى جسده ، بل وربما بدت غريبة عنه ، أى عن مثل هذا الشيء المصنوع من الطين • وظهر مثل مشابه فى فلسفة ديكارت ، الذى أكد أن الروح غير قادرة على الاطلاق على التوقف عن التفكير • فلقد خطر بباله وجود هوية بين الفكر وروحه ، وان كان الفكر غريبـــا عن روحه بصفة قاطعة •

على أننا ما زلنا نتحدث عن الحياة على هذا النحو • بيد أننا لم نعد ننظر الى هـــذا الأسلوب فى الكلام على أنه يعنى أى شيء له صـــلة بالحقيقة • ومن آيات ذلك قولنا ان انسانا ما « فقد » حياته ، وأن زيدا من الناس أزهق حياة عمرو • ونتحدث أيضا عن « نعمة » الحياة ، بل وأنفاس الحيـــاة التى يفترض أن الله قد نفخهـــا فى جسم ما ، ولولا ذلك لأصبح جمادا • غير أن هذه الأقوال وأمثالها لا تزيد عن كونها أقوالا من باب المجاز ، فلم يعد أحد يفترض أن الحيوان أو الانسان يتحرك ويمتص المواد الغذائية ويتكاثر ••• الخ ، لأنه يملك حياته • ولم نعد نعتقد أن الحياة شيء يضاف الى جسم الحيوان ، أى كشيء منفصـــل يساعد على انعاش حركة المادة ، وعندما نميز شيئا ما ونصفه بأنه حيوان حى ، فان ما نقصده هو التنبيه الى ما فى تنظيم جسمه من تركيب معقد ، يرجع اليه الفضل فيمـــا لدى الحيـــوان من جمع كبير من القـــدرات • فالجسم الحى ما هو الى جسم تجرى فيه عمليات ، بعضها معقد الى درجة مهولة وغير مفهوم فهما صحيحا • وبعبـــارة أخرى ، ان الجسم الحى يختلف عن الجسم اللاحى لا من حيث ما يحتويه من مكونات ، وانمـــا بفضل ما بمقدوره أن يفعله • وهذه من الميسور برهنتها بطريقة مباشرة•

ولقد حاجيت على نحو مماثل عندما تحدثت عن العقل ، لا بوصفه شيئا متجسما بطريقة خفية هنا وهناك ، أو شيئا يفترض أنه المسئول عن المسلك العاقل نوعا لبعض الكائنات • فثمة اختلاف بين الكائن العاقل القادر على الفكر العاقل والفعل العاقل وبين الكائن الذى يفتقر الى مثل هذه القدرات ، لا من ناحية الافتقار الى أشياء يملكها ، وانما ـ اذا توخينا الدقة ـ من ناحية ما يفعل • ولا ننسى القول ان هذا يفسر لماذا ينزع الانسان الى اعتبار وصفه بأنه بلا عقل اهانة كبرى • ولا يرجع هـــذا الى أنه قد تجرد فى نظرنا من بعض ملكات ، يقدرها ويجلها ، وانما بالأحرى لأن مثل هذه الملاحظة ينظر اليها على أنهـــا تعنى الافتقار الى

قدرات مهمة ومميزة . فاذا اطمأن الانسان الى أن امتلاكه لقدرات فكرية نوعا ليست بأى حال موضع شك ، فانه لن يشعر بتجرده من أى شيء عندما يعرف أن من بين أجزاء جسمه أو ملكاته ، لا يوجد أى شيء يمكن أن يوصف وصفا صحيحا بأنه « عقل » .

٦ ـ هل تفكر المادة ؟

يحتمل أن يكون كل فيلسوف قد شعر فى وقت أو آخر بالحيرة العميقة عندما يتصور قيام المادة (المجردة) بأداء أشياء مختلفة ، كانت تنسب نسبة صحيحة الى الأشخاص وحدهم . فقد يعجب أى فيلسوف ويتساءل : كيف تسنى لجسم ما أن يفكر ويتبصر الأشياء ويتخيلهـــا ويصورها ويخططها وهكذا ؟

والحق أن هذه المسألة لا يصح أن تعتبر مصدرا صحيحا للوقوع فى أى خطـأ . فلا أحد بمقدوره قبليا أن يحدد ما بوسع الأجهزة المادية المنتظمة للجسم الانسانى أن تفعله أولا تفعله ، ففى عهد مضى ، شاعت فكرة لا تحتمل التصديق مؤداها أن المادة التى لا تتدخل الروح بتسريبعها قد تكون حية ، لأن المادة قد بدت للباحثين صماء أو جامدة بطبيعتها . غير أننا أصبحنا نرى حولنا فى جميع الأوقات عينات من المادة الحية فى الحشرات ــ على سبيل المثال ــ ومن ثم اضطرت الأهواء الفلسفية الى التسليم بهذه الحقيقة . وبالمثل فانى أعترف بأننا نرى حولنا فى جميع الأوقات عينات من المادة المفكرة فى أى كائنـات مادية تتبصر وتتخيل وتتخيل وتخطط .. الخ . والبشر فى الحق يفعلون مثل هذه الأشياء . وعندما نرى انسانا ، فان ما نراه هو كائن مادى . انه كائن معقد مروع عظيم التنظيم ، ما فى ذلك شك ، وان كان لا يقلل من شأنه انه أيضـا جسم مرئى وملموس . وعلى أى حال ، فليس من السهل القضاء على ما يظهر من غموض ، يدفع الى عدم التصديق عندما يقال أن المادة تمارس أية قدرات فكرية مما يسوق بعض الى التسليم بوجود شيء آخر يقوم بممارسة هذه القدرات . فاذا بدا من الصعب فهم كيف استطاع الجسم فعل مثل هذه الأشياء ، فلن يكون أقل من ذلك صعوبة تصور كيف استطاع شيء آخر ليس بجسم أن يفعل ذلك على نحو أفضل .

• التفاعلية Interactionism

العقل كشيء متمايز عن الجسم بقلم : سيريل ادوين جود •

[سيريل ادوين جود (١٨٩١ - ١٩٥٣) كاتب انجليزى غزير الانتاج • أحدثت كتبه ومقالاته وأحاديثه عن الفلسفة دويا كبيرا ابان حياته] •

القضية الدائرة بين أولئك الذين يحاولون تفسير ما يفعله العقل على أنه فعل جسمانى ، وبين أولئك الذين يعتقدون أن للعقل مكانة فذة مميزة - ومستقلة بمعنى ما - لا تقبل أى حسم محدد •••• وأقصى ما يستطاع القيام به هو ذكر اعتراضات معينة يمكن أن تساق - وقد سبق الاشارة اليها - ضد الموقف المادى ••• وفى الوقت نفسه ، بيان عدد من الاعتبارات المستقلة التى تتطلب - فيما يبدو - نوعا مختلفا من التناول السيكلوجى ، وتفسيرا مختلفا لمشكلاتها • واذا توخينا الايجاز قلنا أن هذا التفسير يتشبث بالقول بأن الكائن الحى شىء أسمى وأعلى من المادة التى يتكون منها جسمه • وبعبارة أخرى ان الكائن الحى تعبير عن مبدأ الحياة ، والحياة قوة وتيار وكيان وروح - وسمها ما تشاء - لأنه من المتعذر وصفها أو ذكر أى شىء عنها باستعمال مصطلحات مادية • ويعبر هذا المبدأ الخاص بالحياة عن نفسه فى الكائنات البشرية فى مستوى ما يسمى بالعقل • وهذا العقل متمايز عن كل من الجسم والمخ ، وبعيد تماما عن كونه مجرد سجل للأحداث الجسمانية • فهو اعتمادا على قدرته وفاعليته الاختيارية ينتج مثل هذه الأحداث ، ومن ثم فان أى بيان عن أفعال العقل توصف فيه هذه الأفعال بأنها أفعال صادرة من المخ أو الغدد ، أو استجابات جسمانية للمنبهات الخارجية ، لن يكون مستوفيا ومرضيا • هذه هى النظرة التى ظهرت فى صورة أو أخرى ، واعتنقها أولئك الذين رأوا التفسير المادى للسيكلوجية غير واف • وسنعنى فى هذا الفصل ببيان أسباب ذلك •

نقلا عن How Our Minds Work تأليف Cyril Edwin Mitchinson Joad

● الاعتبارات البيولوجية

● **الهدفية** purposiveness · ان بعض هذه الأسباب ــ وربما أهمها ــ مستمد جزئيا من نطاقات تقع خارج مجال السيكلوجيا بمعناها الصحيح · انها تنتمى الى البيولوجيا · وتعتمد على مراعاة للخصائص التى رئى اشتراك جميع الكائنات الحية فيها · وفيما يختص باحدى هذه الخصائص « المزعومة » ، التى تنسب للكائنات الحيـة ، لابد من ذكر بعض كلمات ، لأنها تمثل نقطة بدء منهج التفسير الذى سنتبعه فى هذا الفصل · والخاصية التى نتحدث عنهـا هى الخاصـية التى نسميهـا بالهدفية · وبموجبها يقـال أن أية محاولة لتفسير سلوك الكائنات الحية بالرجوع الى الاستجابة المادية للمنبه يتحتم تصدعها أو انهيارها · ويعنى « بالهدفية » القدرة على التأثر بهدف ، والسعى لتحقيق هذا الهدف · وتتضمن هذه الخاصية بدورها الادراك الواعى أو غير الواعى لشىء ما يقع فى المستقبل ، ويسعى الهدف لتحقيقه ، ومن ثم فانه يتطلب وجـود عقل · بناء على ذلك ، واذا اعتبرنا الهـدفية خاصية حقيقية للكائنات الحية ، فاننا نكون قد اهتدينا الى نقطة بدء حسنة لتحديد نظرتنا العقلية الى السيكلوجى ·

فما هو المقصـود اذن بالقول بأن الكائنـات الحية هادفة ؟ أولا ــ فبالاضافة الى ما تتميز به هذه الكائنات من حركات بالاستطاعة تفسيرها على انها استجابات لمواقف قائمة ، فانها تتصرف على نحو يدل ــ على ما يبدو ــ على وجود دافع تلقائى أو حاجة تلقائية للاتيان بموقف آخر لم يظهر بعد الى الوجود · ويعرف هذا الدافع ــ أو هذه الحاجة ــ باسم النزوع · ومن أفضل أمثلة هذا النوع : الدافع الذى نشعر به ويدفعنا الى الحفاظ على النوع اعتمادا على الحصـول على غـذاء ، أو البحث عن رفيق · ويتمثل هذا الدافع أساسا فى محاولات الكائن الحى التغلب على أية عقبة تعوق تحقيق حاجاته الغريزية ، فهى تبـدأ بمحاولة لتخطى هذه العقبة ، ثم تجريب محاولة أخرى ، وكأنها مرغمة بفعل قوة قهارة تدفعها قدما لتحقيق هدف بالذات · وهكذا نرى أنثى سـمك السالمون وهى تشق طريقها فى القناة وتقفز فوق الصخور وتتصدى للتيارات المائية كى تضع بيضها فى مكان بالذات · وبذلك تسلك مسلكا يصعب تفسيره على انه استجابة لمنبه خارجى · ويسعى أى كائن للحفاظ على الميل للنمو الطبيعى والارتقاء · فاعتمادا على هذا الميل وحده ، سيتحقق هدف الوجود ، بمحاولة الاهتداء والحفاظ على ما يمكن أن نسميه بحالته الطبيعية · وبمقدوره اذا اقتضى الحال ، أن يحور تكوينه الجسمانى ، أو يبدله · واذا نظرت الى النبات المائى hydroid المسمى Antennularia

وانتزعته من السطح الذى اعتاد أن يلتصق به ، فانه سيشرع فى تفريع جذور أو خيوط متعرجة طويلة محاولا العثور على شىء صلب يتعلق به • ولقد سمعنا جميعا عن عادة السرطانات البحرية ، عندما تنمى قدما جديدة بدلا من القدم الأخرى التى أصابها العطب •

ومن العسير الاكتفاء عند تفسير هذا النوع من الأفعال ـ كما يقول المذهب المادى ـ على أنه استجابة لمنبه ، ان هذه الأفعال ترجع بالأحرى الى وجود دافع حى خلاق يسعى لمواجهة أى عائق على نحو بعيد عن الآلية • وأما أن الكائنات الحية ـ تعمل مثلما تعمل الآلات ـ أى تقوم بردود فعلها على النحو المناسب للمنبه المناسب ، فأمر مسلم به • وغاية ما يتوجب التنبيه اليه هو أنها تتصرف على أنحاء أخرى أيضا • وتعتمد هذه الأفعال الأخرى على نوع المنبه المتلقى ، وكذلك على شدة الدافع النزوعى للكائن • والتفسير الوحيد لوجود الدافع هو افتراض أن الكائن يتنشط حيويا عندما يحتاج الى تحقيق هدف ما •

● **التبصر والتوقع** وعندما نطبق هذه النتيجة على سيكلوجية الانسان ، سنشعر بالدهشة من حقيقة اشتراك الفرد فى هذه الخصائص المتعلقة بالسلوك الهادف هو وباقى الكائنات • يضاف الى ذلك شعوره بالوعى فى عدة حالات بطبيعة الهدف الذى الهمه بمثل هذا السلوك • فالانسان الذى يدرس ابتغاء لاجتياز الاختبار لا يكون مسوقا لذلك من أثر قوة تدفعه من الخلف • انه ينجذب قدما بفضل شىء يجتذبه من الأمام • ولن تتحقق الفاعلية لهذه القوة الدافعة من الأمام الا اذا اعتمد الانسان على القدرة على تصور مرغوبية حالة بالذات كاجتياز الاختبار على سبيل المثال ، وهذا شىء لم يظهر بعد الى الوجود • وبعبارة أخرى ، ان هذه الأفعال تكشف عن حالة تبصر وتوقع • نعم ان الأفعال من هذا القبيل تكشف عن حالة اصرار ـ على ما يبدو ـ تتضمن فى طياتها عملية تبصر وتوقع • وبعبارة أخرى ، ان القدرة على التأثر بالأحداث التى تقع فى المستقبل تبدو غير قابلة للتفسير اعتمادا على قاعدة المنبه والاستجابة• ففى نظر هذه القاعدة ، يتعذر تصور كيفية قيام شىء غير موجود بالتأثير على العقل • ومن الصعب فى نظرها تصور كيف يتنبه الجسم من أثر أشياء غير موجودة •

● **ادراك المعنى**

من الحقائق الهامة عن حياتنا الذهنية ، قدرتنا على الحكم بوجود معنى للأحداث والأشياء • فأى بيان للحقائق مدون على قطعة من الورق

اذا نظرنا الى مضمونه نظرة مادية سنرى أنه لا يزيد عن جمع من الاشارات السوداء المنقوشة على خلفية بيضاء ، يعنى اننا اذا نظرنا اليه على هذا الوجه ـ أى كمجموعة من المنبهات الفزيائية المرئية ـ فانه سيبدو عديم القيمة نسبيا · وما يهم فى هذه الحالة هو المعنى الذى ينسب الى هذه الاشارات · فاذا استطاعت أن تبلغنا ـ مثلا ـ اننا قد ورثنا تركة تقدر بعشرة آلاف جنيه ، فان ما أحدث اضطرابا فى مشاعرنا يكفى لاطارة النوم من أعيننا طوال الليل لم يك الاشارات السوداء المنقوشة على الخلفية البيضاء · ولكنه المعنى الذى نقلته الينا · على أن معنى الاشارات ـ كما لا يخفى ـ ليس منبها فزيائيا · انه شئ لا مادى · فكيف اذن يستطاع تفسير تأثيره على أنه استجابة جسمانية لمنبه فزيائى ، وأن يقال بأن دور العقل يقتصر على تسجيلها · فلنرجع الى مثلين آخرين لبيان مدى الصعوبة فى حالتين حيويتين ·

فلنفترض اننى أحد علماء الهندسة ، وأفكر فى خصائص المثلث · ولما كنت لا أميل الى الخوض فى المشكلة المغضبة الخاصة بهل يعد وجود بعض المنبهات الفزيائية ضروريا أم غير ضرورى لبدء أية سلسلة من الاستدلالات ، لذا سأفترض وجود منبه فزيائى فى هذا المثل ، ربما اتخذ صورة ملاحظة عابرة عن اقليدس أو ظهور مثلث أحمر اللون فى اشارة المرور عندما كنت أقود سيارتى ، انه منبه سأسميه «س» · ولقد استحثنى على الشروع فى تأمل معنى المثلث · وتستمر استدلالاتى الى أن أهتدى الى نتيجة قد تتخذ صورة قضية هندسية تعبر عنها احدى المعادلات الرياضية · وقد احتفظت بصيغة هذه المعادلة فى رأسى جملة أيام · وها أنا أكتبها الآن ، وسأقوم فى نفس الوقت بتأليف كتاب أثبت فيه معادلتى ، أبين فيه الاستدلال الذى ساعدنى على الاهتداء الى هذه المعادلة · ويقرأ (أ) الكتاب ويفهمه · ويترجم الكتاب فى الحاضر الى الفرنسية ويقرأه (ب) ويفهمه · ولما كان (أ) ، و (ب) و (ج) قد فهموا جميعا معادلتى والحيثيات التى استندت اليها ، فان بمقدورنا القول بأن عملية الاستدلال قد عنت عندهم نفس المعنى فى شتى جوانبه · ولو لم يك الأمر كذلك لما كان باستطاعتهم جميعا الاهتداء الى نفس النتيجة ، وفهم نفس المعنى الذى قصدته · غير أنه فى كل حالة من الحالات الأربع كان المنبه الحسى مختلفا · ففيما يتعلق بى كان المنبى س · وعند (أ) كان المنبه عددا من الاشارات السوداء على خلفية بيضاء · وبالنسبة لـ (ج) كان عددا من الذبذبات التى ترددت فى الجو ، واصطكت فى طبلة أذنه · وقد يبدو من غير المحتمل تصديق تمكن هذه المنبهات المختلفة من احداث وعى بنفس المعنى ، لو كانت ردود فعلنا مقصورة على الاستجابات الفزيائية (التى لابد أن تختلف من حالة لأخرى) ، والتى انعكست

بالتعاقب فى عقولنا اعتمادا على عملية تسجيل ذهنى للاستجابات المختلفة . ولما كان المنبه قد اختلف من حالة لأخرى ، كان لابد من تدخل شىء تتوافر له القدرة على ادراك القاسم المشترك بين هذه الكيانات الفزيائية المختلفة . فهو وحده الذى يملك القدرة على القاء الضوء على الوقائع . غير أن القاسم المشترك كان المعنى ، وهو لا مادى ، ومن ثم فبالمقدور ادراكه عن طريق العقل وحده .

ولنرجع الى مثل آخر ذكره عالم النفس الشهير وليم ماكدوجال :

يتلقى رجل برقية تنبئه بموت ابنه . والمنبه الفزيائى المرئى فى هذه الحالة ، كما هو الحال فى الحالة السابقة مجموعة من الاشارات السوداء على أرضية برتقالية . وقد يتخذ رد فعله المتمثل فى مسلكه الجسمانى شكل توقف كامل لجميع المتداعيات التى تتداعى عادة والحياة ، يعنى قد يصاب باغماء . وعندما يستعيد وعيه ، فقد تتغير تغيرا كاملا أفكاره وأفعاله خلال ما بقى من حياته . وأما أن جميع ردود الفعل المعقدة هذه لم تترتب على الاستجابة للمنبه الفزيائى — أو حتى تنبع منه — فأمر يمكن ادراكه من مقارنة ردود فعل أى قريب يقرأ البرقية ، ومن ثم فانه يتعرض لنفس المنبه . وفضلا عن ذلك ، فان حذف أى حرف واحد يحول صيغة البرقية الى « ابننا قد مات » بدلا من « ابنك قد مات » ربما قد لا يؤدى الى حدوث أى رد فعل من ردود الفعل المذكورة آنفا ، ولعله لن يتمثل فى أكثر من تحرير رسالة مهذبة لتقديم العزاء .

ان استقلال ردود الفعل الجسمانية عن المنبهات الفزيائية التى عرضت بالفعل فى هذه الحالات ملحوظ تماما . وما لم تتدخل تصورات مثل الادراك الفكرى لمعنى الاشارات ، فان تفسيرها سيكون متعذرا — على ما يبدو — غير أن وجود هذه التصورات يدل أيضا على حدوث تدخل فعال من العقل .

● **القدرة التوليفية للعقل** . ويعزز هذه النتيجة ما نسميه بالقدرة التوليفية للعقل . ويعنى التوليف الجمع بين الأشياء . ومن القدرات الشديدة الابهار التى بحوزتنا القدرة على انتقاء عدد من الاحساسات المتفرقة ، وتشكيلها فى وحدة كلية . وستسنح الفرصة لنا للعودة الى هذه النقطة ، وافاضة الكلام عنها عندما نتحدث عن رأينا فى الاحساس فى الفصل التالى . وفيما يتعلق بالحاضر ، فاننا سنقنع بذكر مثل أو مثلين للتوليفة الذهنية .

ولنتأمل هنيهة ما يجرى فى حالة التذوق الفنى . فنحن اذا تأملنا كل نغمة فى السمفونية على حدة ، فانها ستبدو مجرد ذبذبات فى الجو .

وقد تحدث كل نغمة عندما تعزف بمفردها احساسا ممتعا · وعندما تعزف نغمة تلو الأخرى ، فاننا نحصل على احساسات متتابعة ممتعة · ولكن على الرغم من أن هذا الوصف قد يبدو كافيا للسمفونية باعتبارها مجموعة من الأحداث المادية ولردود فعلنا حيال هذه الأحداث اذا نظر اليها على أنها احساسات ، فمن الغنى عن البيان أننا نتصور السمفونية شيئا أكثر من ذلك · ففى الحق أننا نتصورها كوحدة كلية · واعتمادا على هذه الصفة الكلية ، فانها تمنحنا ما نسميه بالمتعة الاستاطيقية · على أن تصور السمفونية على هذا الوجه يدل على أن عقلنا لم يكتف بتعاقب الاحساسات الممتعة التى أحدثتها النغمات متفرقة ، ولكنه جمع شتات النغمات فى شىء أشبه بالتركيبة الواحدة · ولو رتبت النغمات على نحو آخر ، وبالرغم من أن الذبذبات الفعلية التى طرقت آذاننا قد تكون هى هى ، الا أن التأثير الاستاطيقى الممتع قد يتحطم ·

يبدو أن ما يتبع ذلك هو الظن بأن استمتاعنا بالسمفونية لا يمكن أن يفسر تفسيرا كاملا · فعلى الرغم من احتمال اعتماده على استجابتنا الفزيائية لتنبيه النغمات الفردية ، فاننا مرغمون على نحو ما ، اذا أردنا الحصول على متعة استاطيقية أن ندرك هذه النغمات المتفرقة كشىء أكثر من حصيلة كلية لهذه النغمات ، أى كتركيبة واحدة ، أو وحدة نسقية واحدة ، ومن ثم فان المتعة تتحطم اذا تعرضت كلية الشىء المدرك لأى تحطم ، كما يحدث مثلا اذا غيرنا من وضع بعض النغمات · وباستطاعتنا أن نقارن الاختلاف بين الاحساسات الفزيائية التى تمثل استجاباتنا للمنبهات المرئية للألوان والخيش أى المكونات التى تتألف منهما الصورة بادراكنا التوليفى للصورة كعمل فنى ·

علينا أن نستخلص من ذلك اذن أن لدينا قدرة على ادراك الأشياء ، ليس باعتبارها تجميعات لمنبهات فزيائية ـ وأنها لكذلك بطبيعة الحال ـ وانما بوصفها وحدات كلية يجمع فيها بين المكونات الحسية الفعلية لتكوين موضوع مفرد ، له نظام أسمى · ان هذه الملكة القادرة على التكوين أو التجميع تدل ـ على ما يبدو ـ على وجود عقل · وأكثر من ذلك ، على وجود عقل فعال من النوع الخلاق القادر على مجاوزة الخامة التى نحصل عليها بفضل احساساتنا الجسمانية ، وعلى ادراك الأشياء المثالية كوحدات كلية ، تعد شيئا أكثر من مجرد مجموعة من الأحداث الفزيائية التى تؤلف مكوناتها ·

● خلاصة البرهان :

النتيجة المستخلصة من الحجج التى وردت فى هذا الفصل تشير ـ على ما يبدو ـ الى أنه بالاضافة الى جسم المخ ، فان تكوين الكائن الحى

يتضمن عنصرا لا ماديا نسميه العقل · وعلى الرغم من أن هذا العنصر وثيق الاتصال بالمخ فانه شيء أكثر من مجرد توهج أو هالة تحيط بالتكوين المخى · ويقتصر دور العقل على تأمل الأحداث التى تحدث فى هذا التكوين ، وان كان على عكس ذلك مستقلا عن المخ ، وبفضل استقلاله يتسنى له ــ من جانب ــ توجيه المكونات المادية للمخ والسيطرة عليها ، واستعمالها لتنفيذ أغراضـــه المتصلة بالعـــالم الخارجى للأشياء ، تماما مثلما يفعل السائق عندما يستعمل الأجهزة الميكانيكية لسيارته · واذا تصورنا العقل على هذا الوجه،فانه سيبدو قوة مؤلفة فعالة وديناميكية قادرة علىمجاوزة الاحساسات التى تأتى بها المنبهات الخارجية ، وتنظيمها فى تراكيب · كما أنه يبدو قـــادرا ، اذا اقتضت الضرورة على التصرف دون استثارة من المنبهـــات الجسمانية · وبعبارة أخرى ، فان العقل له دور فعال ، يعنى أنه قادر على النهوض بأفعال لن تقدر معرفتنا الفسيولوجية مهمـــا بلغت من امتداد واتساع على استخلاصها من ملاحظة المخ · فكيف اذن نتصور العلاقة بين العقل والمخ ؟ ·

ان أى ممثل لاحدى تمثيليات شكسبير لا يكتفى بالتكلم ، ولكنـــه يعرض ايماءات تساعدك حتى اذا كنت أصم على استخلاص شيء ما مما تدور حوله التمثيلية اذا شاهدت الايماءات · ومع هذا فلا يخفى أن التمثيلية تحتوى على شيء أكبر من التمثيل الصامت للممثلين · فهناك مثلا الكلمات والشخصيات والعقدة والشعر · فاذا استشهدنا بتشبيه جاء به الفيلسوف الفرنسى هنرى برجسون قلنا ان المخ هو أداة التمثيل الصامت · فلو أنك شاهدت مخ أى انسان سيكون بمقدورك أن تعرف أكبر قدر من أفكاره التى أمكنها أن تنفس عن نفسها فى الايماءات · وبعبارة أخرى ، سيكون باستطاعتك أن تدرك كل بواطن أفكاره ، التى تمثلت فى شكل أفعال ، أو البدايات التى انطلقت منها الأفعال (١) · غير أن الأفكار نفسها ستغيب عن فطنتك مثلما تغيب الكلمات ومعـــانى التمثيلية عن المتفرج المصـــاب بالصمم · ان هذا هو ما يعنيه القول بأن العقل يفيض على المخ · ولو بلغت معرفتنا بعلم النفس وعلم الفسيولوجيا الكمال سيكون بمقدورنا أن نصف حركات المخ دون أن نشاهدها اذا توافر لنا الفهم الكامل لحالة العقل عند الشخص · بيد أننا سنعجز اذا اعتمدنا على أدق فحص وأكمل تنقيب فى المخ عن معـــرفة ما الذى كان يفكر فيـــه الانســـان · فمثلما تدل ايماءة واحدة يقوم بها الممثل على الأفكار العديدة التى يفكر فيها ، كذلك قد تمثل

---

(١) من بين بدايات الأفعال ، يصح أن يذكر تلك الحركات التى تقوم بها الحنجرة عند الاستغراق فى الكلام ·

حالة واحـدة من حالات المخ أية واحدة من جحـافل الحالات التى تحدث للعقـل .

● المذهب المثالى

الحس بغير مادة

بقلم : أرثر استون لوقا

[ارثر أستون لوقا أسـتاذ الميتافزيقا فى كليـة ترينتى بدبلن . ولقـد ألف العـديد من الكتب والمقـالات عن اللامادية وفلسفة جورج بركلى] .

تمشيا مع النظرية القديمـة فى الادراك الحسى ، التى بنيت على تعاليم أرسطو ، هناك عاملان يمكن التفرقة بينهما فى كل حالة من حالات الادراك الحسى . أولا ـ الكيفيات الحسية أو الظاهريات ، يعنى المعطيات الحسية ، التى تدرك بالفعل عن طريق الحس . وثانيا ـ الجوهر المادى الذى لايدرك فى ذاته ، والذى ترتكن اليه الكيفيات والظاهريات . وفى كل حالة من حالات النظريات المادية ، تعد المادة ضرورية للادراك الحسى ، وان كانت هى الشيء الذى لاندركه ، لذا سميتها بالراسب a residuum ومادامت هنـاك نظرية للمادة سـيظل الحال هكذا . واذا نظرنا نظـرة دقيقة وموجبـة ، وبغض النظـر عن ظاهرياتهـا ، فانهـا سـتبدو لنـا كأنهـا بسـاط مفروش ، ولكنـه بساط خال من الكيفيات ، يبسط تحت جميع المظاهر الخارجيـة الواضـحة للمحسوسـات . واذا تحدثنـا بطريقة أكثر تقنية قلنـا ان المادة بمثابة بنيـة أساسية per se ، لا تدرك ، ولا تقبل أن تدرك ، « تسند الكيفيات الحسية كاللون الأحمر والخشونة والصوت المرتفع . فجميع هذه الحالات كيفيات per se ، لاجوهرية . والمادة هى التى تمنحها السند الذى ترتكن اليه ، « وتضفى عليها المظهر المادى » . ويقـال ان العاملين على السواء ضروريان للوجود الحق والادراك الحسى ، ويقولون أن الكيفيات الحسية واهيـة وعابرة ومتقلبة ، والمادة هى التى تمنحها الصلابة والثبات والصمود . ويقولون

نقلا عن كتاب Sense Without Matter (١٩٥٤) تأليف : Arthur Aston Luce

أن المادة هي كل شيء في الظلمة الحالكة ، ولولا الكيفيات الحسية التي تكشفها ما أمكنـــا التعرف على أي شيء على الاطلاق عنها ، وهكذا يكون عالمنا الخارجي ببريقه وصلابته نتاجا لهذين العاملين : الكيفيات الحسية والمادة · نعم أن كل شيء خارجي أو جسم نتاج لهذين العاملين بالذات · فالحذاء والمركب وقطعه الشمع : كل هذه الأشـياء مؤلفة من جزئين على نحو شبيه بالمكسرات ، أي لها قشرة ولب ، والقشرة هي اللون الأحمـر أو اللون البنى والصلابة والنعومة والصوت والرائحة والمذاق ، وأي شيء يمكن الاحساس به · أما ماهو خلاف ذلك ، فانه اللب والجوهر والبنية الأساسية ، أي المادة ، التي اذا نظر اليها كمادة بحتة كان من المتعذر ادراكها تماما ·

هذه هي نظرية المادة ، أو الجوهر المادى التي عرفها اليونانيون بحدسهم في قديم الأزل في صورتها البسيطة العارية ، وفي غموضهـا الصفيق · ولقد لصقت هذه النظرة في رؤوس الشباب البريء ، الذي لايدرك أي شيء ، وتكررت مرارا حتى حفظها عن ظهر قلب الذين يعلمون والذين لا يعلمون · وأغلب الخزعبلات تموت بصعوبة ، فالنظرية تلقى احتراما وتعظيما دون أن تفهم · والحق أنهـــا صـعبة الفهم ، ولعل ما تحظى به من زيادة في التبجيل يرجع لذلك · لقـد كان القـدماء يبجلونها ويقدرونها بوصفها غطاء لا بوصفها بساطا · وكانت لاتحل أية مشكلات ، ولا تقدم أي عون ، ولكنها تزيل بعض الصعوبات من أمام الأنظار · فهي بمثابة مثل أعلى للثبات وســط تحول الأشياء في عالم متغير ، وتوحى ايحاء يقابل بالترحاب بوجود يد خفية ومعيار مطلق وراء الستار ، وهي تقدم هذه الأشياء دون أن تطالب طبيعة الانسان الأخلاقية والروحيـة بأي مقابل ، ولكن هل هي حقيقية ؟ كلا انها ليست كذلك · وهل تلقى أي ضوء ؟ كلا انها لاتلقى أي ضوء · اذ تتصاعد منها روح القبليات والتجريدات ، وأشك أنهـــا قد هدفت يـوما من الأيام الى الحقيقة ، مثلما يفهم الواقعيون هذه الكلمة ، وأشك في أنها قد قصدت يوما ما التزويد ببيان يحرص على قول الحق عما يدور بالفعل ، عندما يرى الانسان أو يلمس ، انها تحاول تيسير بعض صعوبات في نظريات الادراك الحسي والتغير ، ولكنها تعتم مشـــكلات أخرى ، وتبعدها عن الأنظار · انها تسعى لجعل الظلمة شيئا مرئيا ، ولا تلقى أن ضوء ····

وأتساءل بالتأكيد : « هل المادة موجودة ؟ » · وأجيب كلا · غير أنى أسأل أيضا سؤالا بناء أعمق : « ما هو على وجه الدقة ما أراه وألمسه » ، فاذا عرفنا على وجه الدقة ما نراه ونلمســه ، أو بعبـــارة أخـــرى ،

ما نحسه ، فان التساؤل حول المادة سيحسم نفسـه على الفور ، فنحن ندرس الادراك الحسى حتى نتعرف على وجه الدقة على ما يدركه الانسان حسيا اعتمادا على الحس ، ولقد كانت المـادة دائما الملاذ الفكرى الأخير لمذهب الشك ، والمعرفة الناقصة • ولا يثق المادى فى حواسه ، وينتقص من مكانتها ، ويرفضهـا كدليل ، ويعتقد أن الحس بغير مادة ، لا يعنى شيئا ، ويذهب هذا الجدل بعيدا ويعمق ويزيغ رؤية الانسان للأشـياء الروحيـــة ، والواقع بأسره تبعا لذلك • ويعتقد المادى أن ما هو حسى خال من المادة لايمكن أن يوجد كشىء ، ولا يمكن أن يكون علة ، وتتعذر التفرقة بينه وبين الحلم ••••

فأنا أفتح عيناى وأرى • فماذا أرى بالضبط ؟ وأمد يدى وألمس • فماذا ألمس بالضبط ؟ • ما الذى نراه ونلمسه على وجه الدقة عندما نرى ونلمس ؟ هذا هو سؤالنا ، ولدينـــا جملة أسماء فى الحيـاة العادية لوفرة الأشـياء التى نراها ونلمسها ، كالأحذية والسفن والشمع والتفاح والكمثرى والبرقوق •• وهذه الكلمات على جانب كبير من الدقة ، وتكفينا للاعتماد عليها فى الحياة العملية ، غير أنها ليست دقيقة بالقدر الكافى من ناحية الفكر ، الذى يعنى بالملامح المشتركة وأوجه الشـــبه أكثر من عنايته بالاختلافات والتمايزات • والآن عندما أرى سفنا وأحذية وتفاحا •• الخ ، فما هو بالضبط ما أراه مشتركا بين كل ما شاهدت ؟ انى أرى ألوانا ودرجات للألوان وضوءا ومظاهر مختلفـــة وخطوطا وأسطحا مضيئة • هذه هى الأشياء التى أراها بالفعل ، وأسميها ضمنا بالمعطيات المرئية • انها الأشياء الأزليـة لحاسة النظر • وعنـــدما ألمس الأحذية والسفن والتفاح •• الخ ، فما هو الشىء المشترك الذى ألمســه على وجه الدقة فى هذه اللمسات ؟ انى ألمس أسطحا جامدة وناعمة ، وساخنــة وباردة ، سائلة ، ومقاومة ومتجاوبة (وبالمعنى الأوســع لكلمة ألمس) ساخنة وباردة ودافئة وفاترة ، هذه هى الأشـياء التى ألمسها بالفعل ، وأسميها ضمنا بالمعطيات اللمسية أو الملموسة ، أنها الأشياء الأوليـة لحاسة اللمس •

وتتطلب منا نظرية المادة ــ كما رأينا ــ أن نعتقد أن كل مثل من أمثـلة المدركات الحســية يحتوى على عاملين يمكن التعرف عليهما ، وتمييز كل منهما من الآخر ، يعنى الموضـوع الفعلى للحس ، والمعطيـات الحسية الفعلية التى تدركها العين أو الأذن أو اليد أو أى عضو حسى آخـــر ، والجوهر المادى ، الذى هو ذاته لايدرك ، ولايقبل الادراك ، والذى يسند المعطيات والحسية ، والدعوى المقـامة ضـد النظرية هى باختصار أنها أقامت قسمة غير محتملة ، تســتند الى تخمينـات غير

محتملة • انها ليست نظرية تفرق تفرقة معقولة بين أجزاء متجانسة فى الشىء مثل القشرة واللب ، ومثل قرن البازلاء وحباته • انها نظرية تطالبنا بتقسيم الشىء المتجانس الى جزئين غير متجانسين ، وغير متوافقين ، وأن نقدم عرضا بترسيخ ايماننا بوجود جوهر مادى ، لا يوجد أوهى دليل من الوقائع لتأييده •

ولنرجع الى أحد الأمثلة ، ونرى كيف تعمل نظرية المادة ، أنظر هناك سترى منضدة من خشب الماهوجنى ، لونها بنى بصفة رئيسية ، ومعرقة ومحببة بألوان فاتحة ، وملمسها صلب وناعم ، ولها رائحة وصوت وطعم • غير أنى لست بحاجة الى المبالاة بهذه الأشياء ، لأنى أعرف المنضدة عادة من لونها ، ومن طريقة تشكيلها ، ومن شكل خطوطها الفاتحة ، وظلالها ، واذا شعرت بارتياب فى ذلك باستطاعتى أن ألمسها ، وأشعر بملمسها ، وبوسعى أيضا أن أرفعها عن الأرض • انها منضدة محسوسة • وبمقدورى أن أثقبها وأن أسحى سطحها أو أحرقها بالنار ، وأحولها الى رماد ، دون أن أهتدى الى شىء من الأشياء التى بوسعى وامكانى أن أحس بها • فهى مؤلفة من معطيات حسية صرفة sensibilia • غير أن نظرية المادة قد أدخلت اعتبارات مختلفة كلية ، فهى تطلب منى أن أعتقد أن جميع هذه المعطيات الحسية لا تمثل المنضدة الحقة ، ويطلب منى أن أعتقد أن وراء المنضدة التى أراها وألمسها توجد منضدة أخرى ، أو منضدة مساعدة ، أى منضدة بعيدة الاختلاف ، لا ترى أو تلمس أو تحس ، على أى نحو آخر • انها منضدة يسلم بوجودها ، وان كانت لها أهمية كبرى لأنها هى المنضدة الحقيقية ، المادية التى لا تتغير • أما المنضدة التى أراها وألمسها فهى مجرد شىء ظاهرى متغير غير ثابت وعابر • وللمنضدة المرئية الملموسة المحسوسة لون وصلابة وغير ذلك من الكيفيات التى تعرف بها الأشياء الحسية وغير ذلك ، أما المنضدة الحقة فليس بها أى شىء من هذا القبيل •

فيالها من ثنائية مستحيلة ! فهذه المنضدة المصنوعة من خشب الماهوجنى قد ثبت أنها منضدتان ! احداهما منضدة حسية ، والأخرى منضدة مادية • واذا نظرت الى هذه النظرية بمنظار الجد ، ونفذت الى أعماقها ، سأضطر الى اعتقاد نفس الشىء عن جميع الأشياء المحيطة بى • فحيثما اتجهت بنظرى سأرى كل شىء مزدوجا ، وسأتلمس طريقى فى الحياة متجها الى هدفين ، وبذلك تتضاءل كفايتى •

ولم يعرض أى بيان عقلانى عن كيفية وجود هاتين المنضدتين • ومن المتعذر عرض مثل هذا البيان • فبعض يقول : ان المنضدة الحقة

هى علة المنضدة الظاهرية . أما كيف تعمل العلة فسر ذلك عند ربى . وبعض يقول : ان المنضدة الحقة هى الأصـــل ، والمنضـــدة الظاهرية مستنسخة منها ، ولكن هل ستكون هناك أية فائدة لنسخة غير مشابهة تشابها كاملا لأصلها ؟ . ومن الذى أجرى النسخ ، وما هو هذا النسخ ، ولماذا ؟ لقد تركوا المنضدتين هنـــاك بجوار بعضهما البعض ، بغير أى اتصال بينهما ، وبلا تفسير لهذه الحالة . فهما ليسا مظهرين لشىء واحد ، وليســا جزءين من شىء واحد ، فليس بينهما أى شىء مشترك ، انهما لا يقبلان المقارنة . ولايمكن القول بأنهما متفرعتان من أصل واحد ، فهما غير متجانستين . أنهما تمثلان قطبين متناقضين من الفكر ، يختلفــان اختلاف الليل والنهار . اذا وجد أحدهما اختفى الآخر ، ومن المستحيل المزج بينهما . فلا يمكن اعتبارهما مكونين لشىء واحد ، لأنهما متناقضان. فاذا كانت المنضدة ملونة فعلا ، فانها لن تكون مادة ، واذا كانت المنضدة مادة فعلا فانها لن تكون ملونة . **ان افتراض جسمين غير متجانسين فى الشىء الوحيد المحسوس يتضمن تناقضا ذاتيا يحطم وحدة الشىء ....**

ثم تأمل مسألة الدليل . فما هو الدليل الذى يثبت وجود المادة ؟ وهل هناك دليل على وجود مادة غير محسوسة ؟ . وما الذى يسوقنى الى الاعتقاد بأن هناك مادة فى المذهب المادى ؟ فعليك أن تطرح جانبا سوء الفهم الذى خلط المادة بالمحسوس ، وأن تطرح جانبا الهوى الذى قد يقول بوجود هوية بين المادة والذرة الكيمائية ، أو الأشياء التى تتحدث عنها الفزياء النـووية ، التى هى أصغر من الذرة ، نعم اطرح جانبا خرافة الكم الثابت للطاقة ، الذى انبعث منه كل شىء واليه يعود . أطرح جانبا مجرد التقليد وترديد مايقوله الثقات من غير العارفين . وهل هنـــاك أدلة فلسفية للمادة فى المذهب المادى ؟ . ليس هناك دليل على الاطلاق . فمن يكتبـون عن المادة يتمسحون بالأهواء والجهالة دفاعا عن المادة ، ويزعمون ويسلمون أن الجميع يقبلون وجود المادة . ولا يحاولون البتة أن يثبتوا وجودها اثباتا مباشرا . فليس هناك دليل مباشر يمكن الحصول عليه . انهم يحـاولون توطيـد المادة توطيدا مباشرا فيقولون أنه من غـير المستطاع وجـود شىء خارجى الا اذا كانت هناك مادة . وما لم توجـد المادة ، لن توجد علة للتغير فى العـالم الخارجى ، أو أى محك للتفرقة بين الحقيقى والزائف ....

ولقد فحصت فحصا دقيقا ما يجرى فى حـالة الرؤية واللمس ، وبينت أنه لا موضع للمادة هناك ، وفحصت الموقف الادراكى السوى ، وبينت أنه لا يحتوى على أى دليل على وجود مادة ، وأن الاقحـام المفتعل

للمادة يدمر الوحـــدة بين الشيء المدرك وعالم الحس · ويقع الالتزام بتقديم دليل على عاتق المادى ، وبمقدور اللامادى أن يتحداه لتقديم هذا الدليل · فاذا كانت هنـــاك مادة ، فان عليك أن تكشفها لنا · واذا كان هناك دليل على وجود مادة ، فاكشف عنه · ولكن لا المادة ولا الدليـــل الصحيح على وجودها قد ظهرا قط حتى الآن ·

وأثبت أول فحص دقيق لدليل وجود المادة أنه دليل ردىء ، انه ليس دليلا على وجود المادة ، ولكنه دليل على وجود الروح بعد مسخها ، وأنا أشير هنا لفكرة **الدعامة** ، وترجـع قوة المذهب المادى (وضعفه فى نهاية الأمر) الى استغلاله للشعور الشبيه بالعقلانى الذى يعتقد ان لكل صرح أعمدة مادية ـ على نحو ما ـ يستند اليها · ويلجأ الناس للمادة سعيا وراء الدعم · فهم يعرفون معرفة باهته ان كل شيء يحتاج الى دعم · غير أنهم اذا حللوا هذا الاحتياج ، فانهم سيضطرون الى البحث عن الدعم فى مكان آخر ·

ان المعطيات الحسية تحتاج الى دعم · ومنذ عهد أرسطو حتى العصر الحالى ، زعم الناس أن المادة هى التى تزود بالدعم المنشود · ولكن هل بوسع المادة ـ لو وجدت ـ أن تزود بنوع الدعم الذى تحتاجه المعطيات الحســية ؟ ان الدعم بمعنــاه الحرفى ليس موضـــوع بحث ، وليست المعطيات الحسية فى حاجة الى دعم حرفى : ولو أنها احتاجت الى ذلك ، فان المادة ـ افتراضا ـ لن تزودها به · وبالمعنى الحرفى للكلمــة ، فان المعطيات الحسية « تعطى » مدعمة : وما يدعمها هو المعطيات الحســية الأخرى · فالمنضدة تدعم الكتب ، والكتب تســتند اليها ، ولولا ذلك لسقطت على الأرض · وبمقدورى أن أرى الكتب ، وأشعر بوجود اتصال فعــال بين الكتب والمنضـــدة · وهذا الدعم مرئى وملموس · والدعـم بمعناه الحرفى ، يعنى الدعم الحسى ، وهو ما ليس بوسـع المادة بحكم تعريفها e vi termini أن تعطيه ، لأن المادة لا يمـــكن أن تـرى أو تلمس أو يحس بها على أى نحو آخر ، وما يدعم المنضدة هو أرجلها · وتدعم أرضية الحجرة كليهما · والأرض هى دعامة أرضـية الغـرفة · وفى جميع هذه الحالات ، ثمة تجانس بين الدعم والأشـــياء المدعمة · فكلاهما ينتمى الى عالم المحسوســـات sensibilia · أما المادة فليست محسوســـة · ولا تجانس بين المادة والحس ، كما يفترض · ومن ثم لا يمكن أن تكون المادة ـ لو وجد شيء من هذا القبيل ـ دعما للمعطيـات الحسية بالمعنى الحرفى للدعم ·

وليس بمقدور المعطيات الحسية أن تقف معلقة فى الهواء · فهى تتماثل وحروف الأبجدية والأعداد وأية رموز أخرى فى حاجتها الى دعم العقل والروح · فهى بحكم صوغها وطبيعتها ليست مطلقـــة ، ولكنها نسبية للعقل أو الروح · ولن تزيد الأبجدية المعلقة فى خواء عن هراء · وتعنى آثار الأقدام على الرمال ما تركناه من أثر عليها ، والأمـر بالمثل عندما نرجع الى شيء مماثل سبق فهمه ، لأن هذا ييسر فهمنا لما يصادفنا بعد ذلك ، واذا حللنا كلمة understand الانجليزية سنرى أنها تعنى « الوقوف تحت » ، يعنى الاستناد الى العقل والى دعم يقف تحته ويستند اليه · ويدل المطلب الذى ينادى به المادى بالمـادة كموضـوع مطلق للادراك الحسى يتمايز والمعطيات الحسية على شيء من الحماقة ، من حيث المبدأ ، لأنه لا يعمل حسابا للدور الذى يقوم به عقله ، الذى يدعم موضوعه ، مثلما يدعم عقل القارىء الفهامة معنى الصفحة المطبـوعة ، ويستخلص منها ما بثه عقل الكاتب فيها · فليست المعطيات الحســية بالعقل ، أو بحالات للعقل ، لأنها لاتفكر أو تريد أو تخطط أو تهدف ، ولكنها منبعثة من العقل وللعقل ، وتدل على وجود عقل ، ويتعذر فهمها بمعزل عن العقل ، وهذا ما يفسر لماذا تعجز هذه المعطيات عن الوقوف وحيدة ، وتحتاج الى دعم ، أو الى هذا **النوع** من الدعم الذى فى مقدور العقل أو الروح وحدهما تقديمه · والالتجاء الى المادة سعيا وراء مثل هذا الدعم ضرب من السخف ، لأن تعريف المادة هو أنها شيء ليس بالعقل أو الروح · وليس فى مقدور المادة دعم موضوعات حواسنا ، لا من الناحية النظرية أو الناحية العملية ، حرفيا أو مجازا ، وما أشـبه الالتجاء الى المادة سعيا وراء الدعم ، بالارتكان على جدار مائل ·

وليسمح لى بتأكيد الحجة التى ذكرتها بالاستشهاد بواقعة بمقدورنا مشاهدتها فى احدى القضايا المشخصة · فاذا كان للمادة أية كينونة ، فانى أتساءل أين هى ؟ ، فلو كانت المادة كائنة ، فانها كائنة فى أشياء ، وفى جميع الأشياء الخارجية ، ونوع الشيء الذى نختاره لهذا الدور ليس هنا أو هناك · وسوف أختار شيئا لطيفا باستطاعتنا أن نتعرف عليه وأن نكتشفه ، انه شطيره اللحم الكستليته الضـــانى (أين هى الآن ؟) · فاذا كان للمادة كينونة ، فانهـا كائنة فى هذه الشطيرة من اللحـــم ، وسأسأل أين ؟ أين هى ضمن هذه القطعة من اللحم ؟ وأين يحتمل أن تكون ؟ · فاذا أنت انتزعت من هذه الشـطيرة المتـاحة جميع المعطيات الحسية ، بما فى ذلك معطياتها الحسية ، التى بوسعك الحصول عليها ، وانتزعت ما بالخارج ، وما بالداخل ، وما باللحم وما بالعظام وما بالدهن وما بالهبر ، وسواء أكانت مطهوة أو غير مطهوة · نعم انك اذا انتزعت

ما تحسه ، وما قد تحسه ، فما الذى سيتبقى بعد ذلك ؟ هناك معطياتها المرئية ، أى ما لونه بنى أو أحمر أو أسود أو أبيض ، وجميع الأصباغ الأخرى فى أسطحها وأسطحها بالقوة ومركزها . وهناك معطياتها الملموسة من خواشن ونواعم وأسطح صلبة ولينـــة ، مطاوعة أو مقاومة جامدة أو سائلة ، وتلك المحسوسات المتنوعة التى تســمح لسكينى بالانزلاق فيها بسهولة أو التى تعوق حركة السكين ، ولها أيضا معطيات مسموعة . فالأجزاء المدهنـــة تحـدث صوتا مختلفا عن أجزاء الهبر والعظام عنـــد اصطدامها بالشـــوكة والسكين ، ويشترك فى رائحتهـا عندما تكون خاما أو مطهوة الكثير من الروائح والمذاقات . ويربط الهواء وبخار الماء بينها وبين سياقها المحسوس عندما يظهر فى شكل أبخرة ودخان متصاعد عند وضعها فى النار ، ولقطعة اللحم أشكال محسوسة قد تعنى الرسامين، بل وعلماء الهندسة ، ولها مضمون محسوس وصورة محسوسة يهتم بها علماء الكيمياء والفزياء بوجه خاص ، وليست هذه الجوانب بأقل اتصافا بالمحسوسية ، وأقل حقيقة من المضمون والصـــورة اللتين يهتم بهمـــا القصابون وربات البيوت والطهاة ، حاول أن تنزع جميع هذه المعانى من فكرك ، وانتزع جميع المعطيات الحسية من شطيرة الضأن ، فما الذى سيبقى ؟ لن يبقى أى شىء . فبعد انتزاع محسوساتها وصورها الحسية المختلفة ، فانك تكون قد انتزعت جميع ما فى شطيرة الضأن ، ولن يبقى أى شىء ، أما المادة فموجودة فى لامكان ، ان المادة بدون معطياتها الحسية لا شىء على الاطلاق . لا شىء سوى مشاعر تافهة متراكمة أو متناثرة . لا شىء غير شبح للشىء التقليدى . لاشىء ســـوى علامة استفهام من المتشكك .

فهل المادة مطلوبة كعلة ؟ ، وهل تعد المعطيات الحسية أو الكيفيات الحسية (ولك أن تسميها ما تشاء) معلولات للمادة ؟ وهل الموضوعات المباشرة لحواسنا معلولات للمادة ؟ . وهل المعطيات الحسية شـديدة الافتقار الى القدرة العلية بحيث يتوجب التسليم وافتراض وجود جوهر مادى ؟ ، وهل يعد الجوهر المادى المحـــرك القابع خلف الكواليس ، والمصدر الخفى للفعل العلى ؟ .

هل المادة مطلوبة كعلة ؟ لقد جمع هذا السؤال بين جملة أسئلة ، فما الذى يعنى بكلمة علة ؟ . وهل تعد المعطيات الحســية علة ؟ وهل بمقدورها ، أن تحدث تغيرات تبدأ منها ؟ . ولو كان بوسعها ذلك فهل تبقى بعد ذلك أية حاجة للمادة ؟ واذا لم يك بمقدورها ذلك . فكيف تقوم المادة بهذا الدور المساعد ؟ ولو كانت المعطيات الحسية سـالبة ،

فكيف يستطيع الجوهر المادى تنشيطها ، ومنحها القدرة على أن تصبح علة ؟

ان هذه الأسئلة تجيب على نفسها على ضوء التحليلة الآنفة لكلمة « علة » . وكلمة « علة » كلمة غامضة . فبمعنى ما ، فان المعطيات الحسية قادرة على القيام بدور العلة . وبمعنى آخر ، فانها غير قادرة على ذلك . ان المعطيات الحسية ليست أرواحا ، فليس بمقدورها أن تحدث أية تغيرات تبدأ منها ، وليس بوسعها أن تعدل مسار الأحداث تعديلا مباشرا ، لأنها سالبة . ولكنها بطريقة غير مباشرة ، قادرة على احداث معلولات ، لأنها اشارات تنبىء بما سيأتى . ويقرأ الناس هذه الاشارات اعتمادا على العقل القادر على قراءتها وفهمها والتصرف بموجبها . مثلما تقوم أعمال شكسبير بدور فعال من خلال العقول التى تقرؤها وتفهمها وتتصرف بموجبها ، وتساعد الاشارة السالبة بطريقة لا مباشرة على ظهور التغيرات التى لم تحدثها ، وفى هذا المقام ، وفى هذا المقام وحده ، تعد الموضوعات الحسية السالبة المحيطة بنا بمثابة علل . أما بالمعنى الصحيح للكلمة ، فانها ليست عللا ، ولكنها أشباه علل ، وليس من المستبعد — وان كان من الخطأ — أن ينسب اليها فضل القدرة على احداث تغيرات تبدأ منها ، ومن ناحية الأغراض العملية ، يكفينا أن نعرف أن الدخان والنار يتلازمان تقريبا ، بصفة دائمة ، فعندما نرى الدخان ، فاننا نتوقع وجود نار ، ونلتزم الحذر ونتخذ الاحتياطات المناسبة . ان هذا أقصى ما تبلغه الارتباطات العلية ، فالدخان اشارة سالبة لما سيأتى ، وقد يستحثنى ويستحثك على العمل ، ولكنه لايتصف هو ذاته بالفاعلية . فالدخان الأسود هناك ، وسرعان ما سينفجر ويتحول الى لهب أحمر ، مالم أسارع باخماده ، ان هذا هو المعنى الوحيد الذى يمكن أن يفهم من القول بأن الدخان الأسود علة اللهب الأحمر . فالدخان لايدفع النار الى البدء فى الاشتعال ، وليس الدخان العلة الحقيقية للنيران ، انه مجرد « سابق » ، اعتدنا الظن بأنه يسبق ظهور النار . فعندما نراه أو نشم رائحته ، فاننا نتوقع عواقبه . والشيئان متصلان لاينفصمان فى عقولنا ، لأنهما كثيرا ما يتداعيان فى الطبيعة . والتداعى قائم فى الطبيعة ، مثلما هو قائم فى العقل ، وأحيانا نرى الدخان قبل أن نرى النار . وفى أحيان أخرى ، نرى النار قبل الدخان ، ومن هنا فلن يجدى كثيرا ما الذى سنسميه بالعلة ، وما الذى سندعوه بالمعلول . انهما جزءان من عملية واحدة ، وكل ما نحتاج الى معرفته هو أن الحادثين مرتبطان عليا ، بمعنى أن أحدهما يدفعنا الى توقع الآخر . واذا قلنا أن النار هى علة الدخان ، لن يكون قولنا أصدق من القول بأن الدخان علة النار . فالحكمان فى

مستوى واحد ، من حيث الصدق والزيف ، وفيما يتعلق بالأهميـة ، أو تحديد من أين تبدأ حركة بدء التأثير العلي ، فان الحادثين كليهما ، يصلحان للقيام بدور العلة أو المعلول على حد سواء ، ومن ناحية العلية الفاعلية أو الحقة ، ليس أى منهما بعلة أو معلول للطرف الآخر ٠

ويجىء بعد ذلك السؤال عن المادة ، فالمعطيات الحسية ، كما هى كذلك ، سالبة ٠ وربما أمكن النظر اليها على أنهـا تعمـل بطريقـة لامباشرة ، استنادا الى أهمية هذه المعطيات للعقول ٠ فهل تدخل المادة فى العلة ؟ وهل يعد الجوهر المادى بمثابة اليد الخفية الكامنـة وراء الكواليس ٠ كلا فليس للمادة أى دور فى مسألة العلية طبقا لأى معنى من معانيها ، فالمادة لا أهمية لها للعقل تبعا لهذا الفرض ex hypothesis وليس لها مفعول العلة ، فليس بمقدور المادة أن تحدث المعطيات الحسية أو تمكنها من القيام بذلك ٠ نعـم لا مكان للمادة فى العلاقة العليـة ، وكل ما تقوم به هو اضفاء حالة من الغيبية ٠ والناس على استعداد تام للترحيب بالغيبيات ٠ فهم يدركون أن موضوعات الحس ليست قـادرة على القيام حقا بدور العلة ، ولكن هناك حاجـة الى سبب يفسر التغير ٠ وبدلا من أن يفكروا فى المشكلة تبعا للخطوط المشار اليها آنفا ، فانهم يقفزون الى فرضية الجوهر المادى ، الذى يضع المشكلة على الرف ، ويبعدها عن الأنظار ٠ انه حل سـهل يوفر على الناس عناء التفكير ٠ فهم يقولون لأنفسهم : ان المادة شىء لانعرف ماهيته ، لانعرف كيف يقوم بدوره ، وهكذا تغرق المشكلة فى بحر من العماء ٠

فاذا طرحنا جانبا العماء والتعمية ، فاننـا سنرى أن ما يتطلب التفسير هو بعض الأحداث المحسوسة ، أو بعض أحداث فى عالم الحس ٠ فنحن نرى الماء يرتفع ، ونـرى تغير لون ورقة عباد الشمس ، ونشعر بلين الشمع ، ثم بازدياد ليونته « فما هو سر ذلك ؟ » « ما الذى تسبب فى هذا التغير فى عالم الحس » ، ويجاب عن ذلك بالقول « بأنه الجوهر المادى للقمر أو الشمع أو المادة الحمضية » ، أو قد يقـال ان الجوهر المادى ــ بوجه عام ــ قد فعل ذلك ، وقد تحدث هذه الاجابات شيئا من الارتياح الغيبى عند العقول الغيبية ٠ غير أن مثل هذه الاجابات ليس لها أية قيمة توضيحية ، لأنها لاتلقى أى ضـوء على المشكلة ٠ فالانسـان يرغب فى معرفة العلل ، ويحتاج لمعرفتها حتى يصبح قادرا على التحكم فى الأحداث ، فاذا عجز عن تعديل مسار الأحداث ، كان عليه أن يعدل مسلكه لكى يتواءم والأحداث ٠ انه يحتاج الى القدرة على تحريك عضلاته وأطرافه فى الوقت المناسب ، وأن يدفع وينتزع الأشياء الحسية التى

تصطدم اصطداما مباشرا بجسمه ، وكى يتحقق ذلك على نحو ينفع الانسان أعظم نفع ، يحتاج الانسان الى اتجاه ما نحو الأشياء · انه يحتاج الى الوثوق فى الكون ، ويحتاج الى القدرة على الثقة فى مسار الكون وتكوينه ونظامه وانتظامه وحكمته وخيريته · فالانسان روح وحس · وكى يشكل الانسان تجربته ، ويوجهها ، فانه يحتاج الى معرفة العلل الروحية والمعلولات الحسية · ولا مكان للمادة تحت أية مقولة منهما ، فتبعا لهذا الفرض ، ليست المادة روحية ، ولا هى حسية ، ومن ثم فانها لا تضيف شيئا الى معرفة العلل · اذ لا يمكن أن ترى أو تلمس ، ولذا فليس فى مقدورها أن تخبرنى متى وكيف أدفع ، أو أنتزع ما حولى من أشياء أراها أو ألمسها · وحتى لو وجدت المادة ، وتوافرت لها قوة سحرية تمكنها من تغيير الأشياء الحسية ، والتأثير فى التغيرات المرئية والملموسة ، فانه ليس بوسعنا أن نعرف أن هذه المادة هى التى أحدثت هذا التغيير · فليس فى مقدورنا أن نربط بين العلة ومعلولها · ونحن لن نزداد حكمة اذا وجدت المادة ، ولن تساعدنا على بناء أى شىء فوقها ، كأساس للتجربة أو الفعل مستقبلا · فلن يكون فى استطاعتنا أبدا أن نعرف أن هذا الشىء الخفى كان علة هذا التغير المرئى ، أو أن هذا الشىء غير الملموس كان علة هذا التغير الملموس · وبعبارة أخرى ، لو كانت المادة هى العلة ، فانه لن يتوافر لنا قط دليل حسى يعرفنا علة أى معلول حسى · ولن يكون للمادة أى نفع عملى فيما يتعلق بمعرفة العلل · ولن تحدث أى اختلاف عملى فى الحياة وعالم التجربة · ان اختراع « المادة » واقحامها فى العلاقة العلية مسألة سيكلوجية بحتة ، لأنها تحقق نوعا من الارتياح للمشاعر · وليس من السهل نقضها · كما أنها لن تؤثر البتة فى طبيعتنا الأخلاقية والروحية ·

اننا معشر البشر أصل مايحدث من تغير · ونحن نعرف اننا نفعل ذلك · فنحن ندفع ونجذب ونكافح ونهدف ونحاول ونحدث المعلولات · وغالبا ما يحدث ذلك ، عن طريق تأثرنا فى أعمالنا بمعلولات ارادة شخص آخر · غير أننا قادرون على احداث المعلولات ، والتعرف عليها باعتبارها معلولات قوانا العلية ، فنحن العلل الحقة · نعم اننا العلل الحقة القادرة على البقاء والصمود ، ومن ثم فاننا نكون عللا جوهرية ، أى جواهر لها أثر على · ونحن قادرون على ادراك العلل الروحية فى أعماقنا بقدر ما على أقل تقدير · وهى العلل الحقة الوحيدة ، التى باستطاعتنا فهمها على الاطلاق · ونحن نعرفها اعتمادا على الجهد الكامن فينا ، وبفضل الاستذكار والتبصر ، بوسعى أن أعرف كيف أصعد سلما ، فأربط نفسى برباط على بسطحه ، وأربطها برباط على آخر بأعلى هذا السلم ·

وثمة اختلاف بين صعود السلم ، والسقوط من فوقه • ويلزم لتفادى ذلك بذل جهد على • وبمقدورى أن أنظر الى النار والشمع ، دون بذل جهد مشابه للحالة السابقة • فبوسعى أن أستمر فى النظر اليهما • وبمقدورى أن أشاهد الشمع ، وهو يلين ويذوب فى بوتقة على النار ، ولا أشعر بأى احساس بالجهد • فالتحول فى الحالة المشار اليها متوقع ويتحقق شيئا فشيئا • انه علاقة بين حادثين أو حالتين ، انها علاقة نسقية بسيطة تتم فى زمان • انها علاقة بين سابق ولاحق ، خالية من أى ايحاء بالعلية الحقة • ويتطلب صعود السلم (ارتفاعه مترا ونصف) واعادة الصعود عليه أيضا جهدا ذهنيا وبدنيا • واذا رفعت الى أعلى بمقدار متر ونصف بوساطة آلة رافعة ، ثم نزلت ثانية ، فاننى لن أبذل أى جهد ، وفى الحالة الأولى ، كنت أنا علة الصعود والنزول ، وفى الحالة الثانية ، لم يك الأمر كذلك • وما يحدد الاختلاف هو الجهد المبذول • فالشعور بالمجهود سواء كان عضليا أو ذهنيا ، أو مختلطا هو علامة القوة العلية المتناهية ، وتنتمى هذه القوة العلية الى القوة الحيوية anima ، أى الى الروح ، ولكنها لاتنتمى الى أى جماد •

فكيف اذن نفسر النظرة المقابلة ؟ ولماذا يقع الناس فى الخطأ ؟ ولا داعى لأن أقول : لماذا يتقبلون وجود علة حيث لايوجد أى شىء من هذا القبيل • وسأقول بدلا من ذلك ، لماذا ينسبون القدرة العلية للجمادات أو الأحداث الخالية من الحياة ؟ • لماذا ينسبون القوة العلية للشمس والقمر ، بدلا من نسبتها الى القوة التى تحركهما ؟ • بالميسور ذكر اجابات عديدة ؟ واحدى هذه الاجابات تستحق الذكر هنا بوجه خاص • انه الشعور بالتعاطف • وقد تكون هذه الحالة من مخلفات العقائد القديمة التى يطلق عليها اسم الاحيائية animism أو hylozoist ، أو قد تكون نتيجة طبيعية لما بيننا وبين الأشياء المحيطة بنا من وحدة حقة • فنحن نشعر معها ، ولها ، وفيها ، ونسقط أنفسنا فيها ، مثلما فعلت اليس الصغيرة عندما أسقطت نفسها على عروستها ، ولعلنا نذكر كيف صور هوميروس النهر محاربا ، أو كيف أرقص وردزورث نبات السيراس • ان ما قاما به هو مجرد اسقاط مشاعرهما على العالم الخارجى ، وساعد ذلك على شحن هذه الأمثلة بالروح الأدبية ، وكسب تعاطف القارىء ، وثمة مصدر كبير واحد للعلة الثانية الجامدة المزعومة ، فليس هناك مثل هذه العلة ، غير أننا قد اخترعناها ، واخترعناها من قبيل التعاطف • فكما يفعل الشعراء ، وغيرهم من جهابذة اللغويين ، فأننا نسقط شظايا وشرارات من أفعالنا على موضوعات سالبة ، ونتقمص شخصية الجمادات ، ونتخيل ما يتحتم

علينا القيام به لو كنا مكانها · والدخان يعقب النار غالبا ودائما ، انه العلل والمعلول كما نقول · ونحن نرى النار ، ونتوقع ظهور الدخان ، أو نشم رائحة الدخان ، فننقب باحثين عن النار · ان هذه الأشياء الجامدة السالبة ، التى يسهل تحريكها ، علامات تحذير للعقل · انها تشبه العلل · فهى تدفعنا الى التفكير عليا · غير أن هذا ليس كافيا لنا جميعا ، لأننا كائنات خيالية متعاطفة · ونحن لا نقنع بدور العلل كمحذرات ، ولا نقنع بتسلسل الأحداث ، ولا نقنع بالواقعة المشاهدة التى تقول اذا وجد الدخان وجدت النار ، ومن ثم فاننا نتجه الى تزويق الواقع وزركشته ، ونتخيل أنفسنا داخل هذه المواقف · فعندما ندخن سيجارة مشتعلة ونرى دخانا ، يدفعنا تغلغلنا الوجدانى فى هذا المشهد الى الظن بأن النار قد أحدثت الدخان ، ثم ننظر نظرة غامضة الى السنة اللهب ، وهى تندلع وسط الدخان · وما قمنا به من تزويق وزركشة لايتماشى والحقيقة ، ولكنه يمثل جانبا من استعمال اللغة استعمالا خياليا خصيبا · واذا نظرنا اليها نظرة حرفية ، سنرى أنها قد أساءت الى طريقة عرضنا للحقائق الأولية لوجودنا بوصفنا كائنات حاسة أو واعية ·

والنظر الى المادة كعلة قد مر بتطور مماثل · فلقد نما تصور الشيء المحسوس كعلة عن طريق التغلغل الوجدانى فى الأشياء المحسوسة السالبة الجامدة · كما أن القوة العلية المفترضة للمادة قد اعتمدت على عملية مماثلة من الاسقاط الذاتى اتخذت مظهرا زيناه به وزركشنا الافتراض الأصلى للبنية التحتية السالبة ، وقد فرق أرسطو بين العلة المادية والعلة الفاعلة · والعلة الفاعلة عنده هى تلك التى سميتها بالعلة الحقة ، أما العلة المادية عنده فأشبه بالعلة ال cue · وتقوم العلة الفاعلة بدور علة انجاز الأشياء ، والشروع فى احداث التغيرات ، أما العلة المادية فتمثل الناحية الخامدة والشرط الضرورى للفعل · وكان دور المادة عند أرسطو هو الدعم وليس الفعل ، والمادة عنده سالبة وتصور محدد ، يكاد يكون نفيا · انه لم يك شيئا أو كيفا أو كما ، لأنه كان متضمنا فى الأشياء الحسية والكيفيات الحسية والكميات الحسية · انه شيء بالقوة وبالامكان ، يكاد يكون لا شيء ، وفيما بعد أشار الفلاسفة الى المادة بقولهم أنها « كتلة عقل ميتة خامدة ، وشيء هين غير فعال كان بالامكان أن يغيب عن الأنظار تماما · وكان من الطبيعى أن يحدث تذبذب دام طويلا ، واستقطاب فى النظر الى المادة ، ففهمها بعض على أنها شيء فعال ، ورآها بعض آخر كشيء سالب ، وتشبث آخرون بالفكرة الأصيلة التى وصفتها بأنها بنية أساسية سالبة · وتراءت لهم كبساط مفروش تحت الأشياء الحسية أو كسند يدعمها · واتجه آخرون الى

النظرية الفعالة ، وتصوروا المادة المصدر الحقيقى للتغير فى عالم الحس ، أو اليد الخفية المختبئة وراء الظواهر المحسوسة ٠

وأيدت الاتجاهات الحديثة فى الكيمياء والفزياء الميل الى اعتبار المادة علة فعالة ، وأظن أن كثيرين فى يومنا هذا يتصورون تصورا غامضا وجود هوية بين المادة والطاقة الذرية ، أو الحركة السريعة للأجزاء والجسيمات الدقيقة فى العناصر ٠ وفى العصور الغابرة ، كانت مطرقة « يهووه » هى السلاح السرى للآلهة ، وحلت القنبلة الذرية مكانها الآن ، بوصفها القوة الكامنة وراء الكواليس ٠ فلقد أصبحت « القنبلة » ٠ تتحكم فى سياسات الأمم وتسيطر على اتجاه الفكر ، وتتراءى للجماهير كبرهان موجب يثبت وجود مادة فعالة ٠ ولقد أثر البارود والمواد شديدة الانفجار عندما اخترعا فى الماضى فى الفكر الجماهيرى تأثيرا مماثلا ٠ ولم تتسلط الأضواء على أية عوامل جديدة مرتبطة بهذه القضية عند المثقفين فى عصرنا ، فلم يكتشف أى برهان جديد يثبت وجود بنية أساسية غير محسوسة وراء عالم الحس ٠ ولا تعد « القنبلة » شيئا مستحدثا كبرهان يثبت وجود المادة ، وما عزز الحجج التى ذكرت بشأنها هو الذعر الذى أحدثته ومباغتة الدمار اللاحق لاطلاقها الذى حدث على نطاق واسع ، والحق ان الالكترونات والنترونات وغير ذلك من الأسماء العلمية والتصورات الفعالة فى أيامنا هذه لم تزداد اقترابا من الاحاطة بمعرفة قوة العلة عما سبقها من كشوف للأحماض والقلويات والفلوجيستون ونظرية الجاذبية ٠ غير أن هذه الكشوف التى حدثت فى سالف العصر والأوان لم تقترب من الأبعاد الكبرى للكونيات والأجرام، ومن ثم فانها لم تبهر الخيال ، مثلما حدث فى حالة هذه الكشوف المستحدثة ، وبالاستطاعة تصميم « القنبلة » وصنعها ووصفها اعتمادا على تصور ورموز متنوعة ٠ غير أن مثل هذه التصورات والرموز لن تغير الحقيقة القائلة بأن القنبلة ذاتها شىء حسى من أولها لآخرها ، اذ يستطاع رؤية كل جزء منها ولمسه وسماعه ، بعد تفتيتها الى جسيمات ٠ وما ينطلق من عبوتها وما يصحبها من حركات ، بالمقدور رؤيته ولمسه وسماعه ٠ ان الطاقة الذرية ، مهما ظهر فيها من براعة فى تكوينها ، ومهما كان مقدار تأثيرها النفاذ ، تنتمى كلية الى عالم الاشارات العلية وال cue العلية ٠ فالقنبلة عندما تكون معدة للاطلاق ، وعندما تتفجر وتفجر عبارة عن وفرة من الاشارات المرئية والأصوات ، أما ما يصحبها من مشاعر وما يعقبها من انفعالات ، وما تثيره من انزعاج وشعور بالاشفاق والخوف والذعر يدفعنا الى الهروب فيرجع الى مشاهدتنا لها أو تخيلها ٠ ومن الطبيعى أن نسقط عليها تلك الحركات البدائية التى تبدأ من عندنا وليس

منها • وتستثير تعاطفنا استثارة قوية • لقد كتبت مدام سفينيه sevigne الى ابنتها تقول : « ان لدى ألم فى صدرك » ، فنحن نشعر فى حضرة القنبلة بما قد نشعر به داخل أنفسنا ، ومن ثم فاننا ننسب اليها تلك الجهود والأفعال ، التى هى فى الحق جهودنا وأفعالنا • ويفسر التغلغل الوجدانى empathy أخطاءنا mis-take (*) ، ولكنه لايغير حقائق الوجود ، فليس بمقدور التغلغل الوجدانى أن يحدث قولا من السالب الى الموجب ، أو يحول علة Cue الى علة حقة ، وليست القنبلة الذرية بالعلة الحقة ، لأنها معلول بالمعنى الصحيح للكلمة • لقد صنعتها أرواح متناهية ، وانتفعت وأساءت الانتفاع بمعلولات الارادة الانسانية •

وبذلك نكون قد فحصنا الحجج العلية عن وجود المادة ، وقمنا بايضاحها • وسأجمل ما ذكرت قبل ترك هذا الموضوع • الحجة العلية مدينة بافحامها للزعم بأن الألوان واللمسات وجميع الأشياء الأخرى التى ندركها بالفعل اعتمادا على الحس لا يمكن أن تحدث التغيرات التى نشاهدها فى عالم الحس • وهذا الافتراض صحيح بالنسبة لأحد معانى كلمة « علة » ، وزائف بالنسبة للمعنى الآخر ، حقا ان الألوان ومختلف الأشياء الأخرى أشياء سالبة عاجزة عن توليد الحركة ، أو احداث أصغر التغيرات ، وهذه ناحية • غير أن هذه القاعدة تنطبق بالمثل على المادة ، لو صح أن المادة موجودة ، لأن هذه مجرد طريقة أخرى للقول بأن الأرواح وحدها هى الشىء الفعال حقا ، وأن المادة باعتبارها لا روحية ــ كما ندرك من التعريف ــ ينبغى أن تستبعد بالضرورة كعلة • ومن ناحية أخرى ، اذا قصد بالعلة مجرد اشارة غير فعالة سابقة قد خلقتها قوة كونية وحافظت عليها • بهذا المعنى تكون الألوان وما أشبه عللا ، لأن الكائنات الحاسة ، بمقدورها أن تقرأ معناها وتدرك مغزاها ، وأن تعمل تبعا لذلك، والتسليم بأن المادة اشارة عليه يتضمن سخفا مزدوجا • فاذا توافرت لك اشارة حسنة تماما ومعقولة بقدر كاف ، فلن تكون هناك حاجة للاشارة المادية ، أو لا يكون هناك مكان لها •

وثانيا ــ المادة ex hypothesis لايمكن أن ترى أو تلمس أو تدرك على أى نحو آخر اعتمادا على الحس ، ومن ثم ففى غير مقدورها أن تعمل كاشارة للكائنات الحاسة • وخلاصة القول ، من غير المستطاع اقامة أى حجة صحيحة تثبت وجود العلة استنادا الى تصور العلة أو وقائع العلية •

(*) mis-take ا اسانا تناوله •

أمثلة من المشكلات المعاصرة

● هل البشر آلات ؟

فى الثناء على الروبوت بقلم كارل ساجان

[كارل ساجان (١٩٣٤ —) أستاذ الفلك وعلوم الفضاء ومدير معمل الدراسات الفلكية فى جامعة كورنيل] ٠

كلمة روبوت robot أدخلها الكاتب التشيكى كارل تشابيك فى العشرينات ٠ وهى مشتقة من الأصل السلافى لكلمة « عامل » ، ولكنها تدل على الآلة ، أكثر من دلالتها على العامل البشرى ٠ وقد أحدث الروبوت خصوصا عند استعماله فى الفضاء مؤخرا انطباعا سيئا ٠ فلقد سمعنا أن انجاز العملية النهائية للهبوط على سطح القمر من قبل أبوللو ١١ تطلبت كائنا بشريا لاتمامها ، ولولا ذلك لانتهت عملية الهبوط بكارثة ٠ اذ كان من المستبعد الحصول على روبوت قادر على التحرك على سطح القمر ، ويتمتع بنفس ذكاء الملاح الفضائى ، الذى يكلف بانتقاء عينات من صخور أرض القمر ، يحددها علماء الجيولوجيا المقيمون على الأرض ٠ وما كانت الآلات لتفلح فى السير فى البقاع التى تنعكس عليها ظلال الشمس مثلما أفلح رجال الفضاء ٠ وساعد ذلك على مواصلة رحلات المعمل الفضائى ٠٠

منقولة عن مجلة Natural History (يناير ١٩٧٥) بقلم Carl Sagan

ومن الطبيعي للغاية ان يكون من كتب جميع هذه التعقيبات آدميون • وربما شعرنا بالدهشة اذا لم نكتشف تسلل بعض شوائب من الاعتداد الذاتي والشوفية البشرية الى مثل هذه الأحكام • ومثلما يكون بمقدور البيض أحيانا اكتشاف علامات داله على العرقية أو العنصرية ، ويكتشف الذكور من حين لآخر ملامح دالة على تحيزهم ضد الاناث ، فانني قد أعجب اذا لم يك باستطاعتنا هنا أن نلمح بعض مشاعر الغم عند الروح الانسانية بعد تأثرها بنجاح الروبوت • وهذا مرض لم يوضع له اسم حتى الآن • ولعل أقرب كلمة لهذا المرض هي « الهيومانية » التي تطلق على أفعال أخرى للبشر أكثر اتصافا باعتدالها وسلامتها • وقياسا على ما يحدث في تحيز الذكور ضد الاناث والعنصرية ، فانني أذكي كلمة specieism « الانحياز للنوع الانساني » كمصطلح دال على هذا المرض ، وينطوي تحته التسرع في الحكم والخضوع للهوى والتحامل ، الذي يدفعنا الى الاعتقاد بعدم وجود كائنات تتميز بعظمتها وقدرتها وامكان الاعتماد عليها مثل الكائنات البشرية •

انه تسرع في الحكم • فكما يفهم من الترجمة الحرفية لكلمة prejudgement انها تعني استخلاص النتائج قبل الاطلاع على الحقائق كافة • وما أشبه مقارنة البشر بالآلات في الفضاء ، بمقارنة الأذكياء بآلات صماء • ونحن لم نسأل أنفسنا عن ماهية هذه الآلات التي يتكلف انشاؤها ثلاثين مليونا من الدولارات أو يزيد ، أي نفس تكاليف بعثات « أبولو » « وسكاي لاب » مجتمعة •

ان أي كائن بشري مصمم تصميما رائعا ، يتميز بالاحكام المذهل، ولديه قدرة على الحساب والتحرك الذاتي • وبمقدوره عندما يتطلب الموقف أن يصدر قرارات متحررة ، الى جانب القدرة على التحكم تحكما حقيقيا في بيئته • غير أنه ثمة قصور خطير يحول دون تشغيل أبناء البشر في بيئات من نوع خاص • فمثلا اذا لم يتوافر للكائن البشري قدر عظيم من الحماية ، فانه سيشعر بالتعب والاجهاد في قاع المحيط ، أو على سطح كوكب الزهرة أو في أعماق جوبيتر أو حتى في رحلات الفضاء الطويلة المدى • ولعل المعلومة الوحيدة المثيرة للاهتمام التي وصلتنا من سكاي لاب ، والتي ما كان بالاستطاعة الحصول عليها الا عن طريق الآلات هي ما قيل عن أن أبناء البشر عندما يمكثون مدة طويلة في الفضاء قد تطول الى شهور عديدة ، فانهم يعانون من فقدان ظاهر للعيان لكالسيوم العظام وفوسفور العظام • وهذا يعني – على ما يبدو – أن أبناء البشر سيشعرون بالعجز عندما تصل الجاذبية الى درجة الصفر في

البعثات التى تدوم ستة شهور أو تسعة أو يزيد . وقد رئى أن تكون أدنى مدة فاصلة بين أية رحلتين من رحلات الفضاء سنة أو سنتين . وباستطاعة طائرة الفضاء عند دورانها أن تحدث شيئا أشبه بالجاذبية المصطنعة . ولكن اتضح أن هذا الاجراء مقلق ومكلف .

فلما كنا عظيمى التقدير للكائنات البشرية ، فلا عجب اذا أحجمنا عن ايفادهم فى البعثات الشديدة الخطر . وعند ارسال كائنات بشرية الى بيئات غريبة ، يتحتم علينا أن نرسل معهم الغذاء الذى يقتاتون به والهواء الذى يستنشقونه والمياه التى يشربونها ولطائف للترفيه عنهم وأجهزة لاعادة الاستفادة من المخلفات recyclying ورفاق ، أما الآلات فليست بحاجة الى أنظمة معقدة للاعاشة أو مرفهات أو رفاق . كما أننا لا نشعر بأى تأنيب أخلاقى ، يحول دون ارسالنا هذه الآلات فى بعثات ذهاب دون اياب ، أو بعثات انتحارية .

والحق ، لقد أثبتت الآلات تفوقها فى حالات البعثات البسيطة . اذ قامت بعض معدات لم تحمل أى أسماء باجراء عمليات التصوير الفوتوغرافى للكرة الأرضية بجميع تفصيلاتها ، والجانب الأبعد من القمر ، وأول هبوط على سطح القمر وكوكب الزهرة ، وفى بعثة مارينر ٩ الى الكوكب مارس ، أى أول رحلة استكشاف كاملة لكوكب آخر . وهنا على الأرض ، لقد تزايد شيوع استخدام التكنولوجيا العليا فى المصانع الكيماوية ومصانع العقاقير الطبية ، على سبيل المثال ، التى تعتمد بقدر كبير أو اعتمادا كاملا على الكومبيوتر . وفى جميع هذه الأنشطة ، بمقدور الآلات - الى حد ما - اكتشاف الأخطاء ، وتصحيحها ، والقيام بعمليات التنبيه على مسافات بعيدة للمتحكمات البشرية للمشكلات التى يمكن ادراكها . وحققت نتائج خرافية القدرات الحسابية الهائلة للآلات الحاسبة ، التى تفوقت مئات المرات فى سرعتها على سرعة البشر الذين لا يستعينون بأية معدات تكنولوجية ، بل وملايين المرات . ولكن ما القول فى القدرة على اجراء المناقشات المعقدة بحق ؟ هل بمقدور الآلات - بأى معنى - أن تفكر فى أية مشكلة جديدة ؟ وهل بوسعها أن تقوم بالمناقشات ، التى تتفرع مثل تفرع الأشجار ، والتى نعتقد أنها وقف على الانسان ، وأنها من الخصائص التى يتميز بها ؟ [يعنى عندما أسأل السؤال (١) فاذا تلقيت الاجابة (أ) ، فانى أسأل السؤال (٢) واذا تلقيت الاجابة (ب) فانى أسأل السؤال (٣) وهكذا] .

ومنذ عشرات السنين وصف العالم الرياضى الانجليزى آلان ماتيسون تيورنج Alan Mathison Turing ما الذى يلزمه للوثوق فى قدرات

وذكاء العقل الآلي وتخيل حدوث اتصال بينه وبين آلة كاتبة تكتب عن بعد teletype ، وأنه قد عجز عن التفرقة بينها وبين أى كائن بشرى · وتخيل تيورنج المحادثة الآتية بين الانسان والآلة :

السؤال : فى البيت الأول من الصونيت التى نظمتها والتى تستهل بالقول : « هل أقارنك بيوم من أيام الصيف · ألم يك الأفضل أن تقول : بيوم من أيام الربيع ؟

الآلة : لا · انها لن تكون موزونة من الناحية الشعرية ·

السؤال : فما رأيك اذا قلنا « بيوم من أيام الشتاء » · فلا عيب هنا فى الوزن ·

الآلة : نعم ـ ولكن لا أحد يرضى عن مقارنته بيوم من أيام الشتاء ·

السؤال : هل من المناسب أن تقولى ان مستر بيكويك قد ذكرك بعيد الميلاد ؟

الآلة : على نحو ما ·

السؤال : غير أن عيد الميلاد يقع فى يوم من أيام الشتاء · ولا أعتقد أن المستر بيكويك كان سيبالى بالمقارنة ·

الآلة : لا أعتقد أنك جاد · عندما يقال « فى يوم من أيام الشتاء » ، فان ما يعنيه ذلك هو أحد الأيام التى تمثل الشتاء ، وليس يوما له مناسبة خاصة مثل عيد الميلاد ·

····· لم تك أية آلة على هذا النحو من التعقيد قد تم بناءها بعد · والى هذا العهد ، لم يبذل الا قدر محدود من الجهد ولم ينفق الا مقدار ضئيل من المال لانشاء مثل هذا العقل الاصطناعى · ولم يك هناك أكثر من حفنة صغيرة من المراكز القادرة على النهوض بهذه المهام فى العالم · ومن الأمثلة الأخاذة أكثر من ذلك ، الحديث الخاص بالكتل التى يلعب بها الأطفال ، وقد حصلنا عليه من معمل العقول الاصطناعية فى معهد ماساشوسيت للتكنولوجيا · واليكم نموذج للحوار الذى دار بين الانسان والآلة :

الانسان : ما الذى يحتويه الصندوق ؟ ·

الآلة : الهرم الأزرق والصندوق الأزرق ·

الانسان : كم عدد الكتل التى ليست فى الصندوق ·

الآلة : أربعة ·

الانسان : هل هناك صندوق واحد على أقل تقدير أضيق من الصندوق الذى طلبت منك التقاطه ؟

الآلة : نعم المكعب الأحمر ·

الانسان : هل هناك مسلة ·

الآلة : آسف ! ـ لا أعرف معنى كلمة « مسلة » ·

الانسان : المسلة كتلة حجرية تحتوى على مكعبين خضراوين وهرم على سبيل المثال ·

الآلة : فهمت ·

الانسان : هل هناك اذن مسلات ·

الآلة : لا ·

الانسان : عليك اذن ببناء واحدة ·

···· وقامت الآلة بتنفيذ ما طلب منها ، ومدت ذراعها الآلى · وحركت الأنابيب وأتمت بناء المسلة فى التو ·

الانسان : متى التقط الهرم ؟ ·

الآلة : عندما كنت أجمع بين المكعب الأحمر والكتلة الحمراء الكبيرة والكتلة الخضراء الكبيرة ·

الانسان : لماذا ؟ ·

الآلة : لكى أتخلص منها ·

الانسان : لماذا أزحت جانبا هذا المكعب ؟ ·

الآلة : لكى أضعه فوق المكعب الأخضر الكبير ·

وثمة مثل آخر لبرنامج كومبيوتر يقلد محللا نفسيا ، ثم تحضيره فى M.I.T. (معهد التكنولوجيا فى ماساشوسيت) · وهو برنامج أبسط من برنامج الكتل السابق ذكره ، لأنه لا يحاول أن يفهم الكثير مما يقال ، ولكنه يكتفى باستعمال تعابير فى الجمل التى استمع اليها . والتى كانت تتفرع من شجرة المناقشات ، وهى تعابير حساسة ذات أهمية خاصة فى نظر الآدميين · ويتضمن هذا البرنامج علاجا نفسيا غير مباشر يحتاج الى برامج كومبيوترية شديدة البساطة ·· واليكم الحوار الأخاذ الذى دار بين الكائن البشرى والمعالج النفسى الكومبيوتر

(ولعله من أكثر هـذه المحـاورات اثارة للاهتمام) · لأن الكثير من مثل هذه المحاورات التى تدور بين الانسان والآلة ، والمحاورات التحليلية النفسية ، ليست شائعة بالمثل · وكى نحافظ على وضوح دور كل من المعالج والمريض فى هذا الحديث المتبادل قام الكومبيوتر المعالج بتدوين السطر العلوى من المحاورة التالية بالآلة الكاتبة ، وقام المريض بتدوين السطر السفلى منها ، على الآلة الكاتبة أيضا · وقد دونا السطور العليـا بحروف أكثر سوادا للتفرقة بينها وبين السطور السفلية ·

- **على أى نحو**

انهم دائمو الاضافة لنا بشىء أو آخر ·

- **هل بوسعك أن تذكر مثلا معينا (محددا)**

بلى لقد دفعنى صديقى الصبى الى الحضور هنا

- **هل دفعك صديقك الصبى الى الحضور هنا ؟**

لقد لاحظ اننى مكتئب معظم الوقت ·

- **آسف لأن أعرف انك مكتئب**

انه على حق · فأنا تعس

- **هل تعتقد أن حضـورك الى هنـا سيســاعدك على التخلص من التعاسة ؟**

انى بحاجة لبعض العون · وهذا واضح ·

- **ما الذى تعنيه بحصولك على بعض العون ؟**

لعلى أتعلم كيف أتعايش وأمى ·

- **خبرنى بما هو أكثر من ذلك عن أسرتك**

أمى تعنى بى ·

- **من آخر من أبناء أسرتك يرعاك ؟**

والدى

- **والدك ؟**

انك تشبه والدى من بعض النواحى

- **ما هى أوجه التشابه التى رأيتها ؟**

انك لست عدوانيا · ولكنى لا أعتقد أنك ترغب ملاحظتى لذلك ·

- **ما الذى دفعك الى الاعتقاد بأنى لست عدوانيا ؟**

لأنك لا تجادلنى ٠

- **ما هو السبب الذى دفعنى الى عدم محاجاتك :**

انك تخشانى ٠

- **هل يسرك ان تعتقد انى خائف منك ؟**

ان أبى يطرب للاعتقاد بأننى خائف منه ٠

- **ما الذى يرد الى الخاطر أيضا عندما تفكر فى والدك ؟**

الافتراءات

- **هل ثمة علاقة بينها وبين حقيقة دفع صديقك الصبى لك للحضور الى هنا ؟**

ان هذه الاجابة المدهشة التى قدمها لنا الكومبيوتر كانت بالطبع مبرمجة مسبقا ٠ ولعلنا نشعر باغراء لوصفها بأنها فياضة بالشعور على أن هذا هو نفس ما يفعله المعالجون النفسيون من البشر ٠ وليس هناك برنامج كومبيوترى يفى بالغرض تماما فى العلاج النفسى الآن ٠ ولكن بالاستطاعة ابداء نفس الملاحظة عن بعض المعالجين النفسيين من البشر ٠ ففى عصر يتزايد فيه تزايدا مستمرا عدد الناس الذين يحتاجون للاستشارة النفسية ، وبعد ذيوع استخدام الكومبيوتر لهذه الغاية ، فبمقدورى أن أتخيل ظهور شبكة من الترامس terminal الخاصة بالعلاج النفسى تتخذ شكل مجموعة من كبائن التليفون الضخمة ، ويكون بوسعنا لقاء حفنة من الدولارات كمقابل للجلسة أن نتحدث الى معالج نفسى يصغى لنا ويختبرنا ، ويكون كلامه غير مباشر بقدر كبير ٠ ويجب أن يتحقق من الطمأنينة الى سرية المحاورة العلاجية النفسية ٠ التى قد تعد ــ فيما يحتمل ، أهم خطوة يجب أن تراعى ٠

ومن شواهد ما أنجزته الآلات فى عالم الفكر ما يمكن أن نصادفه فى عالم الألعاب ٠ فبمقدور أى صبى نابه فى العاشرة من عمره أن يبرمج كومبيوتر بسيط ، ويستخدمه فى لعبة « الطاولة » tic tac tce على أفضل وجه ٠ واستطاع أحد الكومبيوتورات أن يلعب لعبة master class checkers ، بل وانتصر على بطل ولاية أمريكية كبيرة ٠ ويعد الشطرنج لعبة أصعب من الطاولة أو لعبة الشيكرز ٠ ففى حالة الشطرنج ، ليس من السهل برمجة أحد الكومبيوترات لتحقيق الفوز ، وقد استخدمت استراتيجيات مستحدثة ، كان من بينها المحاولات

الناجحة العديدة لدفع الكومبيوتر الى التعلم من تجربته كيف يلعب ألعابا تمهيدية للشطرنج · فمثلا بمقدور الكومبيوتر أن يتعلم تجريبيـا أنه من الأفضل في المباراة الاستهلالية أن يتركز التحكم على قلب لوحة الشطرنج بدلا من أطرافها ·

وحتى الآن لم يصل أى كومبيوتر الى درجة الأستاذية في الشطرنج ، ومن ثم فليس هناك ما يدعو الى خشية أفضل عشرة لاعبين للشطرنج فى العالم من منافسة الآلة الراهنة · بيد أن العديد من الكومبيوترات قد أتقنت اللعبة بحيث يصح ادراجها على نحو ما فى صف المتوسطين من لاعبى مسابقات الشطرنج · ولقد سـمعت عن آلات تعرضت للحظ من شأنها (وعبرت عن ذلك بتنهدات مسموعة كأنها تقول الحمد لله) لأن الشطرنج ميدان ما زال للبشر القدح المعلى فيه · ان هذا يذكرنى بنكتة قديمة عن غريب لاحظ متعجبا ما أنجزه كلب فى لعبة الشيكرز · وكانت اجابة صاحب الكلب : « صه ! ليس الجميع فى مستوى هـذا الكلب البارع · انه يخسر مباراتين كل ثلاث مباريات » · والآلة التى تلعب الشطرنج ، وتحقق مستوى ما يحققه أوساط الملايين من البشر تعد آلة مقتدرة للغاية · فحتى اذا وجد آلاف من الآدميين من لاعبى الشطرنج الأفضل منها ، فان هناك ملايين أسـوأ كثيرا منها · اذ تتطلب لعبة الشطرنج قدرا عظيما من الاستراتيجية والبصـيرة والقدرات التحليلية والقدرة على الربط بين أعداد كبيرة من المتغيرات والتعلم من التجربة · وهذه مؤهلات لا تلزم الأفراد الذين يقومون بالاكتشاف وحدهم ، وانما تلزم أيضا من يراقبون الأطفال ومن يدربون الكلاب ·

فلما كانت كومبيوترات لعبة الشطرنج تحتاج الى برمجة شديدة التعقيد ، ولما كانت الى حد ما قادرة على التعلم من التجربة ، لذا فانها تكون أحيانا غير قادرة على التنبؤ · فمن حين لآخر تفاجىء واضعى البرامج بألعاب لم تخطر ببالهم · ولقد برر بعض الفلاسفة وجود الارادة الحرة عند الآدميين ، وارتكن فى تبريره الى ما فى سلوكنا أحيانا من أحداث لا تقبل التنبؤ بها · غير أن حالة كومبيوتر لعبة الشطرنج توضح لنا ان السلوك اذا نظر اليه نظرة خارجية ، فانه لن يبدو غير قابل للتنبؤ الا بوصفه نتيجة لمجموعة معقدة من الخطوات الداخلية ، بالرغم من أنها محدودة للغاية · ومن بين استعمالات الكومبيوتر الأخرى ، فان بوسع العقـل الآلى تقديم العون فى القاء الضوء على الخلاف الفلسفى القـديم حول حرية الارادة والحتمية ·

وبعد أن ذكرنا هذه المجموعة من الأمثلة عما لحق العقل الآلى من تطور ، أعتقد أنه قد أصبح واضحا أنه من المتوقع أن يبذل جهد كبير فى

عشر السنوات القادمة ، يتكلف اعتمـادات مالية طائلة لانتاج برامج أشـد تعقيدا ، وآمل أن يعترف اعترافا عاما بمخترعى مثل هذه الآلات والبرامج كفنانين مكتملين ، وهم فى الحق كذلك ...

وقد لا يبدو تصميم شيء ما له عقل حشرة أمرا لا يدل على البراعة الأخاذة ، ولكن علينا أن لا ننسى أن مثل هذه البراعة الهينة الشأن قد تطلبت من الطبيعة أربعـة ملايين من السنوات لتحقيقهـا . ولقـد اكتشفنا الفضاء فى مدة تقل عن واحد على مائة الملايين من نفس هذه المدة وسيكون اكتشاف آلة لها مثـل هذا العقل انجازا بشريا هائلا .

وبازدياد التقدم الذى سيحدث للعقل الآلى . وبازدياد مقدرتنا على اكتشاف الأغراض البعيدة فى النظام الشمسى ، سنرى تقدما للكومبيوترات البالغة التعقيد ، بحيث يكون فى مقدورهـا التطور والتسلق الحثيث لشجرة النشوء النوعى بدءا بذكاء الحشرة ، ومنه الى ذكاء التمساح ، ثم نصل الى عقل السنجاب ، وبعده الى عقل الكلب ، فى المستقبل غـير البعيد كثيرا . اذ يتطلب أى انطلاق الى مثل هذه الأبعاد الهائلة كومبيوتر قادر على تقرير هل بمقدوره أن يؤدى عمله أداء صحيحا . فلن تكـون هناك أية امكانيات لاعادته الى الأرض للاصلاح بعد انطلاقه فى الفضاء لكى يكشف عليه المسئول عن الاصلاح . ولابد أن يكون بمقدور الآلة أن تحس بمرضها ، وأن تعالج بمهارة ما لحق بها من مرض . فثمة حاجة الى كومبيوتر قادر على اصلاح أو استبدال أية أجزاء عاطبة من المكونات التى يتألف منها ، وقد أصبح مثل هذا الكومبيوتر الذى أطلق عليه اسم Self Testing and Repairing (الكومبيوتـر القـادر على الاختبـار والاصـلاح الذاتى) على وشك الظهـور . وسيستعمل أجزاء تتجاوز ما يحتـاج اليـه مثلمـا يحدث فى البيولوجيا . فعندنا رئتان وكلوتان ، واحدى الكلتين والرئتين بمثـابة احتيـاطى للأخـرى ، تعمـل عند فشلها . غير أن الكومبيوتر قد يحتوى على أجزاء زائدة أكثر مما يحدث فى حالة الكائن البشرى . اذ أن لدينا رأسا واحدة فقط وقلبـا واحدا فحسب .

وعلى ضوء المكاسب الطائلة التى حققتها المغامرات الاستكشافية فى أعماق الفضـاء ، ستحدث ضغوط قوية لتصغير العقول الآلية . فمنذ سنوات قليلة كانت الدائرة تشغـل حيزا يساوى الحيز الذى يشغله جهاز الراديو فى الثلاثينات . أما الآن فقد أصبحت هذه الدائرة تطبع فى حيز لا يزيد عن حجم رأس الدبوس . وبمقدور مثل هذه الرأس أن تشغل جزءا صغيرا من كومبيوتر صغير .

واذا استمر استخدام العقول الآلية فى أعمال المناجم وكشوف الفضاء ، فلن يتأخر اليوم الذى يصبح فيه من المجدى استخدام الروبوت لأغراض منزلية ولغير ذلك من الخدمات الداخلية · وخلافا لأجهزة الروبوت الكلاسيكية فى روايات الخيال العلمى ، التى كانت تصور على أنها شبيهة بالانسان ، فليس هناك ما يحول دون ظهور هذه الآلات فى صورة بعيدة عن صورة الانسان ، كما هو الحال فى المكنسة الكهربائية الآن · وستكون متخصصة فى المهام التى تقوم بها · وثمة مهام مشتركة بدءا بعملية ثنى القضبان الحديدية الى غسل الأرض التى لا تحتاج الى ما هو أكثر من عدد محدود من القدرات الفكرية ، وان كانت تحتاج الى صبر وقوة احتمال جوهريين · وما زال اليوم بعيدا الذى سيخترع فيه روبوت متنقل يصلح لجميع الأغراض ، ويقدر على المهام المنزلية ، التى كان ينهض بها رئيس الخدم الانجليزى butler ابان القرن التاسع عشر · غير أن الآلات الأكثر تخصصا والمكيفة بحيث تلاءم الوظائف المنزلية النوعية قد أصبحت الآن فى الأفق ·

ومن السهل أن نتصور العديد من المهام الحضارية الأخرى ، التى تلزم الحياة اليومية ، التى بوسع العقول الآلية القيام بها · وقد ذكر محرر فى احدى الصحف اليومية حديثا أن جامعى القمامة فى ألاسكا قد حصلوا على أجور تضمن لهم دخلا سنويا يقدر بثمانية عشر ألف دولار · وقد تساعد الضغوط الاقتصادية وحدها على الاقتناع بضرورة اختراع آلات أوتوماتية لجمع القمامة · واذا أريد احداث تقدم فى الروبوت من أجل الخدمات المدنية ، ولكى يصبح ذا نفع اجتماعى عام يتعين اقامة نظام فعال لاعادة تشغيل أولئك الذين حل الروبوت مكانهم · غير أن هذه المهمة لن تكون صعبة خلال جيل من الزمان ، وبخاصة اذا بادرنا بتطبيق التشريعات التى تساعد على زيادة التنوير ·

والظاهر ان ابتكار أنواع متعددة من العقول الآلية القادرة على أداء مهام خطيرة للغاية والمكلفة للغايات التى تشق على أبناء البشر وتنغص حياتهم قد أصبح وشيك الوقوع · وفى تصورى ان هذه الآلات ما هى الا نزر يسير من المخلفات المشروعة لبرامج الفضاء · والعقبة الرئيسية التى ستعترض تقدم هذه الأشياء مشكلة انسانية تتمثل فى الشعور الذى ينتابنا رغم ارادتنا ويتسلل فى مشاعرنا زاعما أن هناك شيئا كريها أو غير انسانى وراء استخدام آلات تؤدى وظائف معينة مماثلة للوظائف التى يقوم بها الانسان ، وتتفوق عليه فى أدائها · انه الشعور الذى يولد احساسا ببغض مخلوقات مصنوعة من السليكون والجرمانيوم بدلا من البروتينات والأحماض الأمينية ·

ويرتكن استمرارنا فى البقاء كجنس بشرى على مقدرتنا على العلو ومجاوزة مثل هذه النزعات المتعصبة البدائية . وثمة أجهزة قياسية قادرة على الاحساس بضربات القلب الانسانى . فبمقدور جهاز قياس الضربات أن يسجل أوهى انقباض للقلب . وهذا نوع وديع من العقول الآلية ، وان كان عظيم النفع . وليس بوسعى أن أتخيل ظهور أى حقد عند من يستعمل هذا الجهاز ضد ذكاء مثل هذا العقل الآلى . وأعتقد أنه فى القريب العاجل سيظهر نوع مماثل من العقول لآلات أكثر ذكاء وتعقيدا . فلدينا جيل من البراعم الذين يشبون ويترعرعون ، وفى جيوبهم أجهزة كومبيوتورية وآلات لتعليم اللغات ولوحات مرسومة بالكومبيوتر ، وموسيقى الكترونية وتعاليم أوتوماتية وألعاب كومبيوتورية . ولا يحتمل أن يشعر هؤلاء البراعم بأى شىء غريب فى هذه العقول الآلية . وليس هناك أى شىء لاانسانى فى العقل الآلى ، انه بالتأكيد تعبير عن تلك القدرات الفكرية العالية التى لا يملكها الآن من مخلوقات الكون أحد غير كائناتنا البشرية .

ومن الاهتمامات المشروعة ، التى تواجه تقدم العقول الآلية احتمال اساءة استعمالها من قبل الحكومات المعوجة فى الأغراض الحربية والبوليسية . وهنا كما هو الحال فى العديد من المجالات الأخرى للتكنولوجيا الحديثة ، من الميسور استعمال نفس المعدة للخير العميم ، أو الشر الوبيل . ان أى عالم لديه بنك معلومات مركزى يحتوى على ملفات لجميع مواطنيه وشرطة من الروبوت وقضاء من الروبوت ومعارك حربية تعتمد من أولها لآخرها على وسائل أوتوماتية ، لن يكون العالم الذى أحرص أنا شخصيا على العيش فيه ، وأنجب أطفالا . انه سيكون كابوسا . أما العالم الذى يتوافر فيه قدر كاف من الغذاء والمعادن وموارد الطاقة ، أى العالم الذى يزود سكانه من البشر بوقت فراغ أكبر ، وببيئة ثرية فكريا وروحيا ، تجعل هذا الفراغ ذا معنى ، أى العالم الذى يشغل نفسه باكتشاف عوالم قصية غريبة . هذا العالم هو الذى يجتذبنى ويستهوينى ، ولقد أصبح بمقدورنا بلوغ هذين العالمين بفضل العقول الآلية . ولكى نتجنب الكابوس ونحقق الحلم ، فاننا نحتاج الى اعادة بناء الأنظمة السياسية على كوكبنا . ان عملية اعادة البناء هذه مطلوبة ـ كما لا يخفى ـ بغض النظر عما تحدثه العقول الآلية من مضاعفات . واذا أمكننا الاستمرار فى البناء ، فانى أعتقد أن مستقبلنا سيعتمد الى درجة كبيرة على حدوث تآخ بين العقول البشرية والعقول الآلية ...

تفكير البشر والآلات بقلم : ج · هـ · ترول

[جون هانس ترول (١٩١٩ -) عالم فزيائى ، ومن المشتغلين فى تصميم الصواريخ فى Self Testing and Repairing Computer ولقد شغل لعدة سنوات بالتفكير فى انشاء آلات من مختلف الأنواع ، وعمل مستشارا لشركات فى صناعة آلات الكومبيوتر الالكترونية] ·

بعد ظهور العقل الآلى ، بلغت الذروة المنافسة القلقة شبه المضطربة بين الانسان والآلة · ولقد ألفنا الآن الآلات التى تتميز وتتفوق علينا بقوتها ودقتها ومتانتها وسرعتها · أما الآلات التى تتحدى ذكاءنا ، فقد تعذر على عقولنا التسليم بوجودها والاعتراف بدورها · ففى هذه النقطة بالذات تغدو المنافسة غير مستحبة ·

ولقد صنعت الآلات والمعدات دائما فى صورة الانسان · فاتخذ القادوم شكل قبضة اليد المكورة · أما المنكاش فقد اتخذ شكل اليد عندما تفرد أصابعها للخدش · والأمر بالمثل فى حالة الجاروف ، الذى يتماثل وتجويف اليد وهى تنتشل الأشياء · وبعد أن أصبحت الآلات أعقد من الأدوات البسيطة ، فانها قد تجاوزت مبتدعيها فى الأداء . وأصبحت تتطلب قدرا أعظم من القوة المتزايدة . واكتسبت قدر أكبر من الكفاية ، وسرعة ودقة تفوق امكانات البشر · واختفى تشابهها الخارجى والنموذج الطبيعى الذى اقتدت به · ولا يكشف غير أسماء الآلات عن الأصل البشرى الذى تأثرت به · ولقد توافرت للآليات الشديدة التعقيد لعصر الصناعة الحديثة أذرع تتأرجح وأصابع للقبض وأرجل للمساعدة وأسنان للطحن ، وأجزاء مؤنثة وأخرى مذكرة يعقد بينهما قران ! وتتغذى الآلات على المادة عندما تسير الأمور على ما يرام · وتبصق وتسعل عندما تسوء حالتها ·

غير أن أحدث الآلات قد أصبحت تتمتع ببعض المميزات البشرية · فلقد نظر اليها دائما على أنها متخلفة كثيرا بحيث تتعذر صلاحيتها للميكنة · ففيها نشاهد عيونا كهربائية ترى ، ومعدات حساسة تشعر ، وأيضا ذاكرات تتذكر وتختار وتقارن وتصنع القرارات ، وتتعلم من التجارب السابقة ، وتهتدى الى نتائج منطقية تستند الى أسس ومقدمات·

نقلا عن مجلة John Hans Troll — The Atlantic Monthly

ولم يعد بالامكان الاستمرار طويلا فى انكار قدرة هـذه الآلات على التفكير حقا ·

وساعد تحقيق ذلك على تجديد المنافسة الحانقة بين الانسان والآلة · وتجرى هذه الحرب فى الخفاء · اذ يعد حتى التنازل بالاعتراف بهذه الخلافات حطا من كرامة الانسان · ولا يعترف البشر كثيرا – أو صراحة – بأن هذه المبتكرات اللاانسانية ، التى اتخذت شكل الصواميل والمسامير والوصلات والأنابيب الالكترونية البراقة تهدد وجودهم · فهم أشبه بطفل صغير يغار من أى اهتمام يوجه الى كلبه الأليف · غير أنه يتماثل والطفل عندما يلوى ذراع كلبه عندما يطمئن الى عدم وجود احد ينظر اليه · فهو ينزع – شعوريا أو لا شعوريا – الى القاء بعض القطع الحديدية فى جوف هذه المعدات لكى تتلف تروسها ، ويستمتع بمشاهدتها وهى تلقى جزاءها ·

وشعر محررو الصحف اليومية منذ سنوات قليلة بالاهتمام بحكاية تروى عن عالم رياضيات يابانى تمكن باستعمال معداد abacus – وهى معدة بسيطة تتألف من بعض السلوك التى تركب عليها الخرزات ، وتستعمل فى العد – أن يكسب سباقا تنافس فيه وآلة ميكانيكية حاسبة · وقد استمر نشر هذه الحكاية فى الصحف · ولو كانت الآلة هى التى انتصرت ، ما تحول هذا الخبر الى حكاية مشهورة تشيع بين الناس ·

ولا أحد يميل الى وجود أى منافسين له · ومن هنا تظهر الرغبة السائدة فى عدم الوثوق بالآلات ، وتعمد اغفال أمرها · وكان الطيارون ابان الحرب العالمية الثانية يفضلون الطيران باستعمال بدلة الجاذبية G-Suit وهى وسيلة عديمة الجدوى ، كان يظن أنها تساعد على تقليل شعور الطيار بحساسيته وبخاصة عندما يضطر الى قلب جسمه رأسا على عقب ، فتصبح رأسه فى أسفل · نعم كانوا يفضلون ذلك على استخدام الأدوات الأدق والأكثر كفاية · واحتيج الى الكثير من الدعايات والمحفزات لدفع الطيارين الى استخدام هذه الآلات ·

وعندما نجح يونيفاك UNIVAC وهو من الكومبيوترات التى استخدمت فى الانتخابات فى تقديم تنبؤات مذهلة عن النتائج على أساس المعلومات الباكرة للغاية ، لم يصدق أنفسهم الخبراء الذين وضعوا تصميمه وقاموا بانشائه · وحتى بعد أن تبين تفوق الآلة فى معرفتها ، استنادا الى جميع المعايير العقلانية ، فان الانسان ما زال يحجم عن منحها الكلمة الأخيرة ·

(*) يسميها الأمريكان Pants-seat ، وهى وصلة تربط سروال الطيار بمقعده ·

ومن الدلائـل الكبرى على هـذه المعركة شبه الخفية بين الناس والوحش الذى خلقوه ، ما حدث فى اليوتوبيات التى ظهرت فى عصرنا الحديث • فبينما رأينا توماس مور من القرن السـادس عشر وادوارد بيلامى من القـرن التاسع عشر يهتديان الى مثلهما الأعلى ، أى المجتمعات المتناغمة الجميلة فى أسفارهما المتخيلة ، ويصـلان الى حلول موفقـة للمشكلات الملحة فى عصرهما . فاننا نرى جورج أورويل والدوس هكسلى فى عصرنا يريان ما حدث من ارتقـاء فى العصر الحديث شيئا أشبه بالكابوس • ففى يوتوبيتيهما ، امتـدت عمليـة التنميط ـ وهى من مستلزمات حضارتنا القائمة على الآلة ـ بحيث أصبحت تشتمل على انتاج الآدميين ، وتتحكم فى صبغيات خلاياهم ومورثاتهم • كمـا اتخذت الآلات الصدارة فى المتعـة البشرية ، وأصبحت تتحكم حتى فى نوع الجنس والرياضيات البسيطة • واتجهت الآلات الى تأليف القصص والروايات والتمثيليـات والصحف اليوميـة ، وابداع جميع الفنون والمرفهات •• ونجحت الآلات فى عمليات المراقبة والتجسس ليلا ونهـارا ، وبذلك حطمت جميع آثار الفردية الانسانيـة • فهل يعد ظهور العقل الآلى أول علامة على تحول هذه الكوابيس الى حقيقة ؟ • وهل غلب الانسان على أمره فى المعركة التى تدور بينه وبين الآلة ؟ •

خذ على سبيل المثال الحسابات التى تجرى عند تصميم عدسـات الفوتوغرافيا • فقبـل ظهور الكومبيوتر ، كان بالمقدور تصميم العدسات اعتمادا على جهد ودقة بعد الاسـتعانة برسـومات وحسـابات تجرى بالورقة والقلم ، وباتباع هذه الطريقة ، كان مصمم العدسات ذو الخبرة يستغرق زهاء خمس سنوات لتصميم احدى العدسات المعقدة • واختصر الكومبيوتر الصغير هـذا الوقت واختصره الى خمسـة عشر أسبوعا • وبمقدور كومبيوتر جبار مثل سياك .S.E.E.A.C انجاز هذه المهمة فى غضون ساعة واحدة •

واذا ازددنا تدقيقا فى بحث مشكلة تصميم العدسات ، سندرك بعض أشياء عن كيفية عمل الكومبيوتر • اذ تختلف العدسة البصرية الجيدة ، كتلك التى تستعمل فى أفضل الكاميرات عن العدسات العادية أو عدسات النظارات فى كونها تتألف من جملة زجاجات مختلفة الأحجام ملتحمة سـويا • ويتعين على المسئولين عن التصميم تحديد الشـكل الصحيح لكل زجاجة من الزجاجات التى ستتألف منها العدسة ، بحيث تلتقى جميع الأشعة الصادرة من نقطة ما ككوكب يراد تصويره مثلا ـ فى نقطة أخرى خلف العدسة ، وبذلك تتكون صورة الكوكب • والواقع أنه من المتعذر دفع هذه الأشعة للالتقاء فى احدى النقاط • فقد تكون

مثل هذه النتيجة غاية مثالية بعيدة المنال · وأفضل ما يمكن أن يتحقق هو اتجاه هذه الأشعة اتجاهات شتى بحيث تؤلف دائرة ، وكلما صغرت هذه الدائرة ، ازدادت الصورة تحديدا ، وأثبتت العدسة أنها أفضل ما بمقدورنا الحصول عليه ·

وتنقسم اجراءات التصميم الى ناحيتين · ناحية تعتمد على الحساب ، والأخرى تعتمد على المحاولة والخطأ · بطبيعة الحال ، ثمة عدد لا نهاية له من الزوايا التى قد تسلكها الأشعة للدخول فى العدسة · ويتعين تتبع الكثير منها من خلال العدسة · وبعبارة أخرى ، ان علينا أن نكتشف ما يحدث من اختلاف فى زاوية كل شعاع لدى دخوله كل زجاجة من الزجاجات المشار اليها وخروجه منها · وهذا يساعدنا على معرفة زاوية الشعاع عندما يبارح آخر سطح للزجاجة ، ومعرفة أين سيلتقى بباقى الأشعة بالتبعية · وعلى الرغم من عدم تعقد الاجراءات الحسابية لاكتشاف ما يطرأ على زوايا كل شعاع من تغيرات ، الا أنها تحتاج الى دقة تبلغ ٧ر· ، والى وجوب مراعاة ما يتعرض له العديد من الأشعة · واذا تتبعنا جميع الأشعة المشار اليها سيتيسر لنا الحصول على قطر الدائرة التى ستلتقى فيها · فاذا اتضح أنه أصغر قطر يناسب احتياجاتنا فاننا نكون قد نجحنا فى انجاز مهمتنا ، أما اذا اتضح أنه أكبر مما ينبغى سيتعين علينا أن نغير بمقدار طفيف أحد أشكال أسطح الزجاجة ، ثم نتتبع جميع الأشعة فى الحالة الجديدة ، ونرى هل وفقنا فى تنقيح التصميم ، أم أننا زدنا الأمر سوءا ، وكانت هذه المهمة تتطلب فيما مضى من أى انسان زهاء ست سنوات ·

فكم يبلغ مقدار العمل الذى يستطيع الكومبيوتر أن يوفره لنا ؟ انه يكاد يقدر على انجاز جميع مطالبنا ، على شريطة حصوله على ما يكفى من التعليمات ، التى يتعين أن تشتمل على معادلة تبين ماهية زاوية الشعاع عندما يبارح السطح ، ومعرفة زاوية الدخول ، وبعض خصائص الزجاجة ، وشكل السطح ولون الشعاع · وبالاضافة الى ذلك ، يجب أن تعرف التعليمات الكومبيوتر مقدار جودة العدسة المراد تصميمها ، وما هى الأشكال المبدئية التى يبدأ منها ·

وبعد ذلك ، علينا أن نعرف الآلة كيف تواصل عملها · وقد يتضمن برنامجنا ما يلى : « عليك أن تبدأ بشعاع ٤٥° خارج المحور · وعليك أن تصور زاويتى الدخول والخروج فى كل سطح من الأسطح الاحدى عشر · لاحظ زاوية الخروج من السطح الأخير · كرر الشيء نفسه الشعاع عند زاوية ٤٤° ثم عند زاوية ٤٣° · ويستمر العمل بعد

انقاص درجة فى كل محاولة ، الى أن يتسنى تتبع الشعاع فى زاوية الصفر • قارن الدائرة المترتبة على ذلك ، عندما يلتقى الشعاع والشعاع المطلوب • فاذا تماثلا فى الحجم ، أو كان أصغر ، اطبع الاجابة • واذا كان أكبر غير شكل السطح الأول وكرر تتبع الشعاع • واذا جاءت الاجابة أفضل من الاجابة الأولى ، وان كانت ما زالت بعيدة عن الصحة ، غير السطح مرة أخرى فى الاتجاه ذاته • واذا جاءت الاجابة الجديدة أسوأ غير السطح الثانى على نفس النحو • وهكذا يتكرر الشىء نفسه مع جميع الأسطح حتى يهتدى الى الاجابة الصحيحة •

ولا تظهر التعليمات الفعلية للكومبيوتر فى صورة كلمات ، وانما فى صورة رياضية مختزلة مدونة على شريط مغناطيسى أو صورة ثقوب فى شريط من الورق ، أشبه باللفافة التى كانت تستعمل فيما مضى فى آلة البيانولا ، وكان بمقدورها استذكار مقطوعات طويلة للبيانو ، والتعرف الى أى نغمات ستقوم بعزفها ، ومقدار ارتفاع النغم ، ولم يتنبه أحد آنئذ الى أنها عقل آلى •

وبعد أن تتلقى الآلة تعليماتها ، سيكون باستطاعتها مباشرة العمل • ومن الغريب أنها تؤدى عملها فى صمت رهيب • فليس لها صوت شبيه بأزيز الموتورات ، أو صوت الأجراس ، أو حتى الهمهمة ، عندما تسارع من خلال ملايين الحسابات التى تتبع مبدأ المحاولة والخطأ ، بسرعة قد تتماثل وسرعة البرق • وقد لا يستطاع معرفة قيامها بجميع هذه الأشياء ، لولا الوهج الأحمر المنبعث من الأنابيب والذى يدل على أن المعدة تقوم بعملها بهمة ونشاط • وعندما ينتهى الكومبيوتر من أداء مهمته تسمع طرقعة من آلة كاتبة كهربائية تقوم بتدوين الحل •

واذا حدث أى خطأ ، تتوقف الآلة ، وتدون آلتها الكاتبة سبب هذا الخطأ • وغالبا ما يكون بوسعها أن تعرفنا ما هى الأنبوبة التى تسببت فى العطب ، وما هى بحاجة اليه من معلومات اضافية للتغلب على المشكلة • ومعظم الكومبيوترات مصممة بحيث لا تعطى اجابات خاطئه ، على الاطلاق • وعندما يحدث أى فشل تتوقف الآلة عن اعطاء أية اجابة • وبمجرد طبع الاجابة ، يكون بمقدورك الاعتماد عليها • وفضلا عن ذلك ، فان الكومبيوترات لا تتوقف عن مراجعة عملها ، وتكرار أية حسبة يتضح خطأها •

فهل باستطاعتنا تسمية مثل هذه العملية تفكيرا ؟ • ولعلنا لاحظنا أن هذه العملية قد اشتملت عن تذكر وتنسيق وتصنيف وانتقاء بين البدائل وفقا لقاعدة منطقية • وعندما كان الآدميون ينهضون بهذا النوع

من العمل ، اعتدنا أن نسمى ما يفعلونه تفكيرا ، ومن ثم فاذا راعينا انصاف الآلة سيتوجب علينا التنازل والاعتراف بأن الكومبيوتر يفكر ، بالمعنى المعتاد للكلمة · ولما كانت الآلة عند أدائها لوظيفتها تستبعد حلولا وتؤثر عليها الحلول الصحيحة ، وتستفيد في عملها من خبرتها الماضية ، لذا لا يجوز أن ينكر أنها أيضا تتعلم · ويلاحظ أنها تفكر بسرعة ، وتتعلم بسرعة ، أي بسرعة تفوق سرعة الانسان · وفضلا عن ذلك ، فانها لا تقع في أية أخطاء · وأثناء اشتغالها بأية مشكلة فانها لا تنسى على الاطلاق ، فهل يعنى هذا أن الآلة أذكى من الانسان ؟

واذا تحدثنا بوجه عام ، فان آلات هذه الأيام ، وتبعا لأصولها قد أثبتت تفوقها على البشر فى استخلاص النتائج من الحالات المحددة التى تنطبق عليها القاعدة العامة · وثمة كومبيوترات فى طريقها الى الارتقاء ، ويتوقع أن يكون بوسعها الاهتداء الى قرارات استراتيجية دقيقة فى المعارك الجوية بعد تعرفها على مواقع الطيارات الصديقة ومواقع الطيارات المعادية ، بعد أن تتحدد لها قاعدة تكتيكية أساسية يكون بوسعها تتبعها · وطبقا لنفس المبدأ ، فليس هناك ما يحول دون قيام كومبيوتر الغد بالتنبؤ بحجم مبيعات أية سلعة ، وذكر ما يطرأ عليها من تحولات تتغير تبعا لأهواء المسيو كريستيان ديور والموضة السائدة ، ما دام سيتيسر لها الاسترشاد بما سبقت معرفته من اتجاهات السوق ·

غير أن الطاعة دون قيد أو شرط للقواعد المبدئية ، التى ساعدت على اكتساب الآلة هذه الدقة الخارقة ، قد وضعت أيضا حدا لذكائها العام · اذ تتوقف نتائج تفكيرها على كفاءة القواعد التى تعلمت كيف تتبعها · فاذا أثبتت القواعد ابتعادها الكامل عن الصحة بالنسبة للموقف ، فاننا لن نعجب اذا رأينا الآلة تتشبث بعناد بهذه القواعد ، وتهدد مثل مكنسة (*) صبى الساحر بالقضاء على صاحبها ، وعلى نفسها معا ·

وهناك نوع آخر من التفكير · انه النوع الذى يبحث عن العلاقات بين الأحداث الفردية ، ويضع قواعده بناء على هذه القاعدة ، وبعد أن يضع القواعد على هذا النحو ، فانه يستبعد ما يثبت عدم تناسبها معه ،

(*)حكاية صبى الساحر من الحكايات الخرافية القديمة التى تدور حول مخاطرات صبى ساحر عند اشتغاله باصلاح بعض معدات الساحر التى يستعين بها فى احداث الخوارق ، وأدى جهله بهذه المسائل وتورطه فى جوانب تفوق ذكائه وقدراته الى حدوث كارثة لم ينقذه من آثارها الا حضور الساحر · وقد نظم جوته قصيدة حول هذه الفكرة . ووضع بول دوكا قصيدا سيمفونيا لها ·

أو ما يحتاج الى تعديل . ويقوم البشر بهذا النوع من التفكير بلا جهد ، حتى أصبحنا فى أغلب الأحيان لا نعتبر مثل هذه العملية فكرا . فاذا رأينا دائرة على سبيل المثال ، فاننا نتعرف عليها مباشرة ، ودون حاجة الى التعرف الى مادتها أو حجمها ، فلسنا بحاجة الى فحص كل نقطة فى الدائرة على حدة أو الرجوع الى أية معادلة للتحقق منها . فضلا عن ذلك ، بمقدورنا أن نذكر ما هى الأشياء التى تقترب من الشكل الدائرى ، دون بذل أى جهد . أما الآلات فغير قادرة على الاحساس بالأشكال الا اذا تعرفت عليها نقطة نقطة ، أو اذا لقنت لها فى صورة معادلة رياضية .

ان هذا النوع من التفكير هو الذى نتبعه عندما نتعرف الى شخص ما فى الطريق . فنحن لا نقوم – على غرار الكومبيوتر – بمراجعة عدد كبير من التفاصيل مثل الطول والاسم ، ومحيط الصدر ، ولون العينين ولون الشعر وطول الذراع وطول الأصابع .. وهكذا . فبمقدورنا أن نقول على الفور : « أهلا يا مارى » ، ولا يهم كثيرا اذا كانت مارى قد زاد وزنها أو نقص . وهل ما زالت محتفظة بلون شعرها الكستنائى أم صبغته بلون آخر ، وفى الحق فاننا لسنا بحاجة الى معلومات كمية دقيقة عنها على الاطلاق . ولو لجأنا الى الاحصاء ، سيكون مقدار المعلومات التى نحتاج اليها للتعرف الى مارى بطريقة قاطعة من بين خمسة وسبعين مليونا من الاناث اللائى يعشن فى الولايات المتحدة شيئا رهيبا ، بيد أننا لسنا بحاجة الى أكثر من معلومات قليلة كى نتيقن من كونها مارى . فقد يكون بوسعنا التعرف عليها فى ليلة شتاء باردة رغم أنها متدثرة بملابس ثقيلة من أعلى رأسها الى اخمص قدمها ، ولا يظهر منها الا أرنبة أنفها الشديدة الاحمرار ، أو قد يكون بوسعنا التعرف اليها من ظهرها حتى بغير هذا الدليل الشحيح . وبمقدور الناس أن يتعرف كل منهم على الآخر فى لقاءات غير متوقعة ، حتى بعد مضى عشرين سنة ، من آخر مرة رأى فيها بعضهم البعض ، عندما كانوا سويا فى المدرسة الابتدائية ، وبعد أن يكونوا قد ازدادوا ضخامة ، أو التحوا وتغير صوتهم ، وطريقة ارتدائهم للملابس ، أى عندما لا تبقى أية نتفة من أجسامهم كما هى .

وعلى الرغم من البراعة المذهلة التى تشبه الاعجاز ، التى تظهر فى عملية التعرف ، الا أنها لا تحتاج الى أية قدرة ذهنية خارقة . فلقد برع فى هذه الناحية الأطفال ، بل وحتى الكلاب المدللة ، غير أن مثل هذه البراعة تتجاوز قدرات أى عقل آلى ، لأنه يعتمد اعتمادا كاملا على النظرة العامة ، والتصور العام ، أى على شىء أكثر من مجرد عملية مراجعة بسيطة أو عملية جمع ، أو الحصول على متوسط جميع الحالات الفردية .

أما كيف نكون مثل هذه الأفكار أو التصميمات فمسألة من المسائل التى اعتبرت دوما من أشد مظاهر العقل الانسانى اثارة للحيرة · ولقد رأها اليونانيون القدماء – وبخاصة افلاطون – وثيقة الاتصال بعملية التذكر · واعتقد أن الواقع الحق قابع فى موضع تزوره روح الانسان قبل مولده ، وأن التحقق الدنيوى من أى موضوع بالذات يعنى تذكر أحداث سبق اكتسابها أثناء تجربة أخرى سبقت المولد · ولا يقتصر دور المثل على مساعدتنا فى التعرف الى ما سبق أن رأيناه . وانما بالمقدور الاعتماد عليها فى التنبؤ بالمجهول استنادا الى التماثل · ولقد أخبرنى سائق للتاكسى فى نيويورك أنه كان قادرا على انقاص تخفيض فترة عمله اليومية الى ثمان ساعات محترمة ، بينما كان معظم زملائه يعملون من عشر الى اثنى عشرة ساعة يوميا · غير أنه كان يكسب مالا مماثلا ، ويقطع عددا مماثلا من المشاوير · ويرجع سره الى أنه تعلم كيف يتعرف على الخصائص المميزة للناس الذين يصممون على استعمال التاكسى · وكان قادرا على اكتشاف مثل هؤلاء الناس والتقاطهم فى أى زحام ، أو عند مغادرتهم لأى مبنى · وقبل أن يتركنى أشار الى رجل كان يسير الى جانبنا وقال « هذا الرجل يريد تاكسيا » ، واتجه ناحيته واقترب منه ، وركب الرجل التاكسى ، وعدت أنا أدراجى ·

ويعرف أغلب الباعة المحنكين نوع الزبائن الذين يستطيعون رفع الكلفة معهم عند التعامل ، بل والربت على ظهورهم ، بعد معرفة قد لا تتجاوز بضع دقائق ، والنوع الآخر الذى يتعين استعمال كلمة « مستر » عند التخاطب معهم ، والتزام الرسميات فى التعامل معهم · والأشخاص الموثوق بهم يتسمون ببراعة فى تحديد أهل الطيبة من الناس ، الذين يمكن الاطمئنان اليهم ، دون أن تكون تحت امرتهم أية مجموعة من الاختبارات السيكلوجية ، ومن ثم فانهم لا يشعرون بأى تهديد لأرزاقهم من قبل العقل الآلى ·

وبمقدورنا أن نعرف هل من تعرفنا عليه حديثا من الأصدقاء ، وهل تهدد شخصيته شخصنا ، أم أنه شخص مطمئن · وهل هو نبيه أم متبلد ، وكيف نحسن مسايرته · فنحن نميز أى شخص ، ونكيف مسلكنا نحوه تبعا لذلك ، وليس بالاعتماد على اختبارات حافلة بالعديد من الوقائع ، وانما بتنظيم هذه الوقائع فى وحدات جديدة ·

ويحدث أمر مماثل عندما يقوم الطبيب بتشخيص المرض · والحق أن هناك عددا لا نهاية له من الأعراض المحتملة التى تخطر ببال الطبيب · ولو أنه اعتمد على فحص نسقى مسلسل لجميع الأعراض ، لما كان من المستبعد أن يموت جميع مرضاه ، من الشيخوخة التى سيبلغونها قبل

أن يتمكن من تشخيص مرض أى شخص منهم . غير أن الطبيب البارع ذى الخبرة فى عملية تشخيص المرض غالبا ما يتعرف على المرض بطريقة مباشرة ، ولا يحتاج فى أحيان كثيرة الى ما لا يزيد عن اختبارات قليلة نسبيا لكى يهتدى الى قراراته . فالصورة الذهنية التى يكونها عن المرض تتصف بالشمول ، وليست مجموعة من التفاصيل العديدة ، ومن ثم فباستطاعته التعرف على مثل هذا المرض عندما يرى شيئا ما يتطابق والصورة الذهنية التى رسمها فى مخيلته .

ومن الخصائص البشرية الفذة ، ليس فقط القدرة على تكوين الأفكار ، وانما أيضا القدرة على الربط بين هذه الأفكار بطريقة نافعة . والذاكرة الانسانية أرشيف حافل ، وتتمتع بقدرات هائلة تفوق قدرات أعظم عقل آلى تم اختراعه . واذا افترضنا وجود مخ آلى فيه العديد من الأنابيب والوصلات التى تساوى عدد الخلايا العصبية فى المخ الانسانى ، فان مبنى « الامبايرستيت » فى نيويورك بجلالة قدره لن يتسع لايوائه . وقد يتطلب الأمر حيزا يساوى جميع موارد شلالات نياجرا لتزويده بالطاقة ، كما يحتاج لنهر نياجرا لتبريده . وفضلا عن ذلك ، فان مثل هذا الكومبيوتر لن يستطيع أن يعمل أكثر من جزء من الثانية فى نفس الوقت ، وبعدها تصاب بضع آلاف من أنابيبه بالعطب ، ويتعين استبدالها بأخرى .

ويشتمل كومبيوتر من أضخم الكومبيوترات فى عصرنا (انياك) على حوالى عشرة آلاف أنبوبة ، ومن ثم يكون لديه عدد كبير من خلايا المخ ، يتساوى مع عدد خلايا مخ الدودة العريضة !

ويعد المخ الانسانى ، وبه مليون ضعف الخلايا آنفة الذكر ، شيئا فذا . ولا يرجع ذلك الى قدرته على تخزين كميات هائلة من المعلومات فى حيز صغير ، واحتياجه الى طاقة مضمحلة لتشغيله ، وانما أيضا للسرعة التى يستحضر بها أى شىء يتذكر . ويتميز نظام حفظ المعلومات عند البشر بالمرونة . وبالامكان اعادة تفنيط هذه المعلومات على الفور وفقا لما لا نهاية له من النظرات المستحدثة . وتحتاج أعقد أنظمة الأرشيف أو قوائم المكتبات الى تصنيفها تبعا للمؤلف والموضوع ، وتاريخ النشر أحيانا ، مع احالات متقاطعة بين هذه التصنيفات . أما الأرشيف البشرى للأفكار فيصنف كل فكرة بما لا نهاية له من الطرق ، فبالاستطاعة أن نربط بين كلمة « أحمر » وكلمة « أخضر » أو بين كلمة « ساخن » وكلمة « خسائر » ، أو بين كلمة « أحمر » وكلمة « حياء » أو كلمة « هيكل » أو « شيوعى » أو « لسان » أو « رنجة » أو « دم » مع الاكتفاء بذكر

القليل • وليس بمقدور الكومبيوتر أن يشير الى ذكرياته الا على نحو نسقى مخطط بعناية أو مفسر تفسيرا مسبقا ، ولكنه غير قادر على الانتقال من تصنيف الى تصنيف آخر ، أو من نسق الى نسق آخر ، أو اختراع طريقة أخرى للتذكر •

على أن الربط بين الأفكار يمثل جانبا هاما من التفكير • فبدونه ، ما كان بوسع نيوتن أن يربط بين التفاحة وما قيل عنهـا فى التوراة وسقطة آدم ، وبين حركة الكواكب ، لأن عملية الفهرسة القائمة على النقلة من تصنيف لآخر ، والذى تعرض فيه مادة « سقوط التفاحة » تحت عناوين مختلفة مثل أنظر rate وأنظر Square law أو أنظر حركة الكواكب ، لم يك قد عرف بعد ، كما أن نوربرت وينر Norbert Wiener وشانون ما كان بمقدورهما أن يدركا وجود تماثل بين الطريقة التى تفقد من جرائها الرسالة معقوليتها عند ارسالها وفقدان أى شىء للحرارة من أثر البيئة المحيطة به • كما لم يك باستطاعة أى عالم فزيائى أن يدرك أن هناك تماثلا فى الطرق التى يسلكها كل من الصوت والضوء والحرارة، بحيث يناسبها جميعا تصويرها كموجات • وما كان باستطاعة فرويد أيضا أن يتعرف على العلاقة بين الهنات العابرة للسان والنكات والأحلام وأمراض العصاب •

ان نوع التفكير الذى يصح أن يوصف بحق بأنه تفكير خلاق هو النوع الذى يعتمد على تكوين الأفكار وتنظيمها ، والربط بين هذه الأفكار فى وحدات جديدة أكبر • وهذه الخاصية تخرج تماما عن نطاق صلاحيات الكومبيوتر • اذ لا يعد الكومبيوتر قادرا على ابتكار أية فكرة أو توجيه أى سؤال يصلح كأساس لنظرة أو نظرية جديدة بالاعتماد على الكترونياته وذكرياته ونظامه المنطقى ، وسرعاته البرقية ودقته ومعصوميته •

كما لا يبدو محتملا أن يتسنى لكومبيوتر الغد تحقيق ذلك • فقد تنجح آلات المستقبل فى التغلب على بعض المعوقات الأخرى مثل ضخامة حجمها واحتياجاتها من الطاقة • وثمة بشائر تدل على احتمال توالدها وانجابها لأشياء من نوعها ، ولكنها لن تخلق أفكارا قط !

حقا لا يستبعد أن يصمم كومبيوتر يكون بمقدوره أن يربط ربطا عشوائيا وجنونيا جميع أنواع الوقائع ، ثم يختبرها لمعرفة مـدى توافقها الداخلى • وبالتأكيـد لن يستغـرب نجاحه فى الحصـول على ملايين النظريات • غير أنه لن يهتدى أبدا الى أى معيار لانتقـاء النظريات ، وتحديد ما له معنى منها أو ما هو ذا جدوى • ويقصد بما هو ذا معنى كل ما يرتبط بحاجة الانسان ، الى الاستمرار فى البقاء ، وخلق عالم لنفسه ، ويكون بمقدوره التحكم فيه ذهنيا وفزيائيا •

وباستطاعة العقول الآلية ، أكثر من أى مخترعات أخرى عرفتها البشرية ، أن تقدم العون لخلق بيئة فعالة تقبل الفهم ، وأن تتثبت من أفكار الانسان ، وأن تساعد على ادراك ما فيها من صحة وتوافق داخلى ، وأن توفر ملايين المحاولات والأخطاء ، وأن تحقق ذلك فى أسرع وقت ممكن الى حد يتعذر قياسه ، مع تحصيل معارف جديدة مكتسبة من وقائع جديدة ٠ غير أنه يلزم دائما وجود أحد الآدميين لمتابعة النظرية وعمليات التعميم ولابتكار الفكرة التى تزود بالأساس الذى ترتكن اليه الآلة فى مهام القاء الضوء على الحقائق الجديدة ، ومراجعتها وتطبيقها واكتشافها ٠ أما كيف يستطاع تصور مثل هذه الأفكار الأساسية فمسألة لا نعرفها ٠ وأقصى ما يمكن قوله هو أنه بالمقدور تسميتها بالفكرة الخلاقة الحقة ٠ وهو اجراء يجب أن يظل خاضعا للروح الانسانية ٠ ولن تتحقق الأحلام الوهمية التى تراءت لمفكرينا اليوتوبيين ٠ اذ لا ينتظر أن تسود هذه الروح حتى أعقد العقول الآلية وأكثرها تقدما ٠

● هل بمقدورنا أن نستمر فى البقاء بعد الموت ؟

الخلود : افتراض سقيم — بقلم : البارون دى هولباخ

[البارون بول هنرى دى هولباخ (١٧٢٣ ـ ١٧٨٩) فيلسوف فرنسى بارز ابان عصر التنوير ٠ وتعتمد شهرته على دفاعه عن المذهب المادى] ٠

ما هى الروح ؟ نحن لا نعرف أى شىء عنها ٠ فاذا كانت الروح لها ماهية أخرى مختلفة عن ماهية الجسم ، لكان اتحادها بالجسم ضربا من المستحيل ٠

يرتكن التفوق الذى يدعيه البشر لأنفسهم فوق الحيوانات الأخرى ـ أساسا ـ الى الظن بأنهم يتفردون بامتلاك روح خالدة ٠ ولكن بمجرد سؤالهم عن ماهية الروح ، فانهم يجنحون الى التلعثم ٠ انها جوهر غير

نقلا عن كتاب Superstitions in All Ages (١٩٥٤) تاليف Jean Meslier
مقال كتبه Baron Paul Henri d'Holbach

معروف : انها قوة خفية تختلف عن الأجسام (التى تحتويها) • فالروح اذن شيء لا يعرفون كيف يتصورونه • وعليك أن تسألهم وكيف استطاعت هذه الروح •••• أن تكون مجردة تماما من أى جوهر فزيائى ، وكيف استطاعت أن تتحد هى وأجسامهم المادية .انهم سيردون عليك بأنهم لا يعرفون أى شيء عنها • ففى ظنهم ، ان هذا سر • وسيقولون ان هذا الاتحاد من صنع قوة ذات قدرة شاملة • وهذه هى الأفكار الواضحة التى يكونها البشر عن الجوهر الخفى (أو بمعنى أصح الجوهر الوهمى) الذى يعتبرونه محرك جميع أفعالهم ! • فاذا كانت الروح جوهرا مختلفا بالضرورة عن الجسم ، وليس بينهما أية قرابة • فى هذه الحالة ، لن يكون اتحادهما سرا وحسب ، ولكنه سيغدو مستحيلا •

والى جانب ذلك ، ولما كانت هذه الروح مختلفة من حيث الجوهر عن الجسم فكان يتوجب أن تسلك بالضرورة مسلكا مختلفا عنه • ومع هذا فاننا نرى الروح المزعومة قادرة على الشعور بحركات الجسم ، ونرى هذين الجوهرين ـ رغم اختلافهما الكبير فى الماهية ـ يعملان دائما بتناغم • وربما قلت لنا أن هذا التناغم سر ، وسأقول لكم : اننى لا أرى روحى ، وأعرف جسمى وأشعر به ، وأعرف أن جسمى هو الذى يشعر ويتأمل ويحكم ويعانى ، ويستمتع ، وأن ملكاته جميعا نتائج ضرورية لآليته أو لتنظيمه •

القول بأن هناك روحا قول سخيف والقول بخلودها قول أسخف •

بالرغم من استحالة حصول البشر على أوهى فكرة عن الروح التى تعد أصل حياتهم ، فانهم قد أقنعوا أنفسهم ، بأن هذه الروح المجهولة معفاة من الموت • ان كل شيء قد أثبت أنهم يشعرون ويفكرون ويحصلون على الأفكار ويستمتعون • ولكن جميع هذه الأشياء تتحقق اعتمادا على الحواس أو الأعضاء المادية للجسم • وحتى اذا سمحنا بوجود الروح ، فليس بمقدورنا أن نرفض الاعتراف بأنها تعتمد اعتمادا كليا على الجسم ، وانها تعانى مثلما تعانى من جميع التقلبات التى تجربها بنفسها ، ومهما تخيلنا عدم احتوائها ـ بحكم طبيعتها ـ على أشياء تتماثل والجسم ، وادعينا أن بمقدورها أن تعمل وتشعر بغير عون منه ، وأنه اذا انتزع منها هذا الجسم ، وسلب منه حواسه ، فان هذه الروح ستكون قادرة على العيش والاستمتاع والمعاناة ، وستحس بالمتعة أو بأى عذاب شديد • نعم لقد بنيت الفكرة الرائعة لخلود الروح على مثل هذا النسيج من التخمين والعبث •

فاذا سألت ما هو الأساس الذى لدينا للزعم بخلود الروح ، فانهم سيجيبون على ذلك بأن الانســان بطبعه يرغب أن يكون خـالدا ، أو أن يحيا الى الأبد ، بيد أنى أجيب عن هذا السؤال بالقول : هل يكفى أن تكون لديكم مثل هذه الرغبة الشديدة ، لكى تستخلصوا وتتوقعـوا تحقق هذه الرغبة ؟ فتبعا لأى منطق غريب يقررون أن شيئا ما لن يتوانى عن الحدوث لمجرد اشتهائهم لحدوثه ٠٠ فهل تعد رغبـات الانســان الصبيانية ، وأوهامه مقياسا للحقيقة ؟ انكم تقولون ان الكفرة المحرومين من مثـل هـذه الأمانى الخداعة عن وجود حياة أخرى يرغبون أن يقضى عليهم ٠ بلى ! أليس لديهم نفس هذا الحق فى الاستنتاج من هذه الرغبة بأنهم هالكون مثلما استنتجتم أنكم ستعمرون الى الأبد لمجرد اشتهائكم لذلك ؟

واضح جلى ان الانسان يموت جملة وتفصيلا

ان الانسان يموت كلية ٠ وليس ثمة ما هو أوضح من ذلك لأى شخص بعيد عن الهذيان ٠ اذ لن يزيد الجسم البشرى بعد الموت عن ركام عاجز عن احداث الحركات التى تتألف الحياة من الجمع بينها ٠ ولن نرى آنئذ الدورة الدموية والتنفس والهضـم والكلام والتأمل ٠ وسيزعم آنئذ أن الروح قد فصلت نفسها عن الجسم ٠ غير أن القول بأن هذه الروح ـ غير المعروفة ـ هى مبدأ الحياة ، يعنى قول لا شىء أكثـر من أن هناك قوة مجهولة هى المبدأ الخفى للحركات التى يتعذر ادراكها ٠ وليس هناك ما هو أكثر طبيعية وبساطة من الاعتقاد بأن الانسان الميت لن يموت مرة أخرى ، وليس هناك ما هو أسخف من الاعتقاد بأن الانسان الميت ما زال حيا ٠

اننا نسخر من بساطة بعض الشعوب التى تسود عندها فكرة دفن القوت مع الميت ، ظنا بأن هذا الطعام قد يكون له نفع وضرورة للموتى فى الحياة الآخرة ٠ فهل يعتبر الاعتقاد بأن البشر سيأكلون بعد الموت أكثر اثارة للسخرية من تخيل أنهم ســيكونون قادرين على التفكير ، وستتوافر لهم أفكار مستحبة وأخرى منفرة ، وأنهم سيشعرون بالمتعة وبالمعاناة ، وأنهم سيعون الحزن أو البهجة ، بعد أن تكون الأعضاء التى تحدد الاحساسات أو الأفكار قد تحللت ، وتحولت الى هشيم ؟ ٠ والزعم بأن أرواح البشر ستكون سعيدة أو تعيسة بعد موت الجسد ، يعنى ادعاء قدرة الانسان على الرؤية بغير عينين ، والسمع بغير أذنين ، والتذوق بلا بلعوم ، والشم بلا أنف ، والشعـور بل يدين أو جلـد ٠ على أن الشعوب التى تعتقد أنها عقلانية للغاية تتبع مثل هذه الآفكار ٠

براهين لا اختلاف بشأنها ضد روحانية الروح

وتزعم العقائد المؤمنة بخلود الروح أن الروح جوهر بسيط . غير أننى لن أتوقف عن التساؤل عما هو مقصود بالروح ؟ انكم تقولون أنها جوهر ليس فى مقدوره الامتداد ، ولا يتعرض لفساد ، وليس هناك شىء مشترك بينه وبين المادة . ولكن لو صح هذا ، فكيف ، اذن ظهرت روحك الى الوجود ؟ وكيف نمت وكيف يقوى ساعدها : وكيف تضعف وتصاب بالخلل وتهرم مع جسدك . وعند الاجابة عن جميع هذه الأسئلة فانكم تكتفون بالقول بأنها أسرار ، ولكن اذ صح أنها أسرار ، فان هذا سيعنى انكم لا تفهمون أى شىء عنها . فاذا كنتم لا تفهمون أى شىء عنها ، فكيف سيتسنى لكم اثبات أى شىء عنها بطريقة موجبة . اذ يلزم قبل الاعتقاد فى أى شىء أو تأكيده ، أن يعرف ما الذى يتألف منه هذا الشىء ، الذى نؤمن به ، والذى نؤكده . غير أن ما يعنيه اعتقادك فى وجود روح لا مادية هو اقتناعك بوجود شىء ما يتعذر شعورك بحقيقته . وبعبارة أخرى ، أنه يعنى الايمان بكلمات ليس بمقدورك أن تتصورها تصورا حقيقيا . وبذلك يكون تأكيد أى شىء على نحو ما تدعى أشنع حماقة وادعاء ...

من الزيف القول بأن المذهب المادى يحط من قدر الجنس البشرى

ويعترض على المادية ويقال أنها جعلت الانسان مجرد آلة . وهذا رأى يظن أنه يحط كثيرا من قدر الجنس البشرى . ولكن هل سيزداد الجنس البشرى احتراما اذا صح القول بأن الانسان يعمل بفضل قوة خفية مستمدة من الروح ، أو بشىء يقينى ما ينشط حياته دون علمه كيف ؟ ولن يتعذر علينا ادراك أن السيادة التى منحت للعقل على المادة ، أو للروح على الجسم ، تستند الى الجهل بطبيعة هذه الروح . وبينما نحن أكثر ألفة بالمادة أو الجسم ، ونتخيل أننا نعرفهما ، ونعتقد أننا على دراية بأصولهما ، الا أن أبسط حركات أجسامنا تبدو فى نظر أى مفكر لغزا يصعب حدسه أو التفكير فيه .

والظاهر أن التقدير الذى يكنه معظم الناس للجوهر الروحى قد نتج عن الاستحالة التى يتعرضون لها عند تعريفه على نحو مقبول لأهل الفكر . وقد نجم الازدراء الذى يضمره فلاسفتنا الميتافزيقيون للمادة من حقيقة : « ان الألفة تولد الاحتقار » . وعندما يخبروننا أن الروح أكثر امتيازا وسموا عن الجسم ، فانهم لا يذكرون لنا شيئا أكثر من القول بأن ما لا يعرف أى شىء عنه يجب أن يكون أجمل من تلك الأشياء التى ليس لديهم أكثر من أفكار واهنة عنها .

الاعتقاد بوجود حياة أخرى مفيد لأولئك الذين يتربحون منه على حساب مصداقية الجماهير ٠

انهم يذكروننا دائما بنفع الاعتقاد فى وجود حياة أخرى ٠ ويزعمون أن هذا الاعتقاد ـ حتى لو كان خرافة ـ الا أنه مفيد لأنه يفرض الفضيلة على البشر ، ويسوقهم اليها ٠ ولكن هل حقا يساعد هذا الاعتقاد على زيادة الحكمة والفضل عند الناس ؟ وهل تتميز الشعوب التى توطدت عندها هذه الخرافة بألمعيتها بفضل أخلاقية سلوكها ؟ ألا يفضل العالم المرئى دائما على العالم الخفى ؟ لو أن أولئك الذين عهد اليهم بتربية الناس وحكمهم قد حظوا بالتنور والفضل ، لكان بوسعهم أن يحكمونهم على نحو أفضل اعتمادا على الحقائق بدلا من الأوهام التافهة ، غير أنه لما كان المشرعون يتصفون بالانخداع والطموح والفساد ، فقد رأوا أن الأسهل هو تخدير الشعوب بالخرافات عوضا عن تعليمهم الحقائق وانماء عقولهم . واثارتهم عن طريق الدوافع المعقولة والحقيقة وحكمهم باتباع العقل ٠

وليس من شك أن أهل اللاهوت قد عثروا على مبررات تسوقهم الى جعل الروح لا مادية ، فلقد احتاجوا الى أرواح وأوهام لتعمير البقاع الخالية ، التى اكتشفوها فى العالم الآخر ٠ ولو كانت الأرواح مادية لتعرضت مثل جميع الأجسام للتحلل ٠ والى جانب ذلك ، فاذا اعتقد الناس أن كل شيء سيتلاشى مع الجسم ، فان علماء جغرافيا العالم الآخر سيفقدون ـ كما لا يخفى ـ فرصة ارشاد أرواحهم لهذا المستقر المادى المجهول ، ولن يجنوا أية أرباح من الأمانى التى سيغذونهم بها ، ومن الأهوال التى يحرصون على اثارة هلعهم منها ، فاذا كان المستقبل بلا نفع للجنس البشرى ، فانه سيتحقق أعظم نفع لأولئك الذين يضعون نصب أعينهم مسئولية سوق البشر الى هناك ٠

من الزيف القول بأن الاعتقاد فى وجود آخرة بمثابة عزاء ، ولو كان ذلك كذلك ، لما كان برهانا على صحة هذا القول ٠

غير أنه قد يقال ألا يحقق الاعتقاد فى خلود الروح عزاء للكائنات التى كثيرا ما تلفى نفسها تعيسة للغاية على هذه الأرض ؟ ولو كان هذا الاعتقاد وهما ألا يصح القول بأنه وهم لطيف ومستحب ؟ أليس الأنفع للانسان أن يعتقد أن بمقدوره أن يحيا ثانية ، وأن يستمتع أحيانا بالسعادة التى حرم منها على الأرض ؟ ٠ هكذا أيها الفانون البؤساء ، لقد

جعلتم أمانيكم مقياسا للحقيقة ! فلقد دفعتكم رغبتكم فى الحياة الى الأبد ، والى زيادة سعادتكم • الى استنتاج أنكم من الآن فصاعدا ستحيون الى الأبد ، وأنكم ستكونون أسعد حالا فى عالم مجهول من حالكم فى العالم المعروف ، الذى طالما شعرتم فيه بالتعاسة ! وافقوا اذن على ترك هذا العالم دون أسف عليه ، لأنه يتسبب فى شقاء يفوق المتعة لمعظمكم • استسلموا لنظام الأقدار الذى ينص على أنكم كباقى الكائنات لن تستمروا فى البقاء الى الأبد • غير أنك قد تسأل ، وما الذى سيحل بى ؟ نفس الحال التى كنت عليها منذ ملايين من السنوات • أما ما هى تلك الحالة فلا أدرى من كنهها شيئا •• نعم عليكم أن تستسلموا حتى تعودوا فى لمح البصر ، الى ما كنتم حين ذاك • عودوا بسلام الى الدار الباقية التى وفدتم منها دون علمكم وانخدعتوا بهذا الشكل المادى • عودوا من حيث أتيتم بغير همهمة مثل جميع ما يحيط بكم من كائنات •

هل الحياة بعد الموت ممكنة ؟ بقلم : كورت جون دوكاس

[ولد كورت جون دوكاس (١٨٨١ - ١٩٦٩) فى فرنسا ، وتعلم فى الولايات المتحدة • وتميز كفيلسوف أمريكى وأستاذ للفلسفة • ولقد تنوعت اهتماماته وكتاباته وامتدت الى نطاق فلسفة الدين والميتافزيقا والاستاطيقا والأبحاث الروحية والنفسية• وألف العديد من الكتب من بينها :

Philosophy as a Science — Nature, Mind and Death its Matter and Method — A Critical Examination of the Belief in a Life after Death).

يقال أحيانا أن مسألة هل تستمر الشخصية الانسانية فى البقاء بعد الموت من المسائل التى لا طائل وراء التفكير فيها • ويقال ان الدليل

محاضرة بعنوان Is Life After Death Possible ? القاها Curt John Ducasse ضمن موسم محاضرات Anges E and Constantine E Foerster سنة ١٩٤٧ •

التجريبى وحده هو ما يهم ، لأن المسألة يجب أن تتركز على الحقائق وحدها ؟

غير أنه لا يصح اعتبار المسألة مسألة وقائع أو حقائق ، الا اذا فهمت فهما واضحا. وهذه المسألة ـ على العكس ـ حافلة بالنقائض، وبافتراضات ضمنية . وما لم تزال هذه النقائض ، وتفحص الافتراضات فحصا نقديا ، فانه لن يجوز القول بأننا نعرف حقا ما الذى نريد أن نعرفه عندما نتساءل : هل الحياة بعد الموت ممكنة ، ومن ثم فاننا لن نكون قادرين قبل ذلك على ذكر ما الذى سيترتب على هذا السؤال من وقائع متنوعة معروفة لنا تجريبيا .

وما أنوى القيام به أساسا هو توضيح هذا السؤال : « هل الحياة ممكنة بعد الموت » ، وسأسأل أولا : ما الذى يدفع الناس بوجه عام الى تمنى الحياة مستقبلا ، والى الاعتقاد فى صحة ذلك . ثم سأطرح بأقصى ما لدى من قدرة على الاقناع الحجج التى تساق عادة لاثبات استحالة مثل هذه الحياة . وبعد ذلك ، سأبحث فى منطق هذه الحجج ، وأبين أنها أخفقت فى اثبات هذه الاستحالة . ثم يشار الى الافتراض التعنتى ، وان كان مفهوما ضمنا ، الذى جعل هذه الحجج تبدو ـ رغم ذلك ـ مقنعة . وأخيرا سأبحث باقتضاب عددا من الأشكال الخاصة التى قد تتخذها الحياة بعد الموت ، لو كانت هناك مثل هذه الحياة .

ولنبدأ بأول هذه المهام .

لماذا يتمنى الناس الحياة بعد الموت :

وأبدأ بالقول بأن كل فرد يحيا ويشعر ويعى جميع فترات الماضى التى بمقدوره أن يتذكرها . حقا ان أجسامنا تكون أحيانا فى سبات عميق ، أو قد تتحول الى كتلة هامدة من أثر التخدير أو الاصابة . غير أنه حتى فى مثل هذه الحالات ، فاننا لا نشعر بفقدان الوعى فى أنفسنا ، فلو شعرنا بذلك ، سيكون معنى ذلك ، اننا على وعى باللاوعى . وهذا قول متناقض . وليست التجربة الوحيدة للاوعى التى نشعر بها من نوع الفقدان الكامل للوعى . فقد تكون لا وعيا بهذا أو ذاك ، مثلما يحدث عندما نقول : « لست أعى ما يوجعنى » ، أو « لم أع دقة الجرس » ، أو « لم أع أى اختلاف بين هذين اللونين » ... الخ . كما أننا لا نشعر بحالات اللاوعى التى يتعرض لها الأخرون . وتظهر لنا مثل هذه الحالات ، فى صورة توقف لبعض أنشطة جسمنا ، أو توقف لجميع هذه الأنشطة . وما يعنيه خمود الوعى فى مثل هذه الحالات هو افتراضنا حدوث بعض

تغيرات فى السلوك طرأت على جسم شخص آخر ، أو تبريرنا لافتقاره الى تذكر الأحداث المتصلة بفترة ما عنده أو عندنا ٠

وهكذا يعد الشعور بالحياة والوعى عند جميع الناس عادة وتجربة تستمر طيلة الحياة ٠ وتكون الحياة الواعية ضمنا ، وتبعا لذلك شيئا ما نتوقع طبيعيا استمراره فى الحدوث ٠ وكما أشار جيمس بيسيت برات (١٨٧٥ - ١٩٤٤) فان الطفل يسلم بمسألة استمرارية الحياة ٠ أما ما يتوجب تعليمه له فهو حقيقة الموت ٠ على أنه عندما يتعرف الى هذه الحقيقة ، وتطرح أمام عقله فكرة الحياة فى الآخرة أو المستقبل ، فانها تبدو له أكثر الأشياء طبيعية فى العالم (١) ٠

على أن شهود الموت من التجارب النادرة لمعظمنا ، لأنه يقتحم الأوضاع التى اعتدناها ، ويفرض علينا مسألة هل مازال العقل - الذى كانت مظاهره تتمثل من خلال الجسم الذى مات الآن - مستمرا فى البقاء على نحو ما ، أم أن الأمر على عكس ذلك ، أى أن جذوته قد انطفأت نهائيا ٠ وجرت العادة أن يصاغ هذا السؤال كأنه يخص « مسألة خلود الروح » ٠ و « الخلود » ، اذا توخينا الدقة ، يعنى استمرار البقاء الى الأبد ٠ غير أن توكيد استمرار البقاء لفترة طويلة ما كألف سنة أو حتى مائة ، سيكون له قيمة سيكلوجية تؤكد ما يشبه التأكيد القاطع استمرار البقاء الى الأبد ٠ وقد لا يشعر معظمنا بأكثر من قليل من الاضطراب من فكرة الفناء بعد عمر طويل ، وربما أقل من شعور أى شاب سعيد سليم البنية بالاضطراب من فكرة توقع موته فى سن الخمسين أو الستين ٠ وعلى هذا فان ما سأبحثه الآن هو الاستمرار فى البقاء لبعض الوقت ، وليس الاستمرار فى البقاء الى الأبد ٠

واشتهاء البقاء بلا حد منتشر للغاية ٠ وحتى فى حالة الأشخاص الذين يعتقدون أن الموت يعنى الفناء الكامل لوعى الفرد ، فانهم كثيرا ما يشعرون بالارتياح للأفكار المختلفة ، التى تجىء كعوض عن فكرة البقاء ٠ فمثلا انهم قد يرتاحون الى استمرار انتقال الصفات الموروثة للفرد عند الأخلاف أو عند الذرية ٠ أو قد يشعرون بالعزاء عندما يتصورون أن الماضى لن يضيع هباء ، أو أن حياتهم الفردية ستظل الى الأبد جزءا جوهريا من تاريخ العالم ٠ وهناك أيضا حقيقة أنه لما كان لأفعال الفرد فى حياته آثار ، لها بدورها آثار أبعد ، وهكذا ، لذا فان ما فعله الانسان فى الماضى ، سيظل يؤثر فى سير الأحداث مستقبلا ، وحتى عهد

---

(١) The Religious Consciousness — J. B. Pratt.

بعيد . وأحيانا يكون هذا التأثير شديدا . ولعل هذه الفكرة أكثر ارضاء لما يشتهيه الفرد من شعور بأهمية شخصيته .

ومما يشبع شعور الانسان بالزهو أيضا ، أن يتوقع فى حالة عظم شأن منجزاته ، ظاهريا على أقل تقدير ، أو كانت أفعاله الخيرة أو الشريرة ملحوظة ، أن لا تقتصر معرفة اسمه على المعارف والأقارب لفترة قصيرة ، وانما أن تظل باقيه فى سجلات التاريخ . غير أن أى استمرار فى البقاء بأى معنى من هذه المعانى ، لا يزيد ـ كما لا يخفى ـ عن عزاء ، أو لا يزيد عن عرض رهيف عن استمرار الحياة الفردية الواعية . التى قد لا تكون حقيقة واقعة ، وان كان معظم الناس يشتهونها رغم ذلك .

وتمتد جذور هذا الاشتهاء الى رغبات خاصة يبدو أن الموت يحبطها . وعند بعض ، على رأس هذه الرغبات : الرغبة فى الالتقاء بالأشخاص الذين يحبهم ويعزهم . وعند آخرين ، ممن شعروا بالبؤس فى الحياة ، تكون هذه الرغبة هى الرغبة فى الحصول على فرصة أخرى للسعادة التى افتقدوها ، وعند بعض آخر ، تتجه الرغبة الى الحصول على فرصة أخرى لانماء القدرة والمعرفة والشخصية . وغالبا ما تكون هناك رغبة ـ سبق التنويه اليها ـ فى الاستمرار فى القيام بدور ما فى حياة الآخرين . كما أنه كثيرا ما تشتهى الحياة المستقبلية لأى امرىء وللآخرين حتى يستطاع رد الحيف عن المظالم المتعددة فى هذه الحياة . غير أنه ما من شك أنه بالرغم من كفاية مثل هذه الرغبات غالبا لاحداث الاعتقاد فى وجود حياة مستقبلية ، الا أنها لا تعد دليلا على الاطلاق على أن هذه الرغبات حقيقة واقعة .

وفى هذا المقام ، قد تحسن الاشارة الى أنه على الرغم من وجود الاعتقاد فى استمرار البقاء والاعتقاد فى وجود اله أو الهة فى أغلب الأديان ، الا أنه ليس هناك اتصال ضرورى بين هذين الاعتقادين . فلا تناقض بين افتراضنا أن الله موجود ، وعدم وجود حياة بعد الموت ، أو افتراضنا أن هناك حياة بعد الموت ، بغير وجود اله . وقد يكون الاعتقاد فى وجود حياة بعد الموت مرتبطا بالدين ، ولكنه ليس من أركانه الرئيسية .. ولا يختلف فى هذا الشأن عن الاعتقاد فى وجود حياة على الكوكب مارس . فعالم ما بعد الموت ـ لو وجد ـ بمثابة نطاق آخر من الكون ، ومظهرا له .

بيد أنه وعلى الرغم من أن الاعتقاد فى البقاء بعد الموت أمر طبيعى وسهل ، وكثيرا ما ساد فى صورة أو أخرى ، واعتنقته أغلبية عظمى من البشر ، الا أن النظر النقدى سرعان ما يتقدم بالعديد من الأسباب التى

تبدو قوية ظاهريا ، والتى ترى هذا الاعتقاد من قبيل الوهم ، ولنحاول فحص الأسباب ٠

● الحجج التى تقال ضد الاستمرار فى البقاء

هناك أولا عدد من الوقائع التى توحى بصفة قاطعة باعتماد طبيعة الوجود وطبيعة الوعى اعتمادا كاملا على وجود جهاز عصبى فعال ٠ فمثلا يشار الى أنه حيثما لوحظ الوعى فانه قد وجد متداعيا وجسم حى يؤدى وظيفة ما ٠ وفضلا على ذلك ، فعندما يموت الجسد أو تتلقى الدماغ ضربة قاضية أو يستعمل أى مخدر ، فان الشواهد الخارجية المألوفة للوعى تنتهى دائما أو مؤقتا ٠ كما أننا نعرف جيدا أن العقاقير بمختلف أنواعها كالكحول والكافيين والأفيون والهيروين وغير ذلك تحدث تغيرات خاصة فى حينه فى طبيعة الحالات الذهنية للشخص ٠ وعندما نحدث أى تنبيه للأعضاء الحسية للجسم باستعمال الوسائل المناسبة ، من الميسور حدوث حالات مناظرة فى الوعى ، يعنى فى مختلف أنواع الاحساسات ، تبعا لمشيئتنا ، ومن ناحية أخرى ، فان قطع أى عصب حسى يتسبب بطريقة مباشرة فى استبعاد سلسلة كاملة من الاحساسات ٠

وتتعرض أيضا محتويات الوعى والقدرات الذهنية ـ أو حتى الشخصية ـ لتعديل أساليبها المميزة عندما تتهشم مراكز معينة فى المخ من أثر المرض أو الاصابة ، أو اذا فصلت عن باقى المخ من جراء عملية جراحية كما يحدث فى حالة Prefrontal lobotomy ٠ ومما يثبت أن الجهاز العصبى أساس لا غنى عنه للعقل هو حقيقة أنه فى السلم التطورى ، فان ثمة صلة وثيقة بين درجة ذكاء مختلف الأنواع ، ودرجة نمو المخ ٠

وذكر أيضا أن استمرار بقاء العقل بعد الموت أمر مستحيل بناء على اعتبارات نظرية ، وبنيت على نفس هذه الاعتبارات الحجة القائلة ، بأن ما نسميه حالات الوعى ـ أو زيادة فى التخصيص ـ بالوعى أو الأفكار أو الاحساسات والأفعال الارادية والمشاعر . وما أشبه ، لا تزيد عن كونها الأحداث الفزيائية أو الكيمائية التى تحدث فى أنسجة المخ ٠ وقد يكون من السخف افتراض أن أية فكرة أو فعل ارادى ـ لو لم تك هى ذاتها شيئا اراديا أو عملية مادية ـ قادرة على احداث آثار مادية مثل تقلص العضلات ٠

وفضلا عن ذلك ، يقال ان امكان احداث أية علة لا مادية أو ذهنية لمعلولات من الأحداث المادية أمر مستبعد قبليا apriori بحكم مبدأ

الحفاظ على الطاقة ، لأن مثل هذه التعليلات قد تعنى أن قدرا اضافيا من الطاقة قد مرق مروقا مباغتا على الجهاز العصبى وجاء من حيث لا ندرى ٠

وثمة تصور آخر للوعى ، كثيرا ما نصادفه فى أيامنا هذه أكثر من الفكرة التى ذكرناها فى التو ، وان كان يتضمن أيضا القول بأن الوعى ليس قادرا على الاستمرار فى البقاء بعد الموت ٠ وقوام هذا التصور هو الظن بأن « الوعى » لا يزيد عن كونه اسما نطلقه على أنواع من السلوك تتميز بها الحيوانات الأسمى على جميع الكائنات الأخرى فى الطبيعة ٠ وتبعا لهذه النظرة ، فاذا قلنـــا ــ على سبيل المثال ــ أن الحيوان يعى الاختلاف بين منبهين ، فان هذا القول لا يعنى شيئا أكثر من أن هذا الحيوان يستجيب لكل منبه بسلوك مختلف ٠ وهكذا يكون الاختلاف فى السلوك هو ما يدل عليه الوعى بالاختلاف بين المنبهـات ، ولكنه ليس ــ كمـا يزعم عادة ــ مجرد علامة سلوكية لشىء ذهنى وعام يوصــف « بالوعى بوجود اختلاف بين المنبهات » ٠

كما أن هنـاك هوية بين « الوعى » ــ من النوع الذى يتميز به الانسان ، أى ما يعرف بالفكر ــ وبين النوع الانسانى المميز من السلوك المسمى بالكلام ٠ ولا يعنى بهذا أيضا أن الكلام يعبر أو يكشــف عن شىء ما مختلف فى ذاته يدعى بالفكر ، وانما بمعنى أن الكلام سواء أفصح عنه أو قيل همسا هو الفكر ذاته ٠ ولا يخفى أنه ما دام الفكر ــ أو أى فعل ذهنى آخر ــ لا يزيد عن كونه أسلوبا من السلوك يسلكه الجسم الحى ، فان فى غير مقدور العقل أن يبقى بعد الموت ٠

وثمة صعوبة أخرى تواجه فرضية استمرار البقاء ، وتظهر جلية عندما نتخيل فى بعض التفصيل ما يتعين أن تتضمنه حالة الاستمرار فى البقاء ، حتى ترضى الرغبات التى تدفع الانسان لاشتهائها ٠ اذ يتوجب أن تضم هذه الحالة ، ليس فقط استمرار الوعى ، وانما أيضا استمرار الشخصية أو سلوك الفرد المكتسب بفضل المعرفة ٠ غير أن هذه المقومات ذاتها قد لا تكون كافية ، لأن ما يتمناه الانسان ليس مجرد الاستمرار فى البقاء فحسب ، وانما أن يستمر فى الحياة على نحو موضوعى ٠ وهذا يعنى الاستمرار فى مواجهة مواقف جديدة ، عندما يجد فى التعامل معها ، تزداد تجاربه اتساعا وعمقا ، كما تنمو مواهبه الدفينة ٠

غير أنه من العسير تخيل حدوث ذلك بغير جسم وبيئة ، يتعامل معهـا ، ويتلقى منهـا التأثيرات ٠ واذا افترضنا وجود جسم وبيئة ، وافترضنا أنهما ليسا ماديين وقابلين للفساد ، هنا سيكون من المفارقة

الظن بامكان استمرار بقاء أية شخصية معينة فى ظل مثل هذه الأحوال الراديكالية المختلفة (٢) ٠

ولنرجع الى تشبيه حقيقى ، ولكنه ذو دلالة ، فاذا تصورنا حدوث تغير مباغت لجسم أحدنا وتحوله الى سمكة القرش أو اخطبوط ، وانتقاله الى المحيط فان شخصيته ستستمر فى البقـاء سـليمة لأكثر من فترة قصيرة ، رغم مثل هذا التغير الراديكالى فى البيئة وشكل الجسم ٠ وهذا مثل ذو دلالة رغم أنه من الأمور التى تبدو بعيدة عن الخيال ٠

● فحص الحجج

باختصار ، هذه هى الأسباب الأساسية التى تساق للتدليل على استحالة القول بالاستمرار فى البقـاء ٠ على أن التدقيق فيهـا يكشف — فى اعتقادى — عن عدم اتسامها بالقوة ، مثلما تبدو للوهلة الأولى ، وأنها تبتعد تماما عن القوة الكافية عندما تحاول أن تثبت عدم وجود حياة بعد الموت ٠

ولنبدأ أولا ببحث القول بأن « الفكر » أو « الوعى » مجرد اسم آخر يرادف معنى ما تحت المنطوق أو لصورة أخرى من صور السلوك ، أو للعمليات الجزئية التى تجرى فى أنسجة المخ ٠ وكما أشار باولسن وآخرون (٣) : ليس هناك دليل بالاستطاعة تقديمه لتأييد هذا القول لأنه فى الحق لن يزيد عن اقتراح متخف لجعل كلمات مثل « فكـــر » و « شعور » واحساسات ورغبة ٠٠٠ الخ ٠ تدل على وقائع بعيدة تماما عن تلك التى تستعمل هذه الكلمات عادة للدلالة عليها ٠ والقول بأن هذه الكلمات لا تزيد عن كونها كلمات أخرى للدلالة على أحداث كيمائية أو سلوكية فيه قدر كبير من التعسف ٠ تماما مثل القول بأن كلمة « خشب » ما هى الا كلمة أخرى للدلالة على الزجاج أو أن كلمة « بطاطس » ما هى الا كلمة أخرى للدلالة على « كرنب » ٠ أما ما الذى تدل عليه كلمات مثل فكرة ورغبة واحساس وغير ذلك من الحالات الذهنية ، فبمقدور كل منا

Gardner Murphy مقال بعنوان : Difficulties Confronting the Survival Hypothesis —
Journal of American Society of Psychical Researches Corliss Lamont
The Illusion of Immortality

(٣) Paulsen فى كتاب Introduction to Philosophy ترجمة F. Thilly ص ٨٢ ٨٣ ٠

أن يلاحظ ذلك اعتمادا على الاستبطان · وما يكشف عنه الاستبطان هو أنها لا تتشابه اطلاقا هي والتقلصات العضلية ، أو الافرازات الهرمونية ، أو أية أحداث جسمانية معروفة · وليس باستطاعة أى تلاعب باللغة أن يغير من الحقيقة الملحوظة التى ترى أن التفكير شيء ، والتمتمة شيء آخر ، وان الشعور المسمى بالغضب لا يتشابه على أى وجه هو والسلوك الجسمانى الذى يصحبه عادة ، أو أن أى فعل ارادى لا يتماثل على الاطلاق وأى شى نصادفه عندما نفتح الجمجمة ونفحص المخ · وليس من شك أن بعض الأحداث الذهنية ترتبط على نحو ما بأحداث جسمانية ما · ولكنها ليست هى هى هذه الأحداث الجسمانية · فالارتباط شيء والهوية شيء آخر ·

فاذا اتضح ذلك ، فان علينا أن نفحص الحجج التى تساق لبيان أنه على الرغم من أن العمليات الذهنية ليست مماثلة للعمليات الجسمانية ، الا أنها مع ذلك تعتمد عليها · ويقال لنا على سبيل المثال أن أية اصابة للرأس أو تخدير يخمد الوعى كلية لبعض الوقت · ومع هذا ، وكما أشير سابقا ، فان حقيقة الأمر هى أن علامات الوعى المعتادة تكون حين ذاك غائبة · بيد أنها تغيب أيضا عندما يستغرق شخص فى النوم ، وان كان يستغرق فى الحلم فى الوقت نفسه · وهذا الاستغراق فى الحلم حالة من حالات الوعى ·

حقا انه عندما يفيق الشخص المعنى ، فانه كثيرا ما يتذكر أحلامه · أما الشخص الذى تعرض للتخدير أو الاصابة فعادة لا تكون لديه متذكرات مرتبطة بفترة الغفلة الظاهرية · غير أن هذا قد يعنى أن وعيه كان لأول مرة منفصلا عن القنوات العادية للعروض ، كما ذكر الدكتور مورتون برنس (٤) عن الشخصيات الواعية لبعض مرضاه · وفضلا عن ذلك ، فقد يحدث أحيانا · أن يبلغ شخص عن فقداته للذاكرة فى حادث ، ولا يقتصر حدوث ذلك على الفترة التى فقد فيها جسمه التجاوب ، ولكنه يمتد أيضا لمدة ساعات قبل الحادث ، ويكون قد عرض لمرافقيه جميع العلامات الخارجية الدالة على تمتعه بالوعى كالمعتاد ·

ولكن وبوجه عام ، اذا أثبتت حالة غياب المتذكرات المرتبطة بفترة معلومة أنها مثلت حالة فقدان للوعى طيلة هذه المدة ، فانها سترغمنا على الاستنتاج بأننا كنا فى حالة فقدان للوعى ابان السنوات القليلة الأولى من حياتنا · ولقد كنا يقينا على هذا النحو فى معظم الوقت منذ ذلك

---

(٤) My life as a Dissociated Personality — Morton Prince.
(ضمن مجموعة مقالات أشرف عليها المؤلف) ·

الحين . فالحق أنه ليست لدينا متذكرات تذكر عن أغلب أيام حياتنا . وليس الاعتقاد بأننا كنا أحياء واعين فى أى عهد بالذات فيما مضى ـ باستثناء فترات قليلة ـ بالشيء الذى نذكره بالفعل . ولكنه شيء نستنتج أنه يجب أن يكون حقيقيا .

● الدليل من البحث النفسى

ومن الحجج التى ذكرت ضد استمرار البقاء ، كما يجب أن نذكر . القول بأن الموت يتعين أن يخمد فاعلية العقل ، لأنه عندما يحدث تتوقف آنئذ جميع مظاهره ، ولكن القول بأنها تتوقف حين ذاك توقفا قاطعا . يعنى أننا قد تجاهلنا تجاهلا كاملا القدر الكبير من الأدلة ، الذى يثبت العكس ، والذى قامت بجمعه جمعية الأبحاث النفسية زهاء عدة سنوات ، وراجعته مراجعة دقيقة . ولقد استعرض هذه الأدلة التى تنتمى الى مختلف الأنواع الأستاذ جاردنر بيرنى فى مقال نشر فى مجلة الجمعية (٥)، وذكر أولا الحالات الموثقة على خير وجه لحالات ظهور شبح أحد الأموات لآخرين لم يكونوا قد سمعوا بخبر موته ، أو حتى اصابته بمرض أو تعرضه لخطر . أما الحالات الأكثر تدعما بأدلة قوية عن وجود شبح فكانت تلك الحالات التى قام فيها الشبح بنقل بعض الحقائق التى كانت آنئذ من الأسرار الى الشخص الذى رآه . ومن الأمثلة التى يمكن ذكرها المثل الخاص بشبح فتاة ظهر لأخيها بعد تسع سنوات من وفاتها ، وكان على خدها ندب واضح ، وقد أثبتت أمهما أنها هى بالذات التى أحدثت هذا الندب فى خد ابنتها عندما كانت تجهز جثمانها للدفن ، وان كانت قد قامت بتغطيته على الفور بمسحوق ، ولم تذكر هذه الواقعة لأحد على الاطلاق .

ومن الحالات المشهورة حالة الأب الذى ظهر شبحه بعد موته بفترة ، وكشف لأحد أبنائه عن وجود وصية ثانية غير متوقعة ، وعن مكانها . وعثر بعد ذلك عليها فى المكان الذى أشير اليه . ومن الأمثلة الأخرى ، التقرير الذى كتبه الجنرال بارتر ، وكان آنئذ ملازما فى الجيش الانجليزى

---

(٥) An Outline of Dissociated Evidence فى مجلة Journal of American Society for Psychical Research (يناير ١٩٤٥) والقول بأن حالات الأشباح قد وثقت قد تعرضت للخلاف من قبل عدد كبير من العلماء ، انظر الى ما كتبه C. E. M. Mansel وبخاصة فى كتاب A Scientific Evaluation (من نشر Scribner نيويورك (١٩٦٦) وما كتبه Milbourne Christopher وعلى الأخص فى كتاب Seers and Psychics (كروبل ١٩٧٠)

بالهند عن شبح للملازم آخر لم يك قد رآه منذ سنتين أو ثلاث سنوات ، وكان شبح الملازم يمتطى جوادا أحمر له معرفة سوداء وذيل أسود ، وبدا أقوى مما رآه فى آخـر لقـاء لهما ٠ وبينما كان فيما مضى حليق الذقن ، فانه أطال الآن ذقنه ، التى بدت كأنها أهداب تحيط بوجهه ٠ وعند الاستفسار فى اليوم التالى من شخص عرف الملازم فى الوقت الذى مات فيه ، اتضح أنه ازداد فى الوزن وكان يبدو متورم الوجه ، قبل موته ، وأنه قد أطال لحيته عندما درج اسمه فى كشف المرضى ، وأنه قد اشترى قبل ذلك العهد مهرا تنطبق عليه الأوصاف الآنفة الذكر ، وانتهى به الأمر الى انهاك قواه حتى مات ٠

ومن الأمثلة المسجلة الأخاذة الأخرى ، الشـبح الذى رآه جملـة أشخاص فى نفس الوقت ٠ وحالة أخرى لشبح طفل رآه أول مرة كلب فاندفع نحوه ونبح بصـــــوت مرتفع ، قطع الحوار الدائر بين جملة أشخاص كانوا حاضرين فى الغرفة ، وبذلك لفت انتباههم الى الشبح ، الذى أخذ يتنقل فى أرجاء الغرفة متبوعا بالكلب ونباحه (٦) ٠

وثمة نوع آخر من الأدلة التجريبية لاستمرار البقاء بعد الموت ، تمت عن طريق الاتصال ، وثبت صدورها من الأموات ، ونقلت بوساطة أشخاص يسمون بالحساسين والوسطاء وال automatists ٠ ومن أبرز هذه الاتصالات ، الاتصال الذى قامت به الوسيطة الأمريـكية الشهيرة المسز بيبر ، التى تمكنت جمعيه الابحاث النفسية فى لندن من دراسـة حالتها ، بعد أن اتخذت احتياطات دقيقة ضد أى احتمال للغش ٠ وتكررت مرتين أدلة تحقيق الشخصية التى قدمها الأشخاص الموتى الذين طلبوا التخاطب والأحياء ٠ وكانت هذه الأدلة من نفس النوع ، واتسمت بنفس الدقة والتفصيل ، الذى يرضى عادة أى انسان حى عن شخصية حى آخر ، لم يك قادرا على التخاطب معه بطريقة مباشرة ، وانما عن طريق وسيط ، أو بوساطة الرسائل أو التليفون (٧) ٠

---

(٦) ذكرت الوثائق التى حصلت عليها جمعية الأبحاث النفسية والمتعلقة بهذه الحالة ، وتلك الخاصة بشبح الملازم ، وبشبح الفتاة ذات الندب فى كتاب لسير ارنست بنيت بعنوان Apparitions and Haunted Houses (لندن E.F. ١٩٤٥) ٠ ص ٣٣٤ ، ص ٣٣٥ ـ ص ٢٨ ، ٣٥ ، ومن ١٤٥ ـ ١٥٠ ٠

(٧) ثمة خلاصة لبعض الوقائع البيانية بالاستطاعة الاهتداء اليها فى الكتاب الذى ألفـه M. Sage. Scott-Thaw نيـــــويورك ١٩٠٤) بعنوان

Mrs Piper and the Society for Psychical Research

ورويت أحداث أخرى ببعض التفصيل فى كتاب

The Survival of Man — Sir Oliver Lodge

(١٩٠٩م) ، وفى كتاب Both Sides of Veil — A. M. Robbins وذكر أكمل بيـــان لذلك فى مجلة جمعية الأبحاث النفسية ٠

وأيضا وأحيانا قد تم الحصول على نفس العلامة الدالة على هوية الشخص الميت أو نفس الرسالة المرسلة منه ، أو على أجزاء متكاملة من رسالة واحدة قدمها كل وسيط على حدة ، علما بأن الوسيطين يعيشان فى سكانين مختلفين من العالم .

بطبيعة الحال ، عندما يعاد النظر فى وقائع من هذا القبيل ، مثلما فعلت فى هذه الخلاصة المجردة ، فانها لا تترك لدينا أكثر من قدر ضئيل من الانطباع — ان حدث ذلك — وتتوارد الى خاطرنا كلمة « وسيط » على الفور . وهناك أمثلة تفوق الحصر تثبت وجود حالات شعوذة وتدليس اقترفها نصابون ومخادعون لانتزاع المال من السذج الأبرياء . غير أن أنواع الخداع ومصادر الخطأ التى تتبادر الى أذهاننا دون أى جهد من قبلنا كتفسيرات طبيعية سهلة ، لما يبدو حقائق غير عادية ، تتكشف بنفس السرعة لأعضاء جمعية الأبحاث النفسية ، وعادة يكون هؤلاء الناس من أصحاب العلم والخبرة بالحيل التى يلجأ اليها الدجالون والوسطاء الأفاقون ، وممن يتفوقون علينا فى هذا المضمار . ومن ثم فانهم يتخذون الحيطة على نحو لا يخطر ببال المرتابين العاديين (٨) .

غير أننا اذا لم نتوقف عند البيانات المجملة ، وعانينا عوضا عن ذلك مشقة دراسة التقارير المفصلة ، فانه سيبين لنا آنئذ أن هذا التقارير لا تستحق فى جملتها سخريتنا ، اذ قد يتطلب قبول الفروض الخداعة أو اساءة المشاهدة استعدادا للمصداقية يفوق ما يحدث فى حالة قبول الوقائع الواردة فى هذه التقارير .

ومع هذا فان تفسير هذه الوقائع مسألة أخرى . ولم يتم التوصل حتى الآن الى أكثر من افتراضين وافيين لذلك . الافتراض الأول — هو أن الاتصالات تجيء فى الحق — كما أثبتت الدلائل — من أشخاص ماتوا واستمروا فى البقاء بعد الموت . والافتراض الثانى — هو افتراض التخاطر ، الذى يستند الى الزعم — الذى قد يبدو مدهشا بالقدر الكافى — بأن الوسيط قادر على جمع المعلومات مباشرة من عقول آخرين وأن هذا هو المصدر الصحيح للمعلومات ، التى يقوم بتوصيلها ، على أننا اذا أردنا بيان جميع الحقائق سيتعين امتداد هذا الافتراض بعيدا جدا ، لأن بعضهم يطالب أن نفترض أن الوسيط قادر على التسلل بلطف الى عقول

(٨) The Physical Phenomena of Spiritualists — H. Carrington (Small, Maynard & Co. بوسطون)

الأشخاص ، حتى لو كانوا بعيدين للغاية ، وغير معروفين لنا على الاطلاق ، وأن يكون بمقدوره حتى أن يتسلل الى الأجزاء غير الواعية من عقولهم ·

ولقد جرت محاولات متنوعة غاية فى البراعة ، اخترعت فيها حالات تثبت استحالة الأخذ بفكرة التخاطر كتفسير محتمل لما يحدث من اتصال بين الموتى والأحياء · غير أن بعض الباحثين الأقدر على النقد والأكثر استحواذا على الوثائق ما زالوا يعتقدون أن التخاطر لم يثبت حاجته الى الاستبعاد حتى الآن · ومن ثم فبالرغم من أن بعض الوقائع التى سجلتها مؤسسة الأبحاث النفسية قد مثلت لأول وهلة prima facie دليلا تجريبيا على استمرار الحياة بعد الموت ، الا أنه لا يمكن أن يقال ان « التخاطر » قد أصبح من المسائل الوطيدة التى لا يتطرق اليها الشك · بيد أن هذه الظاهرة قد بينت حاجتنا لمراجعة بعض جوانب من أفكارنا المألوفة مراجعة جذرية للتيقن مما هو ممكن ، ومما هو غير ممكن من الطبيعة ·

هل بمقدور الحالات الذهنية أن تحدث أحداثا جسمانية ؟

فلنتجه الآن الى حجة أخرى من بين الحجج التى ترد فى باب الاعتراض على استمرار البقاء بعد الموت ، وأما أن حالات الوعى تعتمد اعتمادا كليا على عمليات جسمانية ، ومن ثم فانها تستطيع الاستمرار بعد توقف الجسم عن الحياة ، فأمر قد ثبت من حقيقة امكان احداث مختلف حالات الوعى — وبخاصة الأنواع العديدة من الاحساسات — تبعا للمشيئة ، اذا أمكن استثارة الجسم استثارة صحيحة ·

حقا أنه بالاستطاعة احداث الاحساسات وغيرها من شتى الحالات الذهنية على هذا الوجه · الا أن لدينا أيضا أدلة حسنة ووفيرة تدل على أن الحالات الذهنية قادرة على احداث مختلف الأحداث الجسمانية · ويذكر جون لايرد من بين آخرين حقيقة ان مجرد ارتغاب رفع المرء لذراعه بطريقة طبيعية تكفى لدفعه الى الارتفاع ، وأنه بالمقدور نزوع فم أى انسان جائع الى اسالة اللعاب من مجرد التفكير فى الطعام ، وأن مشاعر الغضب والخوف والاضطراب تؤدى الى ايقاف عملية الهضم ، وأن القلق يحدث تغيرات ، كما وكيفا ، فى لبن الأم المرضع ، وأن ثمة أفكارا معينة قد تؤدى الى اسالة المدامع أو الشحوب واحمرار الوجه أو الاغماء ·· وهكذا (٩) ·

---

(٩) Our Minds and their Bodies — John Laird. ص ١٦ — ١٩ ·

وتتماثل الأدلة التى لدينا ، والتى تثبت أن هذه العلاقة علاقة سبب ونتيجة تتماثل وما يقال عن أن العمليات الجسمانية تحدث حالات ذهنية .

بطبيعة الحال قد يقال ان افتراض قيام شيء غير فزيائى كالفكر بتحريك شيء فزيائى كالجسم ضرب من السخف · غير أنى أعترف بأنه اذا كان عدم تجانس العقل والمادة قد جعل هذه الحالة سخفا ، فمن المستطاع القول بالمثل بسخف الزعم بأن الجسم يستثير الحالات الذهنية ، بيد أنه ليس ثمة أى سخف فى الزعم بأن جرح الجلد يحدث شعورا بالألم ، أو أن الكحول والكافيين والبرومين وغير ذلك من العقاقير تؤثر تأثيرا ملحوظا على الوعى ، وكما أوضح دافيد هيوم منذ أمد طويل : ليس هناك أى ارتباط على ما يمكن وصفه بالسخف من ناحية جوهرية · فبمقدور كل شيء أن يحدث أى شيء آخر · وعن طريق المشاهدة وحدها باستطاعتنا أن نعرف ما الذى يحدث ماذا ·

وتنطبق ملاحظات مماثلة نوعا على الزعم بأن مبدأ استمرار بقاء الطاقة يستبعد امكان وجود علاقة علية بين الحادثة الفزيائية والحادثة الذهنية · ولو كان ذلك كذلك ، سيصح استبعاد العلاقة العلية أيضا فى الاتجاه المعاكس · وهذا يتركنا ـ بطبيعة الحال ـ غير قادرين على تفسير حدوث الاحساسات على الاطلاق · ولكن وكما أشار كيتون (١٠) وآخرون ، فان ما يقال عن استمرار بقاء الطاقة ، ليس من الأشياء التى عرفناها من المشاهدات ، أو التى بمقدور المشاهدات أن تكشفها · اذ لا تزيد هذه العبارة أو المبدأ عن مسلمة ، أو مسلمة محددة بعبارة أصح لفكرة « النسق الفيزيائى المنعزل » ·

وهكذا يتضح أن مبدأ « استمرار بقاء الطاقة » شيء لا يتعين على المرء قبوله اذا كان يتضمن الاصرار على تصور العالم الفزيائى كعالم مكتف تماما بذاته ومستقل ومنعزل · ولما كانت الميتافزيقا التى تفترضها العلوم الطبيعية ضمنا تصر على تصور العالم الفزيائى على هذا الوجه ، فلا عجب اذا أرغمتهم هذه الميتافزيقا على ابقاء مبدأ استمرار بقاء الطاقة والتسليم بذلك ad hoc ، بينما قد كشفت المشاهدات على حدوث تشتت فى الطاقة ، ويسلم أصحاب هذا الرأى بذلك · ويقولون أن هناك شيئا آخر يظهر فى مثل هذه الحالات ، وقد نظر اليه حتى ذلك العهد على أنه طاقة · والصحيح أنه طاقة أيضا « وانما فى صورة مغايرة » ·

---

(١٠) M. T. Keeton "Some Ambiguities in the Theory of the — Conservation of Energy. ضمن Philosophy of Science الجزء الثامن فى ٣ يوليو ١٩٤١ ·

وفضلا عن ذلك ، وكما أكد « برود » ، أن كل ما يتطلبه مبدأ استمرار بقاء الطاقة هو القول بأنه عندما يختفى مقدار من الطاقة فى أحد مواضع العالم الفزيائى ، فان مقدارا مساويا له يتعين أن يظهر فى موضع آخر . كما أن هناك افتراضا بأنه فى بعض الحالات عندما تختفى الطاقة هنا وتظهر هناك ، فان هـذا قد يرجع الى حادثة ذهنية كأحد الأفعال الاختيارية على سبيل المثال . ولا يترتب على ذلك أى انتهاك على الاطلاق لمبدأ الحفاظ على استمرار بقاء الطاقة (١١) .

يأتى بعد ذلك الكلام عن التوازن القائم بين درجـة تقدم الأجهزة العصبية لمختلف الحيوانات ودرجة ذكائها . ويزعم أن هذه الظاهرة قد أثبتت وجود تنـاسب طردى بين درجـة الذكاء ودرجـة تقدم الأجهزة العصبية . غير أن الوقائع قد أيدت بالمثـل الافتراض الذى يرى عكس ذلك ، أى يرجع الى حالات الاحتياج الى قدرة عقلية أكبر ، التى يشعر بها شعورا غامضا ما يواجه الحيوان من مواقف تعزى اليها التنـوعات التى أنتجت فى آخر الأمر أجهزة عصبية أكثر كفاية .

وفى جميع الأحوال التى يمر بها تقدم الفرد ، يبدو واضحا أن الروابط العصبية الشديدة التعقيد والمتخصصة ، والتى توطدت فى المخ واللحاء المخى ، انما هى من نتائج الارادة والعزيمة ، وباستمرارها للعديد من السنوات تكتسب المهارة ، كما نرى فى حالة عازف البيانو القدير على سبيل المثال .

علينا أن لا ننسى فى هذا المقام أن هناك ما يقابل هذه النظرية . ويتوافق بالمثل والوقائع ، كمـا يبين من نظرية الظـواهر اللاحقة epiphenomenalism التى ترى أن الحالات الذهنية تتصل بالمخ على نفس النحو الذى يحدث فى مشاهد الهالات التى تحيط بالقديسين فى اللوحات الدينية . اذ تتصل هذه الهالة بالقديس كمعلول وليس كعلة على الاطـلاق . أما النظرية المقـابلة لذلك . والتى يجوز تسميتهـا hypophenomenalism ، والتى اتبعها شوبنهاور فترى أن الآلات التى تنشئها الآليات المتنـوعة للجسم هى نتاجات موضـوعية للاشتهاء الغامض للقوى المناظرة . وتعتقد على الأخص أن تنظيم العصر من نتائج تنوع الوظائف الذهنية والمتشاكلات المادية ، التى تمارس فى مستوى معلوم للوجود الحيوانى أو الوجود البشرى ....

---

(١١) The Mind and its Place in Nature — C.D. Broad.
ص ١٠٣ وما بعدها .

مراجع مقترحة للاستزادة

مختارات :

Anderson Alan Ross (ed.). *Minds and Machines.* Englewood Cliffs, N.J. : Prentice-Hall, 1964. A collection of interesting contemporary articles on the question of whether men are machines. The articles are difficult but worthwhile reading.

Flew, Anthony (ed.). Body, *Mind, and Death.* New York : Macmillan, 1966, Some important articles on the mind-body problem from Plato to the present day. The introduction and annotated bibliography are excellent.

Laslett, Peter (ed.), *The Physical Basis of the Mind.* Oxford : Basil Blackwell, 1951. A series of eight radio broadcasts given by British scientists and philosophers. The talks are very clear and interesting.

مؤلفات كاملة :

Adler, Mortimer *The Difference of Man and the Difference It Makes.* Cleveland : World 1967. The relation of the problem of existence of mind to the issue of how men differ from animals There is also a good discussion of whether men differ essentially from computing machines.

Beloff, John. *The Existence of Mind.* New York : Citadel, 1964. An examination of the arguments for and against dualism.

Ducasse, C. J. *Nature, Mind, and Death.* LaSalle, III. : Open Court, 1961, A good discussion of the mind-body problem and its relation to the question of immortality.

Hospers, John. *An Introduction to Philosophical Analysis*, 2nd ed. Englewood Cliffs, N.J. ; Prentice-Hall, 1967. Chapter 20 contains a very lucid statement of the main arguments and positions.

Lamont, Corliss. The Illusion of Immortality, 2nd ed. London : C. A. Watts, 1952. An attack on the belief in immortality. The book is clearly written but the arguments are not yery rigorous.

Taylor, Richard. *Metaphysics*, 2nd ed. Englewood-Cliffs, N.J. Prentice-Hall, 1974. Chapters 2-4 provide a clear discussion of the mind-body controversy and a defense of materialism.

Shaffer, Jerome. *Reality, Knowledge, and Value*. New York : Random, 1971. Chapters 8-14 provide a very readable account of the main issues in the mind-body controversy.

Dictionary of the History of Ideas : Studies of selected Pivotal Ideas. Philip P. Weiner, editor-in-chief. New York : Scribners, 1973. Substantial and clearly written essays emphasizing the historical development of topics discussed in this part. Designed to inform the nonspecialist, each essay concludes with a select bibliography.

Encyclopedia of Philosophy. Paul Edwards, editor-in-chief. New York : Macmillan, 1967. The student will find many worthwhile articles on the subject treated in this part, and excellent bibliographies.

وإلى اللقاء فى الجزء الثالث والأخير

فهرس كتاب الفلسفة وقضايا العصر

الجـــزء الثـــانى

●● كتب صدرت عن مشروع الألف كتاب (الثانى)

اسم الكتاب	اسم المؤلف
١ ـ أحلام الأعلام وقصص أخرى	برتراند رسل .
٢ ـ الألكترونيات والحياة الحديثة	ي . رادونسكايا .
٣ ـ نقطة مقابل نقطة	ألدس هكسلى .
٤ ـ الجغرافيا فى مائة عام	ت . و . فريمان
٥ ـ الثقـافة والمجتمـع	رايموند وليامز .
٦ ـ تاريخ العـلم والتكنولوجيا . ج ٢ . القرن الثامن عشر والتاسع عشر	ر . ج . فوربس
٧ ـ الأرض الغامضـة	ليستر ديل راى
٨ ـ الرواية الانجليزية	والتر ألن
٩ ـ المرشد الى فن المسرح	لويس فارجاس .
١٠ ـ آلهـة مصر	فرانسوا دوماس .
١١ ـ الانسان المصرى على الشاشة	د . قدرى حفنى وآخرون
١٢ ـ القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة	أولج فولكف .
١٣ ـ الهوية القومية فى السينما العربية	هاشم النحاس .
١٤ ـ مجمـوعات النقـود صيانتها .. تصنيفها .. عرضها	ديفيد وليام ماكدوال .
١٥ ـ الموسيقى ـ تعبير نغمى ـ ومنطق	عزيز الشوان
١٦ ـ عصر الرواية ـ مقال فى النوع الأدبى	د. محسن جاسم الموسوى
١٧ ـ ديلان توماس مجموعة مقالات نقدية	اشراف س. بى. كوكس
١٨ ـ الانسان ذلك الكائن الفريد	جون لويس
١٩ ـ الرواية الحديثة . الانجليزية ـ والفرنسية ج ١	بول ويست
٢٠ ـ المسرح المصرى المعاصر . أصله وبدايته	د . عبد المعطى شعراوى
٢١ ـ على محمود طه . الشاعر والانسان	أنور المعداوى
٢٢ ـ القوة النفسية للأهرام	بيل شول وأدنبيت
٢٣ ـ فن الترجمـة	د . صفاء خلوصى

اسم الكتاب	اسم المؤلف
٢٤ ـ تولستوى	رالف ثى ماتلو
٢٥ ـ ستندال	فيكتور برومبير
٢٦ ـ رسائل وأحاديث من المنفى	فيرنر هيزنبرج
٢٧ ـ الجزء والكل (محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)	فيكتور هوجو
٢٨ ـ التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
٢٩ ـ فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف ٠ ع أدنيكوف
٣٠ ـ أدب الأطفال ٠ (فلسفته ـ فنونه ـ وسائطه)	هادى نعمان الهيتى
٣١ ـ أحمد حسن الزيات ٠ كاتبا وناقدا	د ٠ نعمة رحيم العزاوى
٣٢ ـ أعلام العرب فى الكيمياء	د ٠ فاضل أحمد الطائى
٣٣ ـ فكرة المسرح	فرنسيس فرجون
٣٤ ـ الجحيم	هنرى باربوس
٣٥ ـ صنع القرار السياسى فى منظمات الادارة العامة	السيد عليوة
٣٦ ـ التطور الحضارى للانسان (ارتقاء الانسان)	جوكوب برونوفسكى
٣٧ ـ هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال ؟	د ٠ روجر ستروجان
٣٨ ـ تربية الدواجن	كاتى ثير
٣٩ ـ الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا ٠ سبنسر
٤٠ ـ النحل والطب	د ٠ ناعوم بيتروفيتش
٤١ ـ سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
٤٢ ـ سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د٠ لينوار تشامبرز رايت
٤٣ ـ كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د ٠ جون شندلر
٤٤ ـ الصحافة	بيير ألبير
٤٥ ـ أثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى	الدكتور غبريال وهبه
٤٦ ـ الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د ٠ رمسيس عوض
٤٧ ـ حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د ٠ محمد نعمان جلال
٤٨ ـ الفكر الأوروبى الحديث جـ١	فرانكلين ل ٠ باومر

اسم الكتاب	اسم المؤلف
٤٩ ـ الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعى
٥٠ ـ التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د · محيى الدين أحمد حسين
٥١ ـ نظريات الفيلم الكبرى	تاليف : ج· دادلى أندرو
٥٢ ـ مختارات من الأدب القصصى	جوزيف كونراد
٥٣ ـ الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد ؟	د · جوهان دورشنر
٥٤ ـ مبادرة الدفاع الاستراتيجى حرب الفضاء (دراسة تحليلية لأسلحة واستراتيجيات حرب الفضاء)	طائفة من العلماء الأمريكيين
٥٥ ـ ادارة الصراعات الدولية (دراسة فى سياسات التعاون الدولى)	د · السيد عليوة
٥٦ ـ الميكروكمبيوتر	د · مصطفى عنانى
٥٧ ـ مختارات من الأدب اليابانى (الشعر ـ الدراما ـ الحكاية ـ القصة القصيرة)	مجموعة من الكتاب اليابانيين القدماء والمحدثين
٥٨ ـ الفكر الأوروبى الحديث · ج ٢ (الاتصال والتغير فى الأفكار) من ١٦٠٠ ـ ١٩٥٠	فرانكلين ل · باومر
٥٩ ـ تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جابرييل باير
٦٠ ـ أعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	أنطونى دى كرسبنى وكينيث مينوج
٦١ ـ الفكر الأوروبى الحديث · ج ٣	فرانكلين ل · باومر
٦٢ ـ كتابة السيناريو للسينما	دوايت سوين
٦٣ ـ الزمن وقياسه	زافيلسكى ف · س
٦٤ ـ أجهزة تكييف الهواء	ابراهيم القرضاوى
٦٥ ـ الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتر ر· داى
٦٦ ـ سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى ·	جوزيف داهموس
٦٧ ـ التجربة اليونانية	س · م بورا
٦٨ ـ مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية	د· عاصم محمد رزق
٦٩ ـ العلم والطلاب والمدارس	رونالد د· سمبسون و نورمان د· أندرسون
٧٠ ـ الشارع المصرى والفكر ·	د· أنور عبد الملك

اسم الكتاب	اسم المؤلف
٧١ ـ حوار حول التنمية	والت روستو
٧٢ ـ تبسيط الكيمياء	فريد هيس
٧٣ ـ العادات والتقاليد المصرية	جون بوركهارت
٧٤ ـ التذوق السينمائى	آلان كاسبر
٧٥ ـ التخطيط السياحى	سامى عبد المعطى
٧٦ ـ البذور الكونية	فريد هويل شندرا ويكرا ماسيخ
٧٧ ـ دراما الشاشة ج١	حسين حلمى المهندس
٧٨ ـ الهيروين والايدز	روى روبرتسون
٧٩ ـ الفكر الأوروبى الحديث ج ٤	فرانكلين ل· باومر
٨٠ ـ نجيب محفوظ على الشاشة	هاشم النحاس
٨١ ـ صور افريقية	دوركاس ماكلينتوك
٨٢ ـ الكمبيوتر فى مجالات الحياة	د · محمود سرى طه
٨٣ ـ دراما الشاشة ج ٢	حسين حلمى المهندس
٨٤ ـ المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
٨٥ ـ وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدوروفيتش سيرجيف
٨٦ ـ الهندسة الوراثية	ويليام بينز
٨٧ ـ تربية أسماك الزينة	ديفيد الدرتون
٨٨ ـ كتب غيرت الفكر الانسانى	أحمد محمد الشنوانى
٨٩ ـ الفلسفة وقضايا العصر ج١	جمعها : جون · ر · بورر وميلتون جولد ينجر
٩٠ ـ الفكر التاريخى عند الاغريق :	أرنولد توينبى
٩١ ـ قضايا وملامح الفن التشكيلى	د· صالح رضا
٩٢ ـ التغذية فى البلدان النامية	م·هـ كنج وآخرون
٩٣ ـ الفلسفة وقضايا العصر ج ٢	جمعها : جون ريورد وميلتون جولدينجر

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٠/٧٧٣٨

ISBN — 977 — 01 — 2558 — X